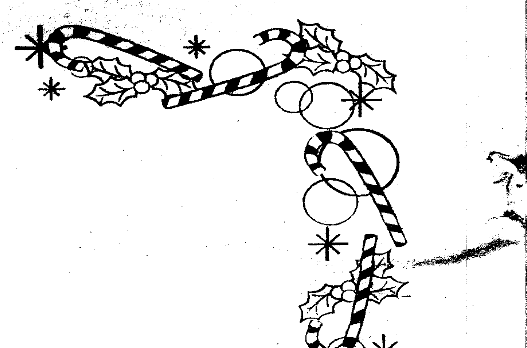


من عيون الأدب العربى

العصر الجاهلى

تأليف

الأستاذ الدكتور
عبد الهادى عبد النبى على

الأستاذ الدكتور
طلعت صبح السيد

الطبعة الأولى

٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه ، ومن اتبعهم بإحسان واهتدى بهديهم إلى يوم الدين .

وبعد :

فلا شك أن الشعر الجاهلى هو أكبر علوم العرب ، وأوفر فنون الأدب حظا عندهم ، ولم لا يكون كذلك وقد أودعوه حياتهم وكل أخبارهم ، كما أودعوه أيامهم ووقائعهم ومفاخرهم .

ومن خلال هذا الشعر نعرف أيام العرب وتاريخهم ، ونقف على أحسابهم وأنسابهم وبعد ذلك كله نقف جملة وتفصيلا على الأوصاف التى وصفوا بها البيئة العربية فى العصر الجاهلى .

ولا نغالى إذا قلنا إن شعر العصر الجاهلى قد تفاعل إلى أبعد غاية مع نفس العربى ، وتكاملت به شخصيته ، وتألف منه كيانه المتميز ، واتجاهه فى فهم الحياة من حوله ، بل والحكم على ظواهرها ، مما يؤكد أن هذا الشعر كان صورة

لكل تلك القوى المتفاعلة المتكاملة من حوله .

لهذا حرصنا كل الحرص على أن نتحدث فى هذا المؤلف عـــن بعض النصوص الأدبية الجاهلية ، وسوف نتناولها بإذن الله تعـــالى بطريقة متميزة تحرينا أن نجعلها فى المقام الأول ثقافة أدبية مشوقة تحقق لأبنائنا الطلاب المتعة و الفائدة معا .

كما حرصنا – ونحن نتجول فى رياض كل نص – على أن نوضح صلة النص بالبيئة ، و المناسبة التى قيل فيها النص، وعنيـــنا كذلك بتوضيح الأفكار ومناقشتها ، لتكون المعلومات مـــترابطة ، هذا فضلا عن التزامنا بكل التوجيهات و الأصول ذات الصلة بالتأليف وتناول النصوص الأدبية .

و انـــنا لنرجو لمحاولتنا هذه أن تكون عملا فنيا ونقديا يتسم بالتفصـــيل و التدقيق و التمحيص ، وأملنا أن يوفق أبناؤنا الطلاب لتحقيق ما فيها من غاية ، وإصابة ما تنطوى عليه من أهداف .

و الله حسبنا ونعم الوكيل .

الأستاذ الدكتور
عبد الهادى عبد النبى على

الأستاذ الدكتور
طلعـــــت صبـــح السيـد

معلقة عمرو بن كلثوم

يقول الشاعر :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا

ولا تبقى خمور الأندرينـــا [١]

مشعشعة كأنَّ الحص فيها

إذا ما الماء خالطها سخينـــا [٢]

تجور بذى اللبانة عن هواه

إذا مـــــا ذاقها حتى يلينـــا [٣]

---

(١) ألا : للتنـــبيه وافتـــتاح الكـــلام . هبى : استيقظى وانتبهى وقومى من مـــنامك. الصـــحن : القـــدح العظيم وجمعه صحون .فأصبحنا : أى سقينا الصبوح وهو شرب الغداة .الأندرينا: قرية جنوب حلب بالشام . لا تبقيها : أى تبقيها لغيرنا وتصبحينا من غيرها .

(٢) مشعشـــعة : ممتزجة بالماء أو مرققة لا يستقصون عصرها . الحص: نبات له نوار أحمر يشبه الزعفران أو الزعفران نفسه أو الورس وهو نبات يستعمل فى تلوين الملابس باللون الأحمر . سخينا : أى الحار وذلك على أنه صفة وفعله : سخن يسخن سخونة ، ويجوز أن يكون فعله : سخى يسخى سخاء أو سخو يسخو أو سخا يسخو سخاوة مثل : عليت علاءً وسخوت سخاء .

(٣) تجور به : تعدل به عن هواه وتميله . اللبانة : الحاجة . حتى يلينا : أى حتى يلين لأصحابه ويجلس معهم ويترك حاجته .

ترى اللحز الشحيح إذا أمرت

عليه لما له فيها مهينـــــا.(٤)

وإنا سوف تدركنـــا المنايـــا

مقــــدرة لنا ومقدرينــــا (٥)

قفي قبل التفرق يا ظعينــــا

نخبـــــرك اليقين وتخبرينا (٦)

---

(٤) الــلحز : الضيق الصدر . الشحيح : البخيل الحريص . أمرت : دارت عليه . أهان ماله : أنفقه ، وأكرم ماله : حفظه وحرص عليه .

إذا أمرت: أى إذا أديرت عليه .

(٥) المـــنايا : الموت والآجال ، والأقدار ، المنايا : جمع المنية وهى تقدير الموت .

(٦) قفى : أى قفى مطيتك علينا قبل أن ترحلى عنا .

الظعينة : المرأة فى هودجها . وظعينة فعيلة بمعنى فاعلة . اليقين : الحق الذى لا شك فيه .

بيوم كريهة ضربـــاً وطعناً

أقر به مواليك العيونـــــا (٧)

فقفى نسألك : هل أحدثت صرما

لوشك البين أم خنت الأمينا ؟ (٨)

وإن غدا وإن اليــوم رهـــن

وبعد غد بمالا تعلمينـــــا (٩)

( ) الكــريهة : من أسماء الحرب . مواليك : بنو عمك . ونصب : ضربا وطعــنـ : على المصدرية . والضمير فى به : لليوم . والباء فى بيوم : من صـــلة قــفى أى بهذا اليوم الكريه . وجمع كريهة : كرائه وسميت الحرب كريهة لأن النفس تكرهها والجمع : الكرائة .

(٨) الصرم : القطيعة . الوشك : السرعة . البين : الفراق .
الأمين : بمعنى المأمون ، والأمين هو الشاعر لأنه حفظ سرها .

(٩) اليوم رهن : الأيام مرتهنة بما لا نعلمه من الأقدار . بما لا تعلمينا : أى من الحوادث . رهن : أى ملازمة .

تريك إذا دخلت علـــى خلاء

وقد أمنت عيون الكاشحينـــا (١٠)

ذراعى عيطل أدمـــاء بكـــر

تربعت الأجارع والمتونـــــا (١١)

وثديا مثل حق العـــاج رخصاً

حصاناً من أكف اللامسينـــــا (١٢)

---

(١٠) خـــلاء : أى خـــلوة من الرقيب . الكاشح : العدو المبغض أى مضمر العـــداوة فى كشـــحه وجعـــلت العرب العداوة فى الكشح لأنه موضع الكبد والعداوة عندهم فيه .

(١١) العيطـــل : الطويـــلة العـــنق مـــن النوق . الأدماء : البيضاء منها . والأدمة: البياض فى الإبل . البكرة : الناقة التى حملت مرة واحدة . والبكر : بفـــتح الـــباء : الفتى من الإبل ، تربعت : رعت ربيعاً . الأجارع : جمع الأجـــرع وهو المكان الذى فيه جرع والجرع : جمع : جرعة وهى دعص الـــرمل غيـــر منـــبت . المتون : جمع متن وهو الظهر من الأرض الجلد الصلب . الأجرع : رواب من رمل نبت البقل أيضاً .

(١٢) مـــثل حـــق العاج : أى ناهد الصدر على هيئة الحق من العاج بياضاً واستدارة . رخصا : لينا . حصانا : عفيفة وممتنعة . اللامسون : أهل الريبة .

ومتنى لدنـــة طالــــت ولانت

روادفها تنـــوء بما يلينـــا (١٣)

ومأكمة يضيق البــــاب عنهــا

وكشحا قد جننت به جنونـــا (١٤)

وساريتى بلنـــط أو رخـــام

يرن خشاش حليهمــــا رنينــا (١٥)

(١٣) المـــتن : جـــانب الفقار من نصف الصلب إلى أسفله .لدنة : أى قامة لدنة: واللدنة : اللينة الناعنة .

الـــراواف : مــا يلى العجيزة ويرتدفها من أسفل الظهر ومفردها : ردف .

تـــنوء : تـــنهض فى تثاقل . بما يلينا : أى بما وليته من العجز ، ويروى البيت: بما ولينا .

(١٤) المأكمة : رأس الورك ، والجمع : مآكم . والكشح : الخاصرة .

(١٥) السارية : الاسطوانة والجمع : السوارى . البلنط : العاج .

ويريد الشاعر : ساقيها . والرنين : الصوت . حليهما : خلا خيلهما. أو ما تلبسه من حلى تتزين به .

فما وجدت كوجـــدى أم سقب
أضلته فرجعــت الحنينـــــا (١٦)
ولا شمطاء لم يتـــرك شقاها
لها مـــن تسعة الإجنينـــا (١٧)
فأعرضت اليمامة واشمخرت
كأسياف بأيـــدى مصلتينا (١٨)

---

(١٦) الوجد : الحزن . أم سقب : ناقة ، والسقب : ولدها الذكر . قال القاضى السيرافى : البعير : بمنزلة الإنسان ، والجمل : بمنزلة الرجل، والناقة بمنزلة : المرأة ، والسقب : بمنزلة الصبى ، والحائل : بمنزلة الصبية . والحوار : بمنزلة الولد ، والبكر : بمنزلة الفتى ، والقلوص : بمنزلة : الجارية . أضلته : ضاع منها . رجعت الحنين : رددت صوتها حزناً ، والترجيع : ترديد الصوت . والحنين : صوت المتوجع .

(١٧) الشمطاء : المرأة المسنة ، الشمط : بياض الشعر . الجنين : المستور فى القبر.

(١٨) أعرضت : أقبلت عليهِ فرآها من عرضها وهى تبتسم ، عرض لى وأعرض لى بمعنى واحد ، وأعرضت : ظهرت ، عرضت الشئ : أظهرته. اشمخرت : ارتفعت وطالت أى ظهرت مستطيلة. المصلتون : الذين أصلتوا سيوفهم ، وأشهروها . اليمامة : الموضع الذى قصدته حبيبته.

أبا هند فلا تعجـــل علينـــا

وأنظرنا تخبـــرك اليقينـــا[١٩]

بأنا نورد الرايـــات بيضـــا

ونصدرهن حُمراً قـــد روينـــا [٢٠]

وأيـــام لنـــا غـــر طوال

عصيبنا الملك فيها أن ندينـــا [٢١]

---

(١٩) أبو هند : عمرو بن هند الملك وهو : أبو المنذر .
فلا تعجل علينا : أى بالوعيد والتهديد . وأبا هند : منادى .

(٢٠) الرايات الأعلام . نوردها : أى كما تورد الإبل الماء وهن بيض .
نصدرهن : نردهن عن الطعن وهن حمر من الدم .

(٢١) أيام غر: أى مشاهير . الملك : الملك . وغر : صفة لأيام .
نديـــن : نطيـــع ونذل ونخضع . والديـــن : العـــادة. وطوال صفة ثانية لأيام .

وسيد معشر قــــد توجـــوه

بتاج الملك يحمى المحجرينـــا (٢٢)

تركنا الخيل عاكفـــــة عليه

مقلدة أعنتهـــا صفـــونـــــا (٢٣)

وقد هرت كلاب الحـــــى منا

وشذ بنا قتادة مـــن يلينـــــا (٢٤)

---

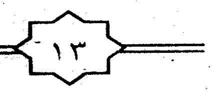
(٢٢) وســـيد معشـــر : رب سيد قوم . توجوه : ملكوه عليهم وتوجوه بتاج الملك . يحمى : يمنع . المحجرين : الملجئين ، أحجرته : ألجأته.

(٢٣)العكوف : الإقامة . والفعل : عكف يعكف .

الصـــافن : القـــائم ، أو الذى يرفع إحدى قوائمه من الإعياء معتمداً على سنابكها .والسنبك مقدم الحافر . والأعنة : جمع عنان وهو لجام الفرس . و(سيد) فى البيت السابق خبره فى هذا البيت .

(٢٤) هرت كلاب الحى : كرهتنا الكلاب لما رأت علينا السلاح وأنكرتنا .

ويـــروى البيت : وقد هرت كلاب الجن " شذ بنا : ذللنا وفرقنا والتشذيب : تقليم فروع الشجرة ونفى الشوك والأغصان الزائدة . القتاد : شجر ذو شوك والمفرد :قتادة من يلينا : أى يقرب منا ويلينا من أعدائنا أو من يلى حربنا.



متى ننقل إلى قـــوم رحانـــا

يكونوا فى اللقاء لهـــا طحينـــا (٢٥)

يكون ثفالهـــا شرقـــى نجـــد

ولهوتها قضاعـــة أجمعينـــا (٢٦)

نزلتم منزل الأضيـــاف منا

فأعجلنا القرى أن يشتمونـــا (٢٧)

---

(٢٥) أراد بالـــرحى : رحى الحـــرب ، حيث جعل الحرب بمنزلة الرحى ، واستعار للحرب اسم الرحى كما استعار لقتلى الأعداء : اسم الطحين .

(٢٦) الثفال : خرقة أو كساء يوضع تحت الرحى لينزل عليها الدقيق . الشـــرقى : مـــا ولى الشـــرق . ونجد : نجد تهامة وهو ماارتفع عنها من الأرض. الـــلهوة : القبضة من الطعام يلقى فى الرحى ليطحن قبل دورانها وقضاعة: حى عظيم وقبيلة كبرى من قبائل العرب المشهورة .

(٢٧) نزلتم منزل الأضياف : أى أتيتمونا فقربتم منا كما يقرب الضيف من الحى ليضاف .فأعجلنا القرى : أى لقيناكم بالحرب . أن تشتمونا : أى أن لا تشـــتمونا أى بادرناكم بالحرب وأعجلناكم عن قول نكرهه منكم . أو أن المعنى على سبيل التهكم والسخرية : أى عجلنا قرى ضيفنا حتى لا يتهمنا بالبخل والشح .

قريناكـــم فعجلنـــــا قراكـــــم

قبيل الصبح مرداة طحونـــــا (٢٨)

نطاعن ما تراخـــى الناس عنا

ونضرب بالسيوف إذا غشينـــا (٢٩)

نشق بها رؤوس القـــــوم شقا

ونختلب الرقـــــاب فتختلينـــا(٣٠)

---

(٢٨) المـــرداة : الصخرة التى يكسر بها الصخور ، أو الصخرة التى يرمى بهـــا أو الصـــخرة الـــتى تملأ الكف ، ويقال : رداه : أى رماه بصخرة ، واســتعار المـــرداة للحرب . الطحون : فعول من الطحن والطحون : التى تطحن ما وقعت عليه وتفتته .

أى رميناكم بأنفسنا فطحناكم طحنا كما تطحن الرحى الطحين.

(٢٩) الـــتراخى : البعد . الغشيان : الإتيان ، غشينا : أتونا . يريد أن شأنهم طعن من لا تناله سيوفهم .

(٣٠) الاختلاب : قطع الشئ بالمخلب وهو المنجل الذى لا أسنان له .

والاختلاء : قطع الخلا وهو الحشيش الرطب .

وروى البيت : **وتخليها الرقاب فيختلينا**

وإن الضغن بعد الضغن يفشـــو

عليك ويخرج الـــداء الدفينـــا (٣١)

ورثنا المجد قد علمــــت معد

نطاعن دونه حتــــى يبينـــا (٣٢)

ونحن إذا عماد الحـــــى خرت

على الأحفاض نمنع من يلينـــا (٣٣)

---

(٣١) الضـــغن : العداوة المكتومة فى القلب ولا تظهر إلا بآثارها التى تدل عليها والضغن : الحقد والجمع : أضغان . والضغينة : جمعها : الضغائن . يفشـــو : يتســـع وتظهر دلائله . الداء : الحقد والعداوة : الدفين : المدفون والمستتر والخفى .

(٣٢) المجد : شرف الآباء والفعال المأثور . يبينا : أى يستبين ويظهر . نطاعن : نقاتل . دونه : من أجله .

(٣٣) العماد : مفردها عمود . الأحفاض : الأمتعة .

ويروى البيت

" عن الأخفاض " فيكون المعنى : الإبل . .

من يلينا : من يجاورنا ويقترب منا .

نجذ رؤوسهم فى غير بـــــر

فما يدرون مـــــاذا يتقونـــــا (٣٤)

كأن سيوفنا فينـــــا وفيهـــــم

مخاريق بأيـــــدى لاعبينـــــا (٣٥)

كأن ثيابنـــا منـــــا ومنهـــــم

خضبن بأرجـــوان أو طلينـــا (٣٦)

---

(٣٤) نجذ أو نجد : نقطع ، وروى : نجز : أى نحلق نواصيهم .
فى غير بر : أى فى عقوق والبر : ضد العقوق وهو الطاعة.
يتقونا : أى يحذرون منا من القتل ، وما يدرون ماذا يتقون : أى نأخذهم من كل وجه والتقوى : الخوف والتاء فيها مبدلة من الواو .

(٣٥) المخـــاريق : جمع المخراق وهو سيف من خشب ، وأراد الشاعر أن سيوفهم كانت خفيفة فى أيديهم كخفة المخاريق بأيدى اللاعبين .

(٣٦) الأرجوان : صبغ أحمر .
أو طلينا : أى طلين بالدم . والطلاء : التلطيخ ، والقطران . تقول : طليته بالدهن طليا . والطلاء : من أسماء الخمر

ألا لا يجهلن أحـــد علينـــا

فنجهل فوق جهل الجاهلينـــا (٣٧)

بأى مشيئة عمـــرو بـــن هند

نكون لقيلكـــم فيهـــا قطيـــنا (٣٨)

بأى مشيئة عمـــرو بـــن هند

نطيع بنا الوشـــاة وتزدرينـــا (٣٩)

---

(٣٧) الجهـــل : السفه وسمى جزاء الجهل جهلا لازدواج الكلام . مثل قوله تعالى : " **وجزاء سيئة سيئة مثلها** " . والجهل ضد العلم وجمع جاهل جهل وجهل وجهال وجهلاى .

(٣٨) القيل : الملك دون الملك الأعظم .وروى :

نكون لخلقكم فيها قطينا

القطيـــن : الخـــدم . لخلقكم : : تسلكم والخلف : النسل الردئ . والمشيئة: مشتقة مت الشيىء وشاء : أراد شيئا .

(٣٩) الوشاة : الحساد والمبغضون .الازدراء : الاحتقار والتقصير .

فإن قناتنا يا عمرو أعيـــت

على الأعـــداء قبلك أن تلينا (٤٠)

ورثنا مجد علقمة بـــن سيف

أباح لنا حصون المجد دينـــا (٤١)

ورثت مهلهلاً والخير عنـــه

زهيراً نعم ذخر الذاخرينـــا (٤٢)

---

(٤٠) أعيت : أعجزت وأبت أن تلين . واستعار القناة للعز على عادة العرب قناتنا : عزنا . أبت أن تلين : أن تزول . وضرب القناة مثلا للشدة . ويريد الشاعر أن عزهم منيع لا يرام . والقناة الأصل .

(٤١) عـلقمة بن سيف : من أسلافه الشرفاء . أباح حصون المجد : جعلها مباحة قهرا أو عنوة أى غلب أقرانه على المجد ثم أورثنا هذا المجد . الديـن : القهـر ، ومـنه قوـله تعالى : " فلولا إن كنتم غير مدينين " أى مقهورين .

(٤٢) مهـلهلا : مهلهل بن ربيعة . والخير عنه : نسق على مهلهل والخير هو : زهير يعنى : يعده . وعن : مرادفة لبعد . نعم ذخر الزاخرينا : أى بما ورثته عن هؤلاء فى الاقتداء بهم.

ومنا قبله الساعـــى كليـب

فأى المجد إلا قـــد ولينـــا (٤٣)

ونحن الحابســون بذى أراطى

تسف الجلة الخور الدرينـــا (٤٤)

ونحن الحاكمــون إذا أطعـنا

ونحن العازمــون إذا عصينـا(٤٥)

---

(٤٣) الضـــمير فى قـــبله يعود على ذى البرة الذى ذكره الشاعر فى البيت الســـابق على هذا البيت ولم نذكره . وذا البرة :رجل من تغلب . والبرة : الحلقة .إلا قد ولينا : أى حوينا وحويناه . وكليب بن ربيعة . الساعى : فى الصلح و الديات .

(٤٤) ذو أراطى : موضع حبسوا به إبلهم وأقاموا عليها .

تسف : تأكل يبسا و المصدر : السوف والاسم : السفة والسفوف .

الجلة : الكبار من الإبل وعظامها .

الخـــور : الكثيرة الألبان أو الغزار من الإبل . الدرينا : ما اسود من النبت وقدم ويبس ثم جف وترعاه الإبل .

(٤٥) ويـــروى : ونحـــن العارمون إذا عصينا " من العرامة : بمعنى الشدة والشراسة . والحاكمون : أى بالعدل . والعازمون: أى على تقويمهم وردهم عن عصيانهم وغيهم .

ونحن التاركون لمـــا سخطنا

ونحن الآخذون لمـــا رضينا [٤٦]

وكنـــا الأيمنين إذا التقينـــا

وكان الأيسرين بنـــو أبينـــا [٤٧]

فصالوا صولة فيمـــن يليهـــم

وصلنا صولة فيمـــن يلينـــا [٤٨]

---

(٤٦) سخطنا : كرهنا . أى أنهم دائما على رضا . والبيت فيه تعريض .

(٤٧) يصف حربا كانوا فيها فكانوا هم وبنو أبيهم : يريد بكر بن وائل على الميسرة ، وبنو تغلب على الميمنة ، أو أراد بالأيمنين : الشدة وبالأيسرين: الضعف .

(٤٨) صـــالوا : وثـــبوا ، المصاولة : المواثبة أى عالوهم بأنفسهم ليغلبوهم فيمن يليهم : أى من أعدائهم.

فآبوا بالنهـــاب وبالسبايـــا

وأبنا بالملـــوك مصفدينـــا (٤٩)

إليكم يا بنى بكـــر إليكـــم

ألما تعرفوا منـــا اليقينـــا (٥٠)

ألما تعلموا منـــا ومنكـــم

كتائـــب يطعـــن ويرتمينـــا (٥١)

---

(٤٩)الأوب : الرجوع ، آبوا : رجعوا ، أى رجعت بكر بن وائل.
الـنهاب : الغـنائم ومفردها : نهب ، وسمى الغنيمة نهبا لأنها أخذت عنوة وقهـرا والـنهب : الغنيمة والجمع : نهاب ونهوب. السبايا : النساء اللاتى أخذن سبايا . والمفرد : سبية .
مصفدين : مقيدين ، التصفيد : التقييد. مقيدين فى الأصفاد : مفردها: صفد.

(٥٠) إليكم : كفوا وتباعدوا وانتهوا وتنحوا عن مباراتنا يا بنى بكر ،.
يقال : إليك : أى تنح وأقصر . ألما : بمعنى ألم ، ولكن "لم" لنفى ما مضى ولا تدل على توقع الفعل الذى نفى ، ولما : نفى ما مضى وفيها تراخى وقوع الفعل ، فيقال : ألم تعلم ! أى أجهلت ؟ ويقال : ألما تعلم : أى : أبطأت فى العلم.

(٥١) يطعـن : يطعـهن بعضـهن بعضا والطعن بالرمح ، يقال : طاعنته مطاعنة وطعانا . يرتمينا : يرمى بعضهم بعضا .

علينا البيض واليلب اليمانـــى

وأسياف يقمـــن وينحنينـــا (٥٢)

علينا كــل سابغـــة دلاص

ترى فوق النجـــاد لها غضونا(٥٣)

إذا وضعت عن الأبطال يوما

رأيت لها جلود القوم جونـــا (٥٤)

---

(٥٢) البيض : الحديد . وقيل : جلود تضفر وتلبس بدلا من الردع .
اليلب : نسيجة من سيور تلبس تحت البيض .
يقمن و ينحنيـــنا : أى يـــرفعن للضـــرب ، ويحططن فى الضرب ، لطول الضرب بها أو إذا ضربوا بها انحنت لشدة الضرب بها .
(٥٣) السابغة : الدرع الواسعة التامة . دلاص : براقة مصقولة .
الـــنجاد : حمالة السيف ، الغضون : جمع غضن وهو : التشنج فى الشئ ، والغضون : التكسر . لها : أى للبسها .
(٥٤)جلود القوم : ثياب القوم .
الجون : الأسود والأبيض من الألفاظ الأضداد . والجون : جمع الجون .
والمراد فى البيت : السواد ، أى اسودت ثيابهم من صدأ الدروع .

كأن غضونهــن متــون غدر

تصفقها الريــاح إذا جرينـــا [٥٥]

وتحملنا غداة الـــروع جــرد

عرفن لنا نقائـــذ وافتليـــنا [٥٦]

---

(٥٥) متون الغدر : أوساطها وأعالى مياهها ، والغدر : جمع غدير ويجمع : على : غدران.والغدير : هو المكان الثابت يجرى عليه السيل فيخلف فيه الماء ، يقال : غادرته بمكان كذا أى خلفته .

تصفقها الرياح : أى تضربها ، تضرب بعضها ببعض فى جريها .
والضمير فى غضونهن للدروع.

والضمير فى تصفقها : لمتون الغدر. شبه الشاعر : غضون الدروع بمتون الغدران إذا ضربتها الرياح فى جريها .

إذا جرينا: أى إذا جرت الرياح. ويروى : إذا عرينا فجعلها للمتون .

(٥٦) الروع : الفزع ويريد به هنا : الحرب أو الغارة .

الجرد : جمع : الأجرد وهو الفرس قصير الشعر وهى صفة حسن فى الفرس .

النقائذ : المخلصات من أيدى الأعداء ، استنقذوها : خلصوها واحدتها : نقيذة وهى فعيلة بمعنى مفعلة .

افتلينا : الفلو والافتلاء: الفطام أى اقتطعن عن أمهاتهن .

ورثناهن عن آباء صـــــدق

ونورثها إذا متنـــــا بنينـــا (٥٧)

ترانا بارزين وكـــــل حـــى

قد اتخذوا مخافتنا قرينـــــا (٥٨)

وقد علم القبائل مــــن معد

إذا قبب بأبطحهـــــا بنينـــــا (٥٩)

بأنا المنعمـــــون إذا قدرنا

وأنا المهلكون إذا أتينـــــا (٦٠)

---

(٥٧) ورثناهن : أى الخيل ، أباء صدق : أى شأنهم الصدق فى القول والفعل . والشاعر يريد أن الخيل تناتجت وتناسلت عندهم قديما.

(٥٨) بارزين : خارجين إلى الأرض البراز أى الصحراء التى لا جبل بها .
اتخذوا مخافتنا قلرينا : أى كل قبيلة تستجير بغيرها مخافة سطوتنا .

(٥٩) القبب : : جمع قبة وتجمع على : قباب كذلك .
الأبطح : المكان المتسع فى بطن الوادى ، وكانت تضرب بألابطح للمفاخرات ، والضمير فى أبطحها : يعود إلى القبب .

(٦٠) المنعمون إذا قدرنا : أى إذا قدرنا على قوم مننا عليهم وأطلقناهم .
وإذا أتونا يريدون حربنا أهلكناهم ودمرناهم .

ونشرب إن وردنا الماء صفوا

ويشرب غيرنا كدرا وطينـــا (٦١)

إذا ما الملك سام الناس خسفا

أبينا أن نقـــر الذل فينـــا (٦٢)

ملأنا البر حتى ضـــاق عنا

وماء البحر نمـــلأه سفينـــا (٦٣)

إذا بلغ الفطام لنـــا رضيـــع

تخر لـــه الجبابر ساجدينـــا (٦٤)

---

(٦١) يـــريد أنهم القادة والسادة وغيرهم أتباع لهم ، فهم يأخذون الأفضل من كل شئ ويتركون سواه لغيرهم والصفو والصفاء نقيض الكدر .

(٦٢) الملك : الملك . الخسف : الذل والظلم . سامه خسفا : حمله وكلفه ما فيه ذلة وظلم ونقصان وهوان ومشقة . والمخاسف جمع : خسف.
الســـوم : أن تحمـــل إنســـانا مشقة وشرا وظلماء : ومنه : يسومونكم سوء العذاب .أبينا : امتنعنا أن نقبل ظلمه ورفضنا ذلك .نقر:نقبل ونرضى به.

(٦٣) وروى : وبحر الماء نملؤه سفينا والسفينا : السفن .

(٦٤) تخر : تسجد في ذلة. وخر : سجد وسقط ومات وخجل .
الجبابر : الجبابرة جمع : الجبار وهو القاعر والعالى والعاتي والمتمرد
ويروى البيت : إذا بلغ الفطام لنا صبى" وروى" إذا بلغ الرضيع لنا فطاماً".

حياة الشاعر وشعره :

هـو : أبو عباد وقيل : أبو الأسود : عمرو بن كلثوم ابـن مالك بن عتاب التغلبى ، كان أبوه كلثوم سيد قومه ، وأمه ليلى بنت المهلهل أخى كليب وكانت تسكن قبيلة (تغلب) الجزيرة وما حولها وكانت من أشهر القبائل العربية وأقواها حتى قالوا : " لو أبطأ الإسلام لأكلت بنو تغلب الناس " .

نشأ عمرو بن كلثوم فى قبيلة (تغلب) وشب على خلال العظماء عزيز النفس أبى الضيم فصيح اللسان وما ان بلغ الخامسة عشرة من عمره ساد قومه وقاد قبيلته وحروبها الطاحنة خاصة مع قبيلة بكر بن وائل أختها بسبب حرب البسوس الطاحنة التى ظلت رحاها نحو أربعين عاما ، وكان عمرو قطبا لرحا الحرب التى دارت

بيـن بكـر وتغـلب وأبلى فيها بلاء حسنا حتى تصالحت القبيلتان لآخر مرةعلى يد عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة من آل المنذر الذى أصلح بين القبيلتين واتخذ من كل قبيلة رهينة من الغلمان حتى لا يعودوا إلى القتال مرة أخرى .

حذا عمرو بن هند حذوه فى أخذ الرهائن من القبيلتين فى الصـلح بيـنهما ، وذات يوم سير الملك عمرو بن هند قوما مـن بكر وتغلب إلى جبل طيئ فى أمر من أموره ونـزلوا على ماء لبنى شيبان وهم من قبيلة بكر ، فأبعدوا التغلـبيين عن الماء حتى ماتوا عطشا ، فطلبت تغلب دية القتلى من بكر واختصما وتحاكما إلى عمرو بن هند وكان سـيد تغلب عمرو بن كلثوم شاعرها المقدام وانتدبت بكر شـاعرها الحـارث بن حلزة وألقى معلقته المشهورة فمال عمـرو بن هند نحو قبيلة بكر فانصرف ابن كلثوم موغر الصدر على ابن هند ، وقيل انتدبت بكر النعمان ابن هرم أحد أشرافها وانتدبت تغلب عمرو بن كلثوم قائدها ، فوقع جـدال بين عمرو بن هند وبين النعمان (حيث كان عمرو

ابـــن هند يفضل التغلبيين) غضب له الملك فطرد النعمان مـــن مجلســـه وأنشـــد عمرو بن كلثوم قسماً من معلقته ثم أضـــاف القسم الثانى بعد قتله لعمرو بن هند بسبب إذلاله لأم عمرو بن كلثوم حينما طلب من ندمائه أن يخيروه عن أحـــد مـــن العـــرب تأنف أمه من خدمة أم عمرو بن هند فقـــالوا: لا نعلم إلا عمرو بن كلثوم فأمه ليلى بنت المهلهل وعمهـــا كـــليب وائـــل أعز العرب وزوجها كلثوم فارس العـــرب وابنها عمرو سيد قومه ، فأرسل ابن هند إلى ابن كلـــثوم أن يـــزوره ومعه أمه ففعل وكان عمرو بن هند قد أوغر إلى أمه أن تستخدم أم عمرو بن كلثوم فى خدمتها ، فقـــالت هند: " يا ليلى ناولينى هذا الطبق " فقالت : " لتقم صـــاحبة الحاجة إلى حاجتها " فأعادت هند طلبها فصاحت ليـــلى " واذلاه يالتغلب " فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم فى وجهه وأخذ سيفاً لعمرو بن هند كان معلقا وضرب به رأس عمرو بن هند وسار مع قومه إلى الجزيرة .

وفى ذلـــك قال القسم الثانى من معلقته ، وذهب بعض المؤرخيـــن أنه أنشد المعلقة كلها بعد مقتل عمرو بت هند

بينما قال آخرون إنه أنشأها كلها فى مجلسه ولكن الراجح أنـــه قـــد أنشأ القسم الأول منها فى مجلس ابن هند والقسم الـــثانى بعـــد مقتله لعمرو بن هند ، لأنه لا يعقل أن يكون عمـــرو بن كلثوم بهذه السذاجة حتى يسمع ابن هند ما قاله فى معلقته مفتخرا على ابن هند مزريا به فى مجلسه وهو ملك الحيرة وسيدها .

وقد عاش عمرو بن كلثوم وعمر طويلا حتى بلغ مائة وخمسين عاما ومات قبل الاسلام بنحو نصف قرن وكانت وفاته فى أواخر القرن السادس الميلادى سنة ٥٧٠ م .

* * *

شعره :

لـم يصـل إلينا من شعره إلا القليل ويبدو أن معظم شعره قد ضاع كبقية شعر شعراء العصر الجاهلى .

ويعتبر عمرو بن كلثوم واحداً من كبار شعراء الجاهلية المشهورين وهو فارس مقدام وشاعر جرئ القلب، وتعتبر معلقته أشهر شعره وأكثره شيوعاً وذيوعاً حتى تحولت إلى صورة قبلية رائعة حيث راح أبناء قبيلته يتغنون بها وكأنها نشيد قومى لقبيلتهم وراح يتغنى بها الصبيان والكهول والرجال والنساء حتى أخذ بعضهم على قبيلة تغلب شغفها بهذه المعلقة فقال :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة

قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يفاخرون بها مذ كان أولهـــم

يا للرجـــال لشعر غير مسئوم

انتشـــرت هـــذه المعـــلقة بين أبناء القبيلة وتوارثتها الأجيـــال المختـــلفة وقـــامت لشاعرها مقام الشعر الوفير لروعتها وحسنها وانسجام عباراتها وغلو فخرها .

ويعـــد عمرو بن كلثوم شاعر البديهة مع انه مقل فى شعره لم يتقلب فى فنون الشعر المختلفة وكل ما جاءنا من شعره معلقته وبعض مقطوعات لا تخرج عن موضوعها .

* * *

شرح الأبيات :

(١ - ٥) :

يبدأ الشاعر معلقته بوصف الخمر على غير عادة الشعراء الجاهليين الذين كانوا يفتتحون قصائدهم بذكر الأطلال والوقوف على الديار ، فيقول مخاطباً الساقية :

ألا انتبهى من نومك وأسقينا الصبوح (أى شرب الخمر فى الصباح) بقدحك العظيم ولا تبقى خمور الأندرين لغيرنا من الشاربين ، وخص الشاعر قرية الأندرين لأنها اشتهرت بجودة الخمر ونسبت الخمر إليها رفعة لشأنها دون غيرها من أنواع الخمور .

واسقنيها ممزوجة بالماء كأنها من شدة حمرتها بعد امتزاجها بالماء تشبه نور الحص وإذا شربناها ممزوجة

بالمـــاء جدنا بأموالنا ولم ندخر مالاً من أجلها ، أو أنها إذا مزجت بالماء الساخن أشبهت نور الحص .

ثـــم يصـــف الخمر فيقول : إنها تعدل وتميل صاحب الحاجة عن حاجته وإذا شربها لان ونسى أحزانه وهمومه لأنه يسكر حتى الثمالة .

وإذا أديــرت الخمر هذه فى مجلس على الندماء ترى الــبخيل الحريص ينفق ماله مسرفاً دون حساب ولا تمسك مـــن أجـــل شـــربها ولا يبخل بماله عليها مع أنه حريص بخيل، وإهانة المال : كناية عن إنفاقه .

ثـــم يقـــول : إنـــنا سوف نموت وتوافينا الآجال التى قدرها الله وقدرنا لها ، أى : هبى علينا بالخمر حتى نتلذذ ونتمتع فى حياتنا بالشراب قبل أن توافينا الآجال المقدرة ، فإننا ميتون حتما .

(٦- ١٨) :

ثـم ينتقل الشاعر من وصف الخمر إلى الحديث مع الظعيـنة (محبوبـته الراحلة) ويتغزل فيها فيقول : قفى مطيـتك أيتها الحبيبة الراحلة قبل أن تغادرينا حتى نخبرك بما فى أنفسنا وتخبيرينا بما فى نفسك من الحقيقة .

قـفى بهـذا اليـوم الكريه الذى تحاربنا فيه وأقر بنو أعمـامك عيونهم فى هذا اليوم لظفرهم قفى واصديقنا عن مودتـك وبمـا فى نفسك أغيرك هذا اليوم أم مازلت على مودتك وحبك ؟

أو قـفى مطيـتك حـتى نسألك : هل أحدثت القطيعة لسـرعه الفـراق أم خنت حبيبك الذى تؤمن خيانته والذى حفـظ سرك ؟

فـإن الأيـام مرتهـنة بما لا نعرفه من الأقدار وإنها توافيـنا في كل يوم منها بما لا نعرفه ، أو إن الأيام رهن بما لا تعلمين من الحوادث وبما لا يحيط علمك به .

ثـم ينطلق متغزلا في محبوبته فيقول : إن هذه المرأة تـريك إذا دخلت عليها وأتيتها خالية وأمنت عيون أعدائها وعلى خلوة من الرقباء ... تريك ذراعين طويلين ممتلئين باللحم كأنهما ذراعا ناقة طويلة العنق لم تلد بعد .أورعت أيـام الـربيع في مـثل هذا المكان . وتريك ثديا مثل حق العاج في البياض والاستدارة واللين ممتنع على لمس أهل الريبة محرزة من أكف اللامسين ، وتريك متنى قامة طويلة ليـنة وأردافـا ثقيلة ، وتريك وركاً عظيماً ضخماً ممتلئاً بالـلحم وخاصـرة جميلة حسناء قد جننت جنوناً بحسنها ، وتـريك سـاقين ضخمتين شديدتي البياض يصوت حليهما تصنويتا أثناء المشي .

ثـم راح الشـاعر يعلن حزنه الشديد على فراق هذه المحبوبة فيقول :

إنـنى حـزين عـلى فراق محبوبتي وإننى أشد حزنا لفـراقها مـن حزن الناقة التى افتقدت ولدها وأكثرت من البحث عنه وراحت تردد حنينها حزنا على فقد وليدها التى فشـلت فى الحصـول عليه ، وإننى أشد حزنا على فراق حبيبـتى من حزن عجوز أشتد حزنها على فقد أبنائها التى تعـبت فى تربيـتهم ورعايـتهم . وقـد تبينت لى اليمامة (الموضـع الـذى قصـدته حبيبـته) كبيان السيوف التى أشـهرها شـاهروها أى : أن الشـاعر اشتاق لما ظهر له فـراق محبوبـته وتبين - له الموضع الذى تقصده فهو أشد لولهه .

(١٩ – ٣١)

ثم يدخل الشاعر إلى موضوع القصيدة وغرضه الأصلى

فيهـــا وهـــو (الفخر) وراح يفخر على عمرو بن هند ويبين فضـــائله وفضـــائل قومه فيقول مخاطباً ابن هند : يا أبا هند (يريد عمرو بن هند حيث كناه بقوله أبا هند) – لاتعجل علينا بالوعيد والتهديد ولكن أخرنا وأمهلنا نخبرك باليقين من أمرنا وشرفنا وحقيقتنا القتالية التى لا مراء فيها ، (فالشاعر يتوعد ويهـــدد عمـــرو بن هند) وإننا نخبرك باليقين من أمرنا حيث نـــورد أعلامـــنا الحـــروب وهى بيضاء ونرجعها منها وهى حمراء قد ارتوت من دماء الأعداء ، وهذا البيت تفسير معنى: اليقين المذكورة فى البيت السابق .

ونخـــبرك بأيام حرب لنا مشهورة عصينا الملك فيها أن نخضع له ونذل أو نطيع له أمراً خوفاً منه .

ورب سيد قوم متوج بتاج الملك قام على حمى اللاجئين إلى طـــلب حمايته قد قهرناه وقتلناه واسترحنا منه ونزلنا عن

خيولنا لأخذ سلبه وسلب أتباعه فبقيت خيلنا واقفة عليه قائمة .

وقد كرهتنا الكلاب وأنكرتنا وهرت لإنكارها إيانا ، وقد أذهبنا وكسرنا شوكة من يلينا ويقترب منا من الأعداء أو يلى حربنا ويعادينا ويتمرد علينا (وقد استعار الشاعر تشذيب القتاد لكسر الشوكة) . وقد أنكرتهم الكلاب لما رأت عليهم السلاح وكرهتهم .

وإننا متى حاربنا قوماً فتكنا بهم وطحناهم طحناً كالدقيق الذى تطحنه الرحى .

وإن كيدنا وحربنا تشبه الرحى ، وإن هذه الرحا تدور بالحرب فى شرقى نجد وتلتهم قضاعة وتكون قبضتنا قضاعة أجمعين . (استعار للمعركة اسم الثفال وللقتل اسم اللهوة) .

ثم يسخر الشاعر من أعدائه فيقول : لقد نزلتم علينا أيها الأعداء فى إغارتكم كالأضياف فجعلنا قراكم وإكرامكم فى حرب طاحنة خشية أن تشتمونا .

وقد قريناكم فعجلنا قراكم وجعلنا ضيافتكم قتالاً طحنكم كطحن المرداة للحجارة .

ونحن اناس نحسن استخدام السلاح فنطاعن الأعداء بالرماح اذا ما تراخوا عنا وبعدوا منا فإذا ما اقتربوا منا ولاصقونا ضربناهم بالسيوف ، وإن سيوفنا تعتلى رؤوس الأعداء فتشق هاماتها ونضرب بها الرقاب فنقطعها كما يقطع المحش الخلا أى نجعل الرقاب لها كالخلا فتختليها ، (فالشاعر يشبه رقاب الأعداء بالحشيش) ويشبه قطع الرقاب بتقطيع الحشيش .

إن الحقد الذى يخفى تفشو آثاره وإن حاول صاحبه أن يكتمه ويخرج الداء المدفون من الأفئدة ويبعث على الانتقام .

(٣٢- ٣٧) :

ثم يقول : إن قبائل (معد) كلها تعلم أننا ورثنا المجد عن آبائنا وإننا نقاتل من دون هذا المجد حتى لا يزايلنا ويخفى

علينا وينقطع ذكره بل يظل شرفه يظهر لنا ، وإننا نحمى المستجبرين فإذا حل غيرنا فى جوارنا بعد تركهم لمنازلهم فإننا نحميهم لأننا نمنع الجيران ولا يطمع أحد فيهم لأننا نحميهم .

وإننا نجذ رووس الأعداء ونقطعها فى غير بر ولا شفقة عليهم ونذهلهم بقوتنا وقتالنا فلا يدرون أى شئ يتقون من سلاحنا لأن سيوفنا تأخذهم من كل ناحية وكل جانب .

ثم يقول : لقد انتصرنا على أعداء شجعان ماهرين فى القتال واستخدام السيوف مثلنا ، فكانت سيوفنا وسيوفهم كمخاريق بأيدى اللاعبين (لم يصف أعداءه بالجبن وقلة الدفاع حتى يؤكد على شجاعة قومه بأنهم هزموا قوماً شجعانا بواسل) .

ومن كثرة الدماء التى سالت فى ساحة المعركة تخضبت

ثيابنا وثيابهم بالدماء حتى كأنها قد صبغت بالصبغ الأحمر ، والشاعر يريد أن ثيابهم وثياب أعدائهم قد خضبت من دماء الأعداء ؛ فتخضب ثياب الأعداء من دمائهم أما ثياب قوم الشاعر الضاربين فإنها تخضبت بالدم إذا ضربوا أعداءهم .

ثم يقول : ألا لا يسفهن أحد علينا فنسفه عليهم فوق سفههم ونجازيهم جزاء رادعا حتى لا يعودوا لمثل ذلك .

(٣٨- ٤٩) :

ثم يرسل تهديده ووعيده إلى عمرو بن المنذر (عمرو ابن هند) فيقول : أي شئ دعاك يا عمرو بن هند بأن تجعلنا خدما لمن وليتموه أمرنا من الملوك الذين وليتموهم أى أنهم لم يظهر منهم ضعف حتى يطمع الملك فى إذلالهم باستخدامهم خدما .

وأى شــى دعاك بأن تطيع الوشاة بنا وتحتقرنا ؟ أى لم يظهــر مــنا ضــعف يطمــع الملك فينا ويسمع إلى الوشاية ويحتقرنـــا .

فــإن قناتنا (أى عزنا وأصلنا) أعجز الأعداء وأبى أن يلين لأعدائنا قبلك . أى أن عزهم منيع لا يلين لأحد ولا يرام.

لقد ورثنا المجد والشرف عن علقمة بن سيف وهو الذى أبــاح ووسع لنا حصون المجد وجعلها مباحة لنا قهرا وعنوة وسنها لنا حتى أصبحت لنا كالديانة .

ولقد ورث مجد مهلهل (جده من قبل أمه) ومجد زهير (جــده مــن قــبل أبيــه) وهو خير من يصبح أهلا للفخر والمباهاة.

ومن قبل هؤلاء كليب بن ربيعة الذى ورثت عنه المجد ،

وأى مجد إلا وقد قربنا منه فحويناه .

إننا الحابسون لأموالنا فى هذا الموضع (بذى أراطى) فى السنة الشديدة القحطة حتى سفت النوق قديم النبت وأسوده لإعانة قومنا ومساعدتهم على قتال الأعداء أو صبرنا حتى قدرنا على قتال أعدائنا ولعزنا ومنعتنا لزمنا هذا الموضع ولم نتركه فنكون أتباعا لغيرنا.

وإذا أطاعنا الناس أقمنا فيهم الحكم بالعدل وإن عصونا عزمنا على تقويمهم فرددناهم عن غيهم أى نحكم بالعدل مع الطائعين لنا ونقوم العاصين . وإننا نترك كل شئ نكرهه وإذا رضينا شيئا قبلناه .

- ثم يصف الشاعر حرباً كانوا فيها فيقول : كنا حماة الميمنة (المتقدمون فى صفوف الجيش) إذا لقينا الأعداء وكان إخواننا حماة الميسرة ، (أى بنو تغلب على الميمنة

وبكر بن وائل على الميسرة) .

فشد بنو بكر على من يليهم من الأعداء وشددنا نحن على مـــن يلينا منهم ، ورجع بنو بكر بالغنائم والسبايا ورجعنا نحن آسرين الملوك مقيدين لهم بالسلاسل والأغلال .

(٥٠ – ٥٨) :

ثم يفتخر الشاعر فخراً مطلقاً يسوقه إلى بنى بكر فيقول : انـــتهوا وكفـــوا وتنحوا عن مباهاتنا ومساواتنا يا بنى بكر ألم تعلموا من بأسنا ونجدتنا اليقين والحق ؟ أى قد عرفتم ذلك فلا تتعرضوا لنا .

أما أن لكم أن تعرفوا الحرب الطويلة التى قامت بيننا وبينكم وراحـــت جنود الطرفين يطعن بعضهم بعضا ؟ أى قد آن لكم أن تعلموا أن لا قبل لكم على معادتنا .

يقول : وكان علينا الحديد والدروع اليمانية والسيوف اللاتي يقمن وينحنين لطول الضرب بها ، وعلينا الدروع التامة التي تزل عنها السيوف فهي براقة مصقولة وأن هذه الدروع لمنعتها وفضولها ينثني بعضها فوق بعض (فتلك كسورها وغضونها) .

وإذا خلع الأبطال هذه الدروع يوما رأيت جلودهم سوداء للبسهم إياها ، أي تسود ثيابهم من صدأ الدروع ،

كأن غضون هذه الدروع متون غدران ضربتها الرياح في جريها . وإننا نركب في الحرب خيولا كريمة قصار الشعر عرفت لنا وتربت عندنا وخيولاً أخذناها من أيدى الأعداء بعد استيلائنا عليها .

وقد ورثنا هذه الخيل عن آبائنا وهم آباء كرام شأنهم الصدق في القول والفعل ونورثها أبناءنا بعد موتنا .

إنــك تــرانا نخــرج ظاهــرين إلى الأرض الصحراء المسطحة لثقتنا بنجدتنا وقوتنا وكل قبيلة تستجير بغيرها خشية بأسنا وسطوتنا .

(٥٩- ٦٤) :

وقــد علمت قبائل معد إذا بنيت قبابها بمكان أبطح . قد عــلمت هــذه القــبائل بأنــنا إذا قدرنا على قوم عفونا عنهم وأطلقــناهم وإذا جاءوا يريدون حربنا دمرناهم وأهلكناهم وإذا أردنا الشرب نرد أول القبائل ولا يشرب الناس من المورد إلا بعد أن نفرغ من الشرب فيكون قد تكدر بالطين فيشربون منه أي نأخذ من كل شئ أفضله ونترك لغيرنا أرذله .

وإذا ســام المــلك الناس بالظلم والذل رفضنا نحن ذلك وامتنعنا عليه ان نرضى بظلمه ونقبله وأبينا الانقياد له .

ولقد عممنا الدنيا براً وبحراً فضاق البر عن بياننا وضاق البحر عن سفننا (و كانت تغلب تسكن شواطئ الفرات إلى ساحل الخليج العربى ولذلك كان يأتى فى شعرهم ذكر السفن وآلاتها) .

وإذا بلغ أطفالنا وقت الفطام سجدت لهم الجبابرة خشية وذلا وانكسارا .

* * *

القصيدة فى الميزان :

١- نهـــج الشاعر فى معلقته نهجا جديداً يختلف عن نهج القصيدة الجاهلية فلم يبدأها بالحديث عن الأطلال وآثار الديار بـــل تجـــنب ذلـــك ولم يجر على عادة شعراء الجاهلية بذكر الأطـــلال أو الغزل والنسيب أو غير ذلك مما هو معروف فى نهجـــج القصيدة العربية القديمة ولكنه استهل القصيدة بالخمر والـــتهالك عليها وجعل منها مقدمة لقصيدته ويكون بذلك أول ثائـــر عـــلى نظام القصيدة العربية القديمة بالفعل لا بالقول أو أول من خرج على النظام المألوف للقصيدة الجاهلية مما جعل البعض يشكك فى هذه المقدمة ويرى أن المقدمة قد ضاعت مع ما ضاع من شعر الشاعر ، ولكننا لا نقبل ذلك ولا نستبعد أن تكون الخمر مقدمة للقصيدة التى أنشأها شاعر مثل عمرو بن كلثوم الملك والقائد والذى عاش فى قصره لا تغيب عنه الخمر لحظة واحدة والتى كان يتعاطاها ليل نهار فضلا عن انه عاش حراً أبيا فى حياته لا تحده حدود فلم لا ينطلق فى قصيدته كما انطلق فى حياته ؟

وبعـــد أن بدأ الشاعر معلقته بالخمر انتقل إلى الغزل ثم انـــتقل مـــنه إلى موضوع القصيدة وهو الفخر بنفسه وبقومه وذكـــر وقـــائع قبيلته متأثرا بالطابع الحماسي والانفعالي الذي سيطر عليه بسبب الواقعة التي دفعته إلى نظم المعلقة .

٢- تتســـم الأبيات بالسهولة والقوة والوضوح والبعد عن الألفاظ الوحشية الخشنة والتراكيب الملتوية والمعاني الغامضة.

٣- تصـــور هذه المعلقة حالة العرب وعاداتهم وتقاليدهم في الديـــن والاجتماع والسياسة والألعاب والصناعات ، حيث تدلـــنا عـــلى أن المـــرأة كانت ترافق الرجال في القتال وأن الصـــبيان كانوا يلعبون بسيوف من الخشب وغير ذلك مما هو في ثنايا القصيدة .

٤- تصور الأبيات حياة الشاعر ونفسيته وما تمتع به من خـــلال وصـــفات فهي تدل على أن شاعرها سيد قومه ويعتز بســـيادته وسيادة قبيلته يرفض الذلة ويأبى الخنوع لإنسان ولو كان ملكا وتدل على أن ناظمها شاعر فارس ومقدام فاتك .

٥- جـــاءت القصـــيدة مشتملة على بعض الصور التى انتزعها الشاعر من بيئته واعتمد على بعض ألوان البلاغة فى تصوير صوره وإبراز معانيه .

فـــنراه فى البيت الثانى يشبه الخمر حال امتزاجها بالماء بـــنور نبات الحص ، وفى البيت الرابع كناية عن الإنفاق فى قولـــــه : لماله مهينا ، فإهانة المال كناية عن إنفاقه. وإكرامه كناية عن امساكه .

ثـــم يشبه ذراعى محبوبته الممتلئتين باللحم بذراعى ناقة طويـــلة العنق لم تلد بعد أو رعت أيام الربيع وذلك فى البيت الحادى عشر .

ثـــم يشـــبه ثديها بحق العاج فى البياض والاستدارة فى الـــبيت الثانى عشر ، وفى قوله : حصاناً من أكف اللامسينا : كـــناية عن العفة ، والبيت الثالث عشر : كناية عن طول قامة محبوبته وثقل أردافها .

ثم يشبه ساقيها باسطوانتين من عاج أو رخام فى البياض والضخامة فى البيت الخامس عشر .

ثم يشبه حزنه لفراق حبيبته بحزن الناقة التى فقدت ولدها فى البيت السادس عشر .

ثم يشبه ظهور قراها بظهور أسياف مسلولة من أغمادها، فى البيت الثامن عشر وكلها تشبيهات مأخوذة من بيئة الشاعر .

وفى البيت الخامس والعشرين يستعير الرحى للحرب ويستعير اسم الطحين للقتلى . ثم يستعير للمعركة اسم : الثفال . وللقتل اسم اللهوة ليشاكل الرحى والطحين فى البيت السادس والعشرين ، ثم يشبه نزول الأعداء بنزول الأضياف تهكما واستهزاء فى البيت السابع والعشرين .

وفى البيت الثامن والعشرين : يستعير : المرداة للحرب .

وفى البيت الخامس والثلاثين : يشبه سيوفهم فى خفتها

بالمخاريق بأيدى اللاعبين وهو تشبيه مأخوذ من بيئته .

ثم يشبه الدم العالق بثياب الأعداء بلون الأرجوان فى البيت السادس والثلاثين .

وفى البيت الخامس والخمسين يشبه غضون الدروع بمتون العذران إذ ضربتها الرياح فى جريها .

ولا تخفى المبالغة فى البيت الرابع والستين .

٦- هذا وقد جاءت قصيدة الشاعر على وزن بحر الوافر وتفعيلاته : مفاعلتن مفاعلتن فعولن مرتين وهو بحر موسيقى تظهر موسيقاه بوضوح تام وبنغم متلائم خفيف على السمع والآذان وجاء منسجما مع موسيقى الألفاظ بما جعل القصيدة تتحقق فيها الموسيقى الداخلية والخارجية .

* * *

معلقة الأعشى

ودع هريرة إن الركب مرتحل

يقول الأعشى:

ودع هريرة إن الركب مرتحـــل

وهل تطيق وداعاً أيهـــا الرجل ؟ (١)

غراء فرعاء مصقول عوارضها

تمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوحل(٢)

---

(١) هريرة : اسم صاحبته ويقال : إنها كانت من الجوارى المغنيات والتى كـــان الأعشى على صلة ، وهريرة : أم خليد وكانت جارية لبشر بن عمر ابن مرثد .

والركب : جماعة الراكبين وهو جمع لراكب ، مثل رهط اسم جنس .

(٢) الغـــراء : البيضـــاء الواســـعة الجـــبين . والفرعاء : الطويلة الشعر ، والفرع: الشعر . العوارض : الأسنان ، ومصقول عوارضها : أى أنها نقية الأســـنان . الهوينى : المشى البطيئ . الوجى : الذى حفى قدمه أو حافره ، الوجى : الحافى أو الذى يشتكي حافره . الوحل : الذى يمشى فى الوحل ، أو الذى علق فيه ، أى أن صاحبته لا تسرع فى مشيتها حيث تمشى متدللة متمهلة متمايلة وخطواتها بطيئة متقاربة لامتلاء جسمها . حيث كان العرب يرون ذلك من مظاهر الأنوثة والرقة فى المرأة .

كأن مشيتها من بيت جارتهـــنـــا

مر السحابة لا ريث ولا عجـــــل (٣)

تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت

كما استعان بريح عشرق زجـــل (٤)

ليست كمن يكره الجيران طلعتها

ولا تراها لسر الجـــــار تختتـــل (٥)

---

(٣) الـريث : الـبطء . والعجـــل : الإسراع ، أى مشيتها وسط بين البطء والإسراع .

(٤) الحـلى : حـليها الـذى تلبسه من ذهب وجواهر . الوسواس : صوت خشخشة الحلى .

العشــرق : شـجيرة صغيرة لا يزيد ارتفاعها على ذراع وله ثمر إذا جف وحركته الرياح يحدث صوتا له خشخشة .

والزجل : الذى يرفع صوته بالغناء وهو رفع الصوت بالطرب.

(٥) ليســت كمــن يكــره الجيــران طلعتها : أى أنها محبوبة من جيرانها ويسرون حين رؤيتها . تختتل : تسترق السمع وتتنصت تنصتا مريبا .

يكاد يصرعها لولا تشددهـــا

إذا تقوم إلى جاراتها الكســل [٦]

اذا تقوم يضوع المسك أصورة

والزنبق الورد من أردانها شمل [٧]

ما روضة من رياض الحزن معشبة

خضراء جاء عليها مسبل هطل [٨]

---

(٦) لولا تشددها : لولا تماسكها . حيث يصفها بالسمن والترف. حيث كانوا يمدحــون المــترفات بالكســل وقلة العمل لأنهن مخدومات .والعرب كانوا يحبون المرأة البيضاء والبدينة لأن أكثر نساءهن سوداوات وعجفاوات .

(٧) يضـــوع المســـك : أى تنتشـــر رائحته ويفوح عطره . أصورة : جمع صـــوار وهو وعاء المسك الذى يحرق فيه ، وهى كلمة فارسية .والزنبق : زيـــت الياســـمين وأجوده ما يميل إلى اللون الأحمر ولذلك وصفه بالورد . والأصـــورة : مفـــردها : الصوار وهى الرائحة الطيبة كذلك . والأردان : أطراف الأكمام والمفرد : الردن وهو طرف الكم . وشمل :شامل ومنتشر .

(٨) الحـــزن : الأرض المـــرتفعة والأرض الغـــليظة ورياضها أحسن من ريـــاض الأرض المنخفضة والحزن المراد هنا : موضع ببلاد بنى يربوع عـــن اليمامـــة . معشبة : كثيرة العشب . المسبل الهطل : السحاب الماطر الذى تهطل مياهه بغزارة

يضاحك الشمس منها كوكب شرق

مؤزر بعميم النبت مكتهل (٩)

يوما بأطيب منها نشر رائحة

ولا بأحسن منها إذا دنا الأصل (١٠)

صدت هريرة عنا ما تكلمنا

جهلا بأم خليد حبل من تصل ؟ (١١)

---

(٩) الكوكب هنا : الزهر . والشرق : الممتلئ ماء ونضارة ، والكوكب الشرق: النبات الطويل الندي . مؤزر : ملتف . العميم : التام النضج . المكتهل : الذى اكتمل طوله إلى نهايته وظهرت أزهاره .
وقوله يضاحك الشمس : أى يدور معها حيثما دارت . .

(١٠) النشر : الرائحة الطيبة . الأصل : جمع الأصيل وهو وقت المساء من العصر إلى العشاء ، وفى الأبيات الثلاثة يصور الشاعر منظر الروضة التى اكتمل حسنها وجمالها وطيب رائحتها ويشبه بها طيب رائحة هريرة .

(١١) صدت : أعرضت عنا. أم خليد: كنية هريرة . وقوله : جهلا بأم خليد: تعجب من جهلها لشأنه . يريد أن إعراضها عنه كان جهلا منها .
وحبل من تصل ؟ : أى حبل من تصله إذا لم تصلنا ؟ وأى رجل تحبه اذا لم تحبنا ؟ والاستفهام للتعجب .

أئن رأت رجلا أعشى أضربه

ريب المنون ودهر مفند خبل؟ (١٢)

قالت هريرة لما جئت زائرها

ويلى عليك وويلى منك يا رجل(١٣)

إما ترينا حفاة لا نعـــال لنا

إنا كذلك ما نحفى و ننتعل (١٤)

---

(١٢) الأعشى : الذى لا يبصر ليلا أو الأعمى .
ريب المنون : خشية الموت . والمفند : المفسد . والخبل الفاسد .
والمفند : الآتى بالفند وهو السفه فى الرأى ومثله : الخبال .
وقولـــه : أئـــن رأت رجلا : تقديره أمن أن رأت " أى أمن أجل أنها رأت رجلا .

(١٣) الشطر الثانى : تعبيرات نسائية خالصة أجادها الشاعر حيث كان يجيد حكاية لغة النساء ، وقيل : إن هذا البيت أخنث بيت قالته العرب . .

(١٤) حفاة : جمع حاف وهو من لا نعل له .
وقولـــه : ما نحفى : ما : زائدة للتوكيد . حيث راح الشاعر يعاتب صاحبته ويدفع الصفات التى صدت عنه من أجلها.

وقد أخالس رب البيت غفلته

وقد يحاذر منى ثم مايئـــــل (١٥)

وقد أقود الصبا يوما فيتبعنى

وقد يصاحبنى ذو الشرة الغــزل (١٦)

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى

شاو مشل شلول شلشل شول (١٧)

---

(١٥) رب البيت: صاحبه . غفلته : عدم انتباهه . ما يئل : ما ينجو . والماضى منه: وأل ومنيا : الموئل . والبيت يصور استهتار الشاعر وفسقه ومجونه .

(١٦) أقود الصبا : أتصابى وأفعل فعل الفتيان . الشرة : الحدة والنشاط وهى حـــدة ونشـــاط الشباب . وذو الشرة : الطائش . الغزل : من يهوى النساء ويعشقهن ويتعلق قلبه بهن ويفكر فيهن دائما.

(١٧) الحانوت : الحانة وبيت الخمار . الشاوى : الذى يشوى اللحم . المشـــل : اذى يســـوق الذبيحـــة . الشـــلول : الذى يراقب الذبيحة ويمشى وراءها. الشلشل : الذى يراقب مايلزمنا من أمور .
والشول : الذى يوزع ويحمل ويضع . وقد ذكر الشاعر هذه الألفاظ مبالغة ولكنها أخذت عليه عيبا وراها البعض براعة من الشاعر .
وهـــذه الألفاظ مشتركة فى حروفها ومعانيها وتدل على الحركة والنشاط . ولكن نحس فيها ثقلا وتنافرا بين الكلمات .

فى فتية كسيوف الهند قد علموا

أن هالك كل من يحفى وينتعل (١٨)

نازعتهم قضب الريحان متكئا

وقهوة مزة راووقها خضــل (١٩)

لا يستفيقون منها وهى راهنة

إلا بهات،وإن علوا وإن نهلوا (٢٠)

---

(١٨) أن : مخففــة مــن الثقيــلة واسمها : ضمير الشأن المحذوف وخبرها جملة: هالك كل من يحفى : وهالك : خبر مقدم وكل من يحفى مبتدأ مؤخر.

(١٩) نازعتهم : تبادلت معهم . قضب الريحان : عيدانه . والريحان : الزهر الطيــب الــرائحة . القهوة : الخمرة . المزة : التى فيها مزازة . الراووق: إبريق الخمر أو المصفاة والوعاء الذى تروق فيه الخمر . الخضل : الندي أو دائم الندى لا يجف لكثرة شربهم .

(٢٠) لا يســتفيقون : أى من سكرهم . الراهنة : التى أعدت لهم . أو دائمة أمامهم . لا بهات : أى لا يستفيقون إلا عندما يقولون للساقى هات الخمر. وإن عــلوا إن نهلوا : أى وإن شربوا مرة بعد مرة . والنهل : أول الشرب والعلل : معاودة الشراب وتكراره .

يسعى بها ذو زجاجات له نطف

مقلص أسفل السربال معتمل (٢١)

ومستجيب تخال الصنج يسمعه

إذا ترجع فيه القينة الفضل (٢٢)

---

(٢١) النطف : القرطة من اللؤلؤ . مفردها : النطفة : وهى القرط الذى يعلق بالأذن أو اللؤلؤة . مقلص : مشمر . السربال : القميص . وتقليص السربال: كناية عن الحركة والنشاط . معتمل : دائم الحركة نشيط . والبيت فى وصف ساقى الخمر .

(٢٢) المستجيب : العود . أى ورب عود طرب مستجيب لصوت الصنج كأن الصنج دعاه فاستجاب له . والصنج : الصاجات والكاسات كما يعرفها العامة فى زماننا . ترجع : تردد النغم وتكرره .القينة : الأمة المغنية . الفضل : التى تلبس ثوبا واحدا شفيفا يفضح جسدها كأنها عارية .

والساحبات ذيول الريط آونـــة

والرافلات على أعجازها العجــل (٢٣)

من كل ذلك يوم قد لهوت به

وفى التجارب طول اللهو والغزل(٢٤)

---

(٢٣) الســـاحبات : الجـــارات لثيابهن خلفهن .والساحبات بالنصب على أنها معطوفة على نفظ الصنج فى البيت السابق أى وتخال الصنج يسمعه وتخال الســـاحبات أو عـــلى أنها مفعول لفعل محذوف تقديره : وترى الساحبات : وبالـــرفع : عـــلى معنى : وعندنا الساحبات فتكون مرفوعة على أنها مبتدأ والظرف فى محل رفع خبر المبتدأ .

الـــريط : المـــلاءات أو الثياب الرقيقة ، جمع : ريطة . الرافلات : اللائى يجـــررن ثيابهن الطويلة فى زهو وخيلاء ودلال . الاعجاز : الأرداف . العجـــل : مفـــردها العجلة وهى القربة الصغيرة حيث يشبه أردافهن الثقيلة الممتلئة عند سيرهن بالقرب التى يترجرج فيها الماء . آونة :جمع أوان .

(٢٤) أى أن هذه هى حياتى اللاهية وخلاصة تجربتى فيها : اللهو والغزل. وبهـــذا الـــبيت يخـــتم الشاعر القسم اللاهى من المعلقة ثم انتقل إلى وصف الرحلة فى الصحراء ووصف الناقة والبرق والسحاب والمطر ثم انتقل إلى وصـــف بـــلدة موحشة ثم انتقل إلى الموضوع الأصلى للمعلقة وهو الهجاء والوعيد الذى صبه على يزيد بنى شيبان .

أبلغ يزيد بنى شيبان مألكـــة

أبا ثبيت أما تنفـــك تأتكـــل ؟ (٢٥)

ألست منتهيا عن نحت أثلتنـــا

ولست ضائرها ما أطت الإبل (٢٦)

تغرى بنا رهط مسعود وإخوته

عند اللقاء فتردى ثم تعتـــزل (٢٧)

---

(٢٥) المألكـــة : الرسالة . أبو ثبيت : كنيته . تأتكل : تأكل نفسك من الغيظ من ائتكل الرجل إذا غضب وهاج وكانه يأكل بعضه بعضا .

(٢٦) الأثلة : شجرة الأثل والمراد بها هنا أصلنا ومجدنا المؤثل ضربه مثلا لعزة قومه وعراقة أصلهم وثبات مجدهم .

أطت الإبل : أنت تعبا أو حنينا ويريد : مدى الدهر ، ويريد بنحت الأثلة : التشهير به والإساءة إليهم والتهوين من شأنهم ، والمعنى : لست بضارنا طول الدهر .

(٢٧) تغرى بنا : تدفع إلى حربنا . مسعود : هو مسعود الشيبانى زعيم من زعماء بكـــر . تردى : تميت وتهلك من الردى وهو الهلاك . تعتزل : أى تعتزل القتال ولا تدخل الحرب.

لأعرفنك إن جـــد النفير بنـــا

وشبت الحرب بالطواف واحتملوا[٢٨]

كناطح صخرة يومـــاً ليفلقها

فلم يضرها وأوهى قرنه الوعــل [٢٩]

لأعرفنك إن جــدت عداوتنـــا

والتمس النصر منكم عوض تحتمل[٣٠]

---

(٢٨) جـد الـنفير : اشـتدت الحـرب . الطواف : الفرسان الذين يتدفقون كالطوفان . احتملوا : يحتملون شدائد الحرب . حيث يصفه بالجبن .

(٢٩) ليفلقها : ليكسرها .

لـم يضـرها: لم يؤثر فيها : أوهى : تكسر . الوعل : تيس الجبل . وفى رواية أخرى : ليوهنها.

(٣٠) جدت عداوتنا : تستحكم العداوة بيننا . التمس النصر منكم :نلتفت إليك لتساعدنا على النصر بوصفك من عشيرتنا . عوض : من أسماء الدهر . او هــو ظــرف لمستقبل الزمان ضد قط التى هى للماضى تقول : عوض لا أفــارقك أى لا أفــارقك أبــدا وتحتمل البناء للمجهول . ويصفه بالقصور والعجز عن نصرة أى فريق .

تلزم أرماح ذى الجدين سورتنا

عند اللقاء فترديهم وتعتزل [٣١]

لا تقعدن وقد آكلتهـــا حطبا

تعوذ من شرها يوما وتبتهـــل [٣٢]

سائل بنى أسد عنا فقد علمـــوا

أن سوف يأتيك من أنبائنا شكل [٣٣]

---

(٣١) ذو الجديـــن : قيس بن مسعود وهو من أشراف العرب ، أى الشريف مـــن جهة أبيه وجهة أمه . تلزم أرماحه : أى تورطه فى الحرب سورتنا : شـــدتنا وحدتـــنا فى القتال . ترديهم : تميتهم وتقدمهم للقتل . وتعتزل : أى وأنت تعتزل القتال جبنا وخوفا .

(٣٢) أكلتها حطبا : أشعلتها وأججتها ، لا تقعدن : أى لا تقعدن عن الخوض فيهـــا لنرى ماذا مستفعل وقد أججت النار فى حطبها تبتهل : تدعو الله أن يـــنجيك مـــن شـــرها . والـــبيت تأكيد لمعنى البيت السابق والبيت السابع والعشرين : اشعال الفتنة ثم التهرب منها.

(٣٣) سائل بنى أسد عنا : أى إذا كنت تجهل مقدار قوتنا فسائل بنى أسد عنا الأنباء : جمع نبأ وهو الخبر اليقين . الشكل : الأنباء المختلفة والمتعددة أى خبر ثم خبر ثم خبر .

واسأل قشيراً وعبد الله كلهـــم

واسأل ربيعة عنا كيف نفتعل (٣٤)

إنا نقاتلهم حتـــــى نقتلهـــم

عند اللقاء وهم جاروا وهم جهلوا (٣٥)

إنى لعمر الذى خطت مناسمها

تخدى وسيق إليها الباقر الغيل(٣٦)

---

(٣٤) واســـأل قشيرا : أى إذا كان بنو أسد لا يجيبونك فسل قبيلة قشير ابن كعب بن ربيعة ، كيف نفتعل : نأتى بالأمر العظيم المبتدع .

(٣٥) حـــتى نقتـــلهم : أى نمعن فى قتلهم . وهم جاروا : أى يحتدمون فى الحرب . وهم جهلوا : أى يجهلون أين تغلى عصبيتهم سفها واحتداما.

(٣٦) العمر : قسم . خطت : هيجت التراب بمناسمها وهى أطراف أخفافها أو خطـــت : ســـفت الـــتراب بمناســـمها . والمنســـم : طرف الخف من البعير .تخدى : تسير سيرا شديدا مضطربا لشدته . الباقر : البقر .

الغيل : جمع غيل وهو الكثير . وخطت : رسمت بأخفافها.

لئن قتلتم عميدا لم يكن صددا

لنقتلن مثله منكـــــم فنمتثل [٣٧]

لا تنتهون ولن ينهى ذوى شطط

كالطعن يهلك فيه الزيت والفتـــل[٣٨]

حتى يظل عميد القوم مرتفقا

يدفع بالراح عنه نسوة عجل [٣٩]

---

(٣٧) العميـــد : الســـيد الذى يعتمد عليه . لم يكن صددا : لم يكن مماثلا أو نظيرا لمن قتلناه منكم . وصدد الشيئ : المقابل له أو القريب منه .
فنمتـــثل أى نقـــتل الأمثل فالأمثل ونتخير الأمثل فالأمثل .حيث يتوعدهم بالثأر والانتقام والبيت جواب القسم فى البيت السابق.

(٣٨) يـــنهى : يهـــلك فيه أى يذهب فيه لاتساعه . ذوو شطط : ذو الجور والبغى . والبغى : كالطعن : أى مثل الطعن وهو فاعل للفعل ينهى .
الفـــتل : جمع فتيل ، حيث يتوعدهم بطعنات تصيبهم بجراح غائرة يذهب فيها الزيت والفتائل التى تتخذ لعلاجها .وروى البيت : فهل تنتهون ؟

(٣٩) مرتفقا: متكئا على مرفقيه لسقوطه على أرض المعركة . وعميد القوم: سيدهم . والراح : جمع راحة وهى بطن الكف . وعجل: جمع عجول وهى الثكلى الحزينة.

أصابه هندوانـــــى فأقصـــده

أو ذابل من رماح الخـــط معتدل (٤٠)

كلا زعمتم بأنا لا نقاتلكـــــم

إنا لأمثالكم يا قومنــــا قتـــــل (٤١)

نحن الفوارس يوم الحنو ضاحية

جنبى فطيمة لا ميل ولا عزل (٤٢)

---

(٤٠) الهـــندوانى : السيف المنسوب إلى الهند . أقصده : أصابه . الذابل من الـــرماح : الصـــلب المصقول . الخط : مدينة على ساحل الخليج بالبحرين كانت لها شهرة بصناعة الرماح .

(٤١) كـــلا : اداة ردع وزجر . يا قومنا : يا بنى أمنا . وقتل : جمع قتول وهى صيغة مبالغة أى قتال .

(٤٢) يوم الحنو : يوم من أيام قبيلته التى انتصرت فيها ، والحنو : المعوج مـــن جبل ورمل ومن كل شئ وهو من أيامهم ، ويسمى حنو قراقر وحنو ذى قار " وفطيمة : اسم مكان بالبحرين انتصر فيه قومه على بنى شيبان . وضاحية : علانية يقال : فعل الشئ ضاحية أى علانية . الميل : جمع أميل وهـــو الذى لا يثبت فى القتال . والعزل : جمع أعزل وهو الذى لا يحمل سلاحا فيضطر اعتزال الحرب .

قالوا الطراد ، فقلنا تلك عادتنا

أو تنزلون فإنا معشر نـــــزل (٤٣)

قد نخضب العير فى مكنون فائله

وقد يشيط على أرماحنا البطل (٤٤)

* * *

---

(٤٣) الطراد : المطاردة . وفى رواية . الطعان : أى المطاعنة بالرماح أو تنزلون : أى تنزلون عن ظهور الخيل للمجالدة بالسيوف بدلا من المطاعنة بالرماح . وفى رواية قالوا الركوب فقلنا تلك عادتنا . النزل : المجربون فى الحروب .

(٤٤) العير : الحمار الوحشى الذى يصاد بالرماح . والفائل عرق يجرى من [illegible] .

ومكـــنون فائله : الدم الذى ينفجر منه يشيط : يهلك أو يرتفع صريعا على أسنة الرماح . والفائلة : لحمة فى جانب الفخذ .

المعلقة وموضوعها :

هــذه القصــيدة الــتى معــنا جعلها بعض الرواة من المعــلقات التى ضموها إلى المعلقات السبع التى اختارها حماد الراوية من روائع الشعر الجاهلى .

وتبــلغ القصــيدة خمســة وســبعين بيتا وجرى فيها صاحبها على نسق المعلقات والقصائد الجاهلية المشهورة.

وقد بدأها الشاعر بمقدمة غزلية فى صاحبة له أسمها: " هريــرة " وكــانت من القيان المغنيات حيث تغزل فيها الأعشــى غــزلا حسيا صريحا مركزا وصفه على جمالها الجســدى فى صــراحة مكشــوفة مظهرا مجونه وخلاعته وفــتكه ومخالسته للأزواج من أجل الوصول إلى زوجاتهن دون خجل أو حياء كما فعل امرؤ القيس من قبله .

وافتتح الأعشى قصيدته بذكر الحديث عن المرأة الحبيبة التى عشقها قلبه وحن إليها وابتعدت عنه ورحلت إلى رجل سواه تزوجته فهى حبيبة لم ترتحل عنه إلى مكان آخر ولم تبتعد عنه إلى مكان بعيد بل حبيبة قريبة منه فى نفس موطنه ولكنها تزوجت برجل آخر .

لذا راح الشاعر يحن إليها ويتغزل فيها ويصور جمالها فى لذة وبراعة وجمال وذلك فى نحو أربعة وعشرين بيتا من روائع الشعر الجاهلى .

ثم ينتقل من الغزل إلى وصف الخمرة ومجلسها مع أصحاب له فى إحدى الحانات التى تحترف بيع الخمر مع مادار فى المجلس من لهو وغناء ورقص وموسيقى وقينات وذلك من خلال أسلوب قصصى رائع جعله وبحق رائدا للقصة الخمرية فى الأدب العربى وبالتالى جعله أستاذاً

وسيدا لكل من الأخطل وأبى نواس وغيرهما من الذين اشتهروا بالشعر الخمرى فى الأدب العربى ، فى نحو ثمانية أبيات ، هذا والأعشى مشهور بالخمريات شهرة امرئ القيس بالحديث عن النساء وعنترة بالحديث عن الفروسية .

ثم انتقل من الخمرة ومجلسها وسقاتها والندامى إلى وصف الصحراء ليصف رحلة فى ليلة ممطرة بات يرقب فيها البرق والسحاب والمطر ومواقع السيول وهى تتدفق فى أرجاء الصحراء من مكان إلى مكان فى نحو تسعة أبيات .

ثم يلتفت إلى بلدة موحشة قد مر بها أثناء رحلته ووصف الناقة فى بيت واحد .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الغرض الأصلى للقصيدة وهو

:الـتهديد والوعيـد والـرد على يزيد بن مسهر الشيبانى وأعـداء قبيلـته الذيـن كـانوا يوقعون بينها وبين القبائل الأخرى ويحاولون إشعال نار الفتنة والحرب بينها وبينهم، حيـث راح يهـدد ويتوعد ويهجو يزيد الشيبانى ثم اختتم قصيدته بفخر قبلى عريض راح يفتخر فيه بقبيلته وشجاعة قومـه وبطولاتهم وخبرتهم بفنون الحرب والقتال وقدرتهم عـلى انـتزاع النصـر من بين أنياب أعدائهم والإطاحة بأبطالهم أشلاء متناثرة فوق أسنة الرماح " .

تـناول الأعشـى ذلك دون إسفاف أو سباب أو شتائم ودون أن يحـنى رأسه أو يدسها فى الرمال بل كان جريئا صـريحا شـجاعا أوغل إلى أعماق خصمه دون ابتذال أو تجريح فاحش .

إذن تدور المعلقة فى نحو خمس موضوعات :

١- الغـزل بمحبوبـته هريـرة غزلا حسيا صريحا

مكشوفا.

٢- وصـــف الخمـــرة ومجلســـها ومـــا يدور فى هذا المجلس .

٣- وصف الرحلة والصحراء والبرق والسحاب وما مر عليه فى هذه الرحلة ووصف الناقة .

٤- الهجاء لخصومه وتهديدهم ووعيدهم .

٥- الفخر بقبيلته وإظهار فروسيتها وشجاعتها .

هـــذا ونذكـــر ســـبب نظم الأعشى لهذه القصيدة : أن رجـــلا اسمه ضبيع من بيوت الأعشى قتل رجلا من بيوت يزيد مسهر الشيبانى اسمه : زاهر بن سيار وكان ضبيع لا يعـــدل ابن سيار : فلما هم بنو سيار أن يأخذوا الثأر نهاهم يـــزيد الشيبانى أن يأخذوا الثأر من ضبيع وطلب منهم أن يقتلوا به (سعيدا) وهو مرموق المكانة فى قومه فلما علمت قبيـــلة الأعشـــى بذلك نظم الأعشى قصيدته وراح يهجوهم فيها .

حياة الأعشى :

الأعشى : هو ميمون بن قيس بن جندل ابن شراحيل ابن عوف بن سعيد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة .

ويرجع نسب الأعشى إلى قبيلة بكر بن وائل التى دارت بنها وبين أختها تغلب حرب البسوس المشهورة التى ظلت مستعرة بين القبيلتين نحو أربعين عاما ، كما ينتهى نسبه إلى ربيعة بن نزار .

وكنيته : أبو بصير ويقال له : الأعشى الكبير وأعشى بكر بن وائل وصناجة العرب .

وسمى بالأعشى لضعف فى بصره حيث كان ضعيف البصر ثم أصبح فى النهاية أعمى قد انطفأ النور من عينيه.

ولم تقتصر تسمية الأعشى عليه فقط بل أطلق العرب فى الجاهلية والإسلام هذا اللفظ على جمع كبير من الشعراء وكان يفرق بينهم بنسبة كل واحد منهم إلى قومه وكان أشهرهم

بهذا اللقب هو شاعرنا ميمون بن قيس أبو بصير .

وكان يسمى أبوه قيس بن جندل : قتيل الجوع وسمى بذلك لأنه دخل غارا يستظل به من الحر فوقعت عليه صخرة كبيرة من الجبل فسدت فم الغار فمات فيه جوعا ، أما أمه فهي بنت علس أخت الشاعر : المسيب بن علس .

وسمى بصناجة العرب لسيرورة شعره وتغنيهم به وقيل لأنه أول من ذكر الصنج (العود) فى شعره حيث قال :

ومستجيب لصوت الصنج تسمعه

إذا ترجع فيه القينة الفضل

وقد ولد الشاعر فى قرية اسمها " منفوحة " من قرى اليمامة وقد أغفل المؤرخون تاريخ ولادته ولكن ذهب البعض إلى أنه قد ولد قبيل العام الثالث والسبعين قبل الهجرة حيث اعتمدوا على رواية ابن قتيبة بأن الشاعر قد خرج يريد النبى صلى الله عليه وسلم فى صلح الحديبية

فى العام السابع من الهجرة وهو العام الذى مات فيه وإلى بيت قاله الأعشى :

مضى لى ثمانون من مولدى

كذلك تفصيـــل حسابهـــا

أمـــا زوجته فكانت عنزية من قبيلة عنزة بن هزال ، ومـــن أولاده : بصير الذى كان يقوده فى سوق عكاظ كما كانت له ابنة ذكرها فى شعره .

أمـــا ديانـــته فقيـــل إنه كان نصرانيا وقيل كان وثنيا مغـــرقا فى وثنيـــته وأن مـــا ورد فى شـــعره من عناصر نصـــرانية فجاءتـــه من راويته النصرانى يحيى بن متى ؛ وربمـــا أتـــته مـــن كـــثرة تطوافه فى بلاد العرب والبلاد والمجاورة حيث كان الأعشى كثير التطواف والتردد على البيـــئات المســـيحية فى الجزيـــرة العربية واليمن والشام والحيـــرة وذهـــب البعض إلى أنه كان ينتمى إلى البكريين النصـــارى وأنه كان يزور المعابد النصرانية والأساقفة فى

نجران وغيرها .

وقــد أدرك الأعشى الإسلام وقصد الرسول صلى الله عليه وسلم وقد مدحه بقصيدته التى يقول فيها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا

وعادك ما عاد السليم المسهدا

وماذاك من عشق النساء وإنما

تناسيت قبل اليوم خلة مهــددا

وفيها يقول :

نبى يرى مالا تــرون وذكــره

أغار ، لعمرى فى البلاد وأنجدا

له صدقات ما تغـــب ونائـــل

وليس عطاء اليوم مانعه غــدا

أجدك لم تسمع وصـــاة محمد

نبى الإله حين أوصى وأشهدا

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى

ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على ألا تكـــون كمثله

وأنك لم ترصد لما كان أرصدا

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه

ولا تعبد الأوثان والله فاحمـــدا

ولكـــن بـــلغ خبره قريشا فرصدوه على طريقه وهو ذاهـــب إلى الرســـول صـــلى الله عليه وسلم حيث خافت قـــريش مـــن إسلامه وقال له أبو سفيان : هل لك فى خير مما هممت به ؟ قال : وما هو ؟ قال : نحن وهو الآن فى هدنــــة فـــتأخذ مائة من الإبل وترجع إلى بلدك سنتك هذه وتنظر ما يصير إليه أمرنا فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خـــلفا وإن ظهـــر علينا أتيته فقال : ما أكره ذلك فقال أبو

سفيان : يا معشر قريش هذا الأعشى إو الله لئن أتى محمداً واتـــبعه ليضـــرمن عليكم نيران العرب بشعره فاجمعوا له مائة من الإبل ففعلوا . فأخذها وانطلق إلى بلده ، فلما كان بقاع منفوحة رمى به بعيره فقتله .

هـــذا وحيـــاة الأعشـــى ونشأته الأولى غير واضحة المعـــالم ولكن من المعلوم أنه نشأ فى قرية منفوحة وتعلم الشعر عن طريق الرواية على خاله المسيب بن علس حتى إذا أتـــم له مـــا أراد مـــن اكتمال الشاعرية وحصف عقله وارتـــاض لسانه راح يطوف أطراف البلاد وغشى أبواب المـــلوك يمدحهم ويستجديهم ، وكان تطوافه سببا فى كثرة معارفه وسعة ثقافته ، حيث اتصل بنصارى نجران وبأهل الحيـــرة وذهـــب إلى عمان وفلسطين وبلاد الشام والعراق وفـــارس والحبشـــة وغيرها من البلاد وراح يمدح الملوك والأجـــواد ومـــنهم : المـــناذرة وملوك نجران ورحل إلى كســـرى مـــلك الفرس فمدحه ونال جوائزه ، فكان الأعشى دائمـــا مـــرتحلا يجـــوب البلاد للمدح والعطاء حيث اتخذ الشـــعر وســـيلة للســـؤال فكان أهم شاعر حول المدح فى

الشـــعر الجاهلى إلى حرفة خالصة للكسب والعيش لذا يعد الأعشـــى نقطة تحول كبيرة فى تاريخ شعر المدح ومعلماً بارزا فى تطور الشعر الجاهلى .

وقـــد كان الأعشى يعشق قينة اسمها " هريرة " وظل قلـــبه معلقا بها رغم أنها تزوجت من غيره وكانت عروس شـــعره الـــتى زيـــن بها قصائده وكانت فاتحة معلقته التى معـــنا، فضـــلا عن أختها خليدة وليلى وسمية وقتيلة وهى أشـــهر الأسماء فى شعره الغزلى وجبيرة وهى بطلة غزله فى معلقته الأخرى .

وكـــان الأعشـــى صورة أخرى من امرئ القيس فى خلاعته ومجونه إن لم يكن أشد فسقا وفجورا حيث احتوى شعره على أشعار ماجنة يعترف خلالها اعترافات صريحة عـــن علاقات غير مشروعة مع طائفة من الجوارى وبنات الهـــوى بـــل انـــه اعترف أنه كان يخالس الأزواج ويلتقى بـــزوجاتهم ، فضـــلا عـــن التصريح بشرب الخمر ولعب الميسر وحضور مجالس العربدة والتهتك .

شعره :

للأعشى ديوان كبير يضم بين صفحاته كما ضخما من الشعر العربى فى مختلف الأغراض الشعرية حيث لم يترك فـنا مـن فنون الشعر إلا وقال فيه مثل : المدح والفخر والهجاء والغـزل والخمـرة والوصف والحكمة والعتاب والتحريض على القـتال الا أن معظم شعره فى المدح وهذا أمر طبيعى من شاعر قضى حياته متكسبا بشعره ويعيش من رزقه .

ومـن جيد شعر الأعشى قصيدتان مطولتان حيث عد بعـض النقاد والعلماء كلا منهما معلقة ، القصيدة الأولى لاميته التى بدأها بقوله :

ودع هريرة إن الركب مرتحل

وهل تطيق وداعا أيها الرجـل؟

والثانية لاميته التى بدأها بقوله :

ما بكاء الكبير بالأطـــــلال

وسؤالى فهل ترد سؤالـــــى ؟

ويمــتاز شعر الأعشى بعذوبة الألفاظ ودقة اختيارها حيــث أشــاع فيهــا وفرة من الموسيقى الداخلية فى اللفظ فضـــلا عـــن الموســيقى الخارجيــة وهى موسيقى الوزن والقافيــة فضلا عن سهولة ألفاظه إذا قيس بشعراء عصره وجاءتــه هذه السهولة من أثر الحياة المتحضرة التى كان كــثير الاتصـــال بها . فضلا عن سهولة ووضوح أفكاره ومعانيـــه وموسيقاه العروضية حيث كان كثير التنويع فيها واضفى على شعره طابعا موسيقيا لفت أنظار الجميع حتى اطــلقوا عليه صناجة العرب بسبب براعته الموسيقية التى تميز بها بين أقرانه من شعراء عصره .

وامــتاز شــعره بمعارفـــه الواســعة وانتشار الألفاظ الأعجميــة فيه بسبب أسفاره كما امتاز بإكثاره من وصف الخمــر فى بــراعة وروعـــة حتى أصبح إمام عصره فى وصفها .

مكانته :

يعد الأعشى أحد الأعلام البارزين من شعراء الجاهلية وفحولها وأكثر الرواة النقاد ذهبوا إلى أنه واحد من أولئك الكبار الأربعة الذين يعدون فحول الشعراء فى العصر الجاهلى .

سئل يونس النحوى : من أشعر الناس ؟ فقال لا أومئ إلى رجل بعينه ولكن أقول : امرؤ القيس إذا غضب والنابغة إذا رهب والأعشى إذا طرب وزهير إذا رغب

ووضعه ابن سلام فى الطبقة الأولى بعد امرئ القيس والنابغة وزهير .

وقال أبو عبيدة : يحتج من قدّم الأعشى بكثرة طوال الجياد وتصرفه فى المديح والهجاء وسائر فنون الشعر وليس ذلك لغيره .

ويقول : هو أول من سأل بشعره وانتجع به أقاصى البلاد وكان يغنى فى شعره فكانت العرب تسميه : صناجة العرب .

وقال الشعبى : الأعشى : أغزل الناس فى بيت واحد وأخنث الناس فى بيت واحد وأشجع الناس فى بيت واحد ، فأما أغزل بيت فقوله :

غراء فرعاء مصقـــــول عوارضها

تمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوجل

وأما أخنث بيت فقوله :

قالت هريرة لما جئت زائرها

ويلى عليك وويلى منك يا رجل

وأما أشجع بيت فقوله :

قالوا الطراد فقلنا تلك عادتنا

أو تنزلون فإنا معشر نــزل

والأبيـــات الـــثلاثة الـــتى استدل بها الشعبى هى من معلقته " ودع هريرة " التى هى موضوع دراستنا .

وســئل حمــاد الــراوية عن أشعر الناس فقال الذى

يقــول :

نازعتهم قضب الريحان متكئا

وقهوة مزة راووقهــا خضل

والــبيت الــذى جاء به حماد الرواية من نفس المعلقة المذكورة .

وروى أن الخــليفة عبد الملك بن مروان قال لمؤدب أولاده : أدبهــم برواية شعر الأعشى فإنه قاتله الله ما كان أعذب بحره وأصلب صخره " .

وحـــاول المزربانى فى كتابه الموشح أن يخرجه من طبقة الفحول بسبب كثرة الألفاظ الأجنبية فى شعره .

ويــرى الأســتاذ أحمد حسن الزيات :أن من رونق الحســن وطــلاوة الأســلوب والبراعة فى وصف الخمر والإجــادة مــع الطول ما لا تجده فى شعر غيره ... وأن لشــعره جلبة فى السمع وروعة فى النفس وأثر فى الناس فسمى صناجة العرب ولقد أعز بشعره وأذل " .

ونحن نعد الأعشى من كبار الشعراء الجاهليين وأحد فحولهم الذين تربعوا على ساحة القريض فى العصر الجاهلى وأنه أبرع شاعر فى تطويع الوزن الشعرى لشعره وأروع وأبرع الشعراء فى وصف الخمر ومجلسها .

وظل عمر الأعشى حتى أبيضت عيناه من الكبر ومات فى منفوحة وهى القرية التى ولد فيها فى العام السابع من الهجرة أى فى سنة ٦٢٩ م قرب مدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية وفيها قبره وداره التى كان يسكنها حيث دفن فى فناء بيته .

* * *

شرح الأبيات :

(١- ١٦) :

الغزل بمحبوبته .

بدأ الشاعر قصيدته بمقدمة غزلية استهلها بالحديث عن الرحيل والوداع لمحبوبته هريرة التى أخذت هبة الاستعداد للرحيل فى ذويها وأنت أيها العاشق المتيم بها هل تتمالك نفسك وتطيق وداعها وتقدر على سفرها وبعدها عنك ؟

ويقصد بقوله : أيها الرجل ؟ نفسه أى أنه لا يطيق بعدها عنه .

ثم راح يصف محبوبته ويعدد أوصافها : فهى بيضاء البشرة طويلة الشعر نضرة العوارض تمشى على مهل لسمنتها مثلما يمشى الإنسان الحافى وقد عقلت قدماه

بالوحل ، فهى لا تسرع فى مشيتها بل تمشى متمهلة متمايلة لتدللها وسمنتها وامتلاء جسمها .

وفى البيت الثالث :

يصف الشاعر خطواتها بأنها وسط بين الإبطاء والإسراع وعندما تمشى من بيتها إلى بيت جارتها يبدو مرورها الهادئ اللطيف كأنه مرور السحابة فى انسيابها الهادئ الرقيق .

وفى البيت الرابع :

يصف صوت حليها أثناء مشيها - وهى المنعمة المترفة بصوت - الريح عندما تصطدم بحبات شجر العشرق حيث يكون لذلك خشخشة جميلة تنشأ من مرور الريح على ثمار هذا الشجر وقد جف ويصف هذا

الصوت بأنه غناء يردده صاحبه ويرفع صوته به .

وفى البيت الخامس :

يقول إن محبوبته محبوبة من جيرانها لجمال خلقتها وحدتها القويم فهى جميلة تسر من ينظر إليها وهى كريمة الخلق لا تتنصت على أسرار جيرانها ولا تخدعهم، فهى كريمة جميلة الخلق والأخلاق .

وفى البيت السادس :

يقول : إن خصرها الضامر النحيل يكاد لثقل [illegible] تقطع عندما تهم للقيام لولا أنها تتماسك وتتحامل على نفسها أى أنها لسمنتها ونعيمها وترفها إذا همت لزيارة جاراتها فإنها لا تستطيع القيام إذ يكاد الكسل يقعدها فى مكانها لسمنتها وامتلاء جسمها .

وفى البيت السابع :

يصف رائحتها الطيبة التى تنتشر منها ومن ثيابها فتملأ كل ما حولها برائحة المسك والعنبر والزنبق حيث ينتشر المسك منها إذا قامت كانتشاره من أوعيته وكمثل ريح الزنبق الوردى الذى يعلق من أطراف ثوبها فيعم كل ما حولها .

وفى الأبيات : الثامن والتاسع والعاشر :

يصفها بالروضة الجميلة التى احتوت على كل مظاهر الحسن والجمال والنضارة والبهاء فيقول : انظر إلى روضة جميلة من رياض الجبل كثيرة العشب فائقة الخضرة وقد انهمر عليها المطر ...

هذه الروضة يضاحك الشمس بمثل إشراقها ومائها

كوكـــبها الذى هو جماعها وقد عمها الزهر وانتشر فيها ....

هـــذه الروضـــة التى اكتملت جمالا وعطرا ونضرة ليســـت بأحســـن مـــن حبيبـــتى هريرة رائحة وحسنا فى العشيات.

فالشـــاعر فى الأبيات الثلاثة : يرسم صورة جميلة ومـــنظرا رائعـــا لروضـــة خضراء تنتشر فيها الأزهار العطـــرة ليشبه بها طيب رائحة صاحبته هريرة ويقول : إن رائحـــة الروضـــة الموصـــوفة بهذه الصفات الجميلة ليست بأفضل من رائحة محبوبته هريرة .

وفى البيت الحادى عشر :

يـــتعجب الشـــاعر من صد محبوبته وإعراضها عنه

فيقول : لقد صدت هريرة عنى فلم تكلمنى ، إنها لجهلها بى لا تـدرى مـن تحب ومن لا تحب وإذا هجرتنا ولم تكلمـنا فمن تكلم ؟ وأى حبل تصله إذا لم تصلنا ؟ وأى رجل تحبه إذا لم تحبنا ؟

وفى البيت الثانى عشر :

يقـول : هل صدها عنى لأنى رجل أعشى لا أبصر جيـدا ؟ وقـد أصابنى ريب المنون ؟ ودهر فاسد يخبل العقل ويذهبه ؟ فالشاعر فى هذا البيت ذكر سبب صدها وإعراضـها حسبما تراءى له ، أى من أجل أنها رأتنى على هذه الكيفية أعرضت عنى ؟ إن هذا لأمر عجيب .

أى : أمـن أجـل أن رأتـنى رجلاً أعشى قد أهلك المـوت أهلـه وخانـه دهـر سفيه مخبول صدت عنى وقالت لى حينما جئت زائراً لها : إننى أتفجع عليك لأنك

تسعى بزيارتك لى فى هلاك نفسك وأتفجع منك لأنك بزيارتك لى تجر إلى هلاكى . أى أنها قالت له حينما جاءها زائرا : يا مصيبتى فيك فإن قومى سيقتلونك ويا مصيبتى بك فقد يقتلنى زوجى بسببك أيها الرجل المجترئ .

وفى البيت الرابع عشر :

راح الشاعر يعاتب محبوبته ويدافع عن نفسه قائلا : إن هذه الصفات التى أعرضت عنه بسببها إنما هى صفات طارئة عليه قد جرها الموت والزمان إليه وإن كانت تراه مبتذلا مرة فيمشى حافيا فليس هذا من شأنهم دائما فإنهم أحيانا يمشون منتعلين فطورا يفتقرون وأحيانا يغنون فحياتهم لا تستقر على حالة واحدة بل هى متغيرة ومتبدلة ولا تدوم على حالة واحدة .

والبيت الخامس عشر :

يصـــور استهتاره وانسياقه وراء لذاته واحتياله من أجـــل الوصـــول إلى معشوقاته المتزوجات فى غفلة من أزواجهـــن الذيـــن لا يقدرون على النجاة من فتكه مهما بالغوا فى الحذر منه ومهما احتاطوا وأخذوا حذرهم .

فالشاعر يترصد الأحوال للقاء عشيقاته وحينما تحين لـــه الفرصـــة فى غياب أزواجهن فإنه يسرع إليهن وقد يحذره أزواجهن ولكن لا ينجون منه .

والبيت السادس عشر :

اســـتمرار فى تصـــوير لهوه ومجونه فيقول : ربما انصـــابى وآتى بأفعال الفتيان ويصحبنى منهم الغزل ذو الشرة الذى يهوى النساء .

(١٧ – ٢٤) **وصف الخمر ومجلسها :**

ثم راح الشاعر يصف الخمر فيقول : إننى أذهب مبكرا إلى حانة الخمار ومعى فريق يؤلفون جماعة اللهو الكاملة حيث يتبعنى غلام طاه يشوى اللحم وسائق للذبيحة ومراقب لها أثناء سيرها ودائم الحركة والذى يحمل الأشياء والذى يقوم بتقسيم اللحم . وقد عيبت هذه الألفاظ على الشاعر ففيها تنافر بين الكلمات وثقل على الأذان .

وأنه ذهب إلى الحانوت مع فتية كرام من نبلاء العشائر وأنهم فتية كالسيوف فى انصرامة والمضاء وقد علموا أن جميع الناس هالكون لذا فهم حريصون على الاستمتاع بالحياة واللذات قبل أن يفوتها الموت عليهم وحيث أن النهاية المحتومة هى الموت .

ويعـــلمون أن كل فقير وغنى أمام الموت سواء لذا فهـــم يغتـــنمون الفرصة قبل أن يباغتهم الموت ويأخذهم على غرة .

وقـــد تبادلت مع الندامى وهؤلاء الفتية تبادلت معهم قضـــب الـــريحان والخمرة وكؤوس الخمر التى لا يجف وعاؤها .

وان هـــؤلاء الفـــتية قد غرقوا فى بحر الخمرة ولا يســـتفيقون مـــن ســـكرهم إلا عندما ينادون على الساقى بقولهـــم: هـــات ولـــو شربوا مرات كثيرة وأفرطوا فى شربهم مرات ومرات .

وفى البيت الحادى والعشرين :

يصـــف الســـاقى الذى يدور عليهم بزجاجات الخمر

فيقــول : وكــان يقــدم الخمر إلينا غلام يحمل أقداحها الــزجاجية وقــد رفع سرباله وشمره وكان يسعى ويقدم الخمرة إلينا فى خفة ونشاط وحركة دائمة .

وفى البيت الثانى والعشرين :

يقول وإلى جانب هذا فهناك مغن قد استجاب لطلبنا فحــرك صنجه عندما بدأت القينة المغنية هذه القينة التى تلــبس ثوبا واحدا شفيفا على جسدها ، ورب عود طرب قــد اســتجاب لصــوت الصنج كأنه يسمعه النغم فيجبه بمحاكاته أى كأن العود والصنج متفقان فى النغم لا يشذ أحدهما عن الآخر .

ثم يستمر فى البيت العشرين فى وصف هذا المجلس اللاهى فيقول :

ومـــع هـــؤلاء نســـوة من وجيهات القوم يقبلن إلى المجـــلس وهـــن ساحبات ذيول ثيابهن الحريرية الفخمة ويشـــركننا فى تناول الخمر وكأن على أعجازهن الثقيلة قرب الماء من جلود العجول أى أردافهن ممتلئة .

ثم يختتم الشاعر وصف هذا المجلس قائلا :

كـــان هذا يوما قد قضيته فى اللهو وسط هذا الجمع من الناس ومن تجاربى أننى آلف اللهو والغزل .

* * *

(٢٥ – ٤٤) هجاء أعدائه والفخر عليهم) :

ـ ــ هـــنا يبدأ القسم الرابع من المعلقة وهو الهجاء الــذى صـــبه عـــلى يـــزيد بنى شيبان والفخر عليه وقد ســـــرق هذا القسم اثنين وعشرين بيتا من المعلقة التى بـــلغت نحو ثمان وستين بيتا أى أنه ظل على مدى ست وأربعيـــن بيتا فى الغزل ووصف مجلس الخمرة ووصف الرحلة والراحلة .

فيقـــول ليزيد بن مسهر الشيبانى على سبيل التهديد والوعيد :

أمـــا زلت مستمرا فى الفساد وتأكل نفسك من الغيظ ويأكل بعضك بعضا من الحقد علينا ؟ .

ألا تنـــتهى عن التشهير بنا والإساءة إلينا والتهوين

مـــن شأننا وهدم عزنا ومجدنا ؟ فإنك لست بضارنا أبد الدهر مهما بذلت من الإساءة والتشهير بنا .

وإنـــك فى محـــاولاتك هذه كمن يحاول قطع شجرة الأثـــل القويـــة عـــلما بأنك لا تستطيع قطعها أو الحاق الضرربنا مدى الأيام .

ثم يقول فى البيت السابع والعرين :

إنك تغرى مسعود الشيبانى وعشيرته بحربنا وتوقع بيننا وبين القبائل وتثير نيران الفتنة المهلكة حتى إذا ما اشتعلت واستعرت نيرانها اعتزلت القتال وتركت القبائل فى قـــتالها ولجبـــنك وقفـــت بعيـــداً معـــتزلاً تنظر إلى المتحاربين وهم يقتتلون .

ثـــم يستمر فى البيت الثامن والعشرين يصفه بالجبن قائلا :

إنـــك جـــبان لا تعرفك إذا اشتدت الحرب واستعرت وتدفـــق الفرسان كالطوفان وتحملوا شدائدها وأنت بعيد عنها لا تقدم على المساعدة بل تجبن وتهرب حينئذ .

إنك عاجز فى كل محاولة تقوم بها ضدنا ومثلك فى ذلك مثل الوعل الذى ينطح الصخرة الصامدة فلا يستطيع أن يؤثر فيها بقرنيه بل إنه هو الذى يتأثر بذلك فتنكسر قرناه .

إنـــنى لا أعرفك عندما تستحكم العداوة بيننا ونلتفت إليـــك لتســـاعدنا على النصر باعتبارك من عشيرتنا فلا نجـــدك إلا مقصرا لعجزك وجبنك فلا تستطيع أن تنصر أى فريـــق .

إنك مفسد تحرك الشر وتشعل نيران الفتنة والحرب ثـــم تقـــف وتنظر إليها من بعيد فقد حرضت عشيرة ابن

مسعود علينا وورطت قومه فى قتالنا فقتلنا منهم من قتلنا وأسرنا منهم من أسرنا وبقيت أنت بعيداً متفرجا معتزلا للحرب لأنك جبان تسعى للشر ثم تنجو بنفسك .

وفى البيت الثانى والثلاثين :

يؤكد الشاعر ما ذكره فى الأبيات السابقة حيث يقول: إن يزيد بن شيبان يشعل الفتنة ويؤجج نيران الحرب بين الفريقين ثم يتهرب هو منها لجبنه ، فقد أشعل نيران الحرب وأجج النار فى حطبها ثم أخذ يبتهل إلى الله أن يطفئ نارها ويدعو الله أن ينجيه من شرها .

وفى البيت الثالث والثلاثين :

راح الشاعر يفاخر بقومه ويفتخر بهم على يزيد بن شيبان موضحا شجاعة قومه فى ساحات المعارك بعد أن

أظهر جبن يزيد فى الأبيات السابقة بما يعد هجاء ضمنيا ليزيد بنى شيبان فبعد أن أظهر جبن يزيد وعجزه وضعفه راح يظهر قوة قومه وجرأتهم وشجاعتهم فى ساحات الحروب فيقول :

إذا كنت تجهل مقدار قوتنا وشجاعتنا فاسأل بنى أسد عن ذلك فإنهم يعرفون أن أنباءنا فى البطولة سوف تأتيك فرادى وجماعات ومن مصادر متعددة وأخبار متنوعة ، وإذا لم يجبك بنو أسد فاسأل قبيلة " قشير " بن كعب بن ربيعة وعبد الله وربيعة كلها فإنهم سوف يجيبونك ويخبرونك ماذا نفعل وكيف نفعل ويخبرونك بأننا نأتى بالأمر العظيم المبتدع الذى لا يجرؤ أن يفعله غيرنا أحد .

فمن الأمور العظام التى نفعلها أننا نقاتلهم ونمعن فى قتلهم بالرغم من أنهم يحتدمون فى الحرب ويخرجون

عن طورهم ويجهلون أين تغلى عصبيتهم سفها واحتداما.

وفى البيت السادس والثلاثين :

يقسم الشاعر بالله الذى ترحل إلى بيته إبل الحجيج مسرعة تثير التراب بمناسمها ويساق إليه البقر الكثير ليضحى به هديا ويتقرب به إليه...

أو يقسم بالبيت الحرام الذى تساق إليه الأنعام .. أو يقسم بالإبل التى تحمل الحجيج إلى الكعبة وهم يسوقون أمامهم الهدى قطعانا كبيرة من البقر ليقدموها قربانا ..

لئن قتلتم منا سيدا لم يكن فى رفعة الشأن مقاربا للقائل فلنقتلن به أفضل سيد فيكم أو لنقتلن منكم سيدا مثله فى الطبقة والبيت جواب القسم فى البيت السابق عليه والشاعر فى البيتين يتوعدهم بالانتقام والثأر.

ثم يستمر الشاعر فى البيت الثامن والثلاثين فى تهديده ووعيده لهم قائلا : إنكم لا تنهون عن أذانا ولن ينتهى ذو الجور والبغى العميق فى نفوسكم فإما أن تنتهوا عن الاعتداء وإلا فسوق نصيبكم بطعنات تسبب لكم جراحا غائرة يذهب فيها الزيت والفتائل التى تتخذ لعلاجها وبقيت جروحكم بلا علاج .

إنكم لا تنتهون عن غيكم حتى نقتل سيد قومكم فيظل متكئا على مرفقيه يهم بالقيام فلا يقدر لسقوطه فى أرض المعركة وقد ولى عنه أنصاره أو قتلوا ولم يبق مدافعا عنه فى ساحة المعركة غير نسوة ثكالى يدفعن بأكفهن خشية أن تدوسه الأرجل وأقدام الخيل أو يدافعن عنه ويحمونه من القتل .

لقد أصابه سيف صنع فى الهند أصابة إصابته بدقة

فلم تحظئه أو رمح مصقول من رماح الخط بالبحرين .

وفى البيت الحادى والأربعين :

إنكم يا بنى أمنا قد زعمتم بأنا لا نقاتلكم ، كلا لا تظنوا ذلك ولا تشيعوه بين القبائل فإننا لأمثالكم مقاتلون بسبب جوركم وفسادكم ، فالشاعر يفتخر بشجاعة قومه ويزجر خصومهم وينفى أن يكون فى قومه ضعفا أو تخاذلا أو جبنا فهم الشجعان الأقوياء .

ثم يستمر فى إظهار شجاعة قومه قائلا :

نحن الفوارس الذين انتصرنا علانية يوم الحنو بجانبى وادى فطيمة عليكم حيث لم نكن فارين ولا عزلا من السلاح .

وفى البيت الثالث والأربعين :

يقـــول : قالوا الضراد والطعان ونحن راكبون فقلنا هـــذا دأبنا وتلك عادتنا أو تنزلون عن خيولكم فنجالدكم بالســيوف بدلا من المطاعنة بالرماح فإنا لمثلكم نازلون وقادرون على حربكم فنحن المعشر النزل المجربون فى الحروب وأصحاب الخبرة والحنكة فى ساحاتها .

فإنـــنا بصـــراء بأسرا الحرب ومواضع الطعن ولا نخطئ الهدف ومن علامات ذلك فإننا نعرف أدق ما فى فحـــذ الـــبعير فإذا كان الصيد والطرد طعناه فى العرق الذى يجرى من الجوف إلى الفخذ وهو موضع القتل فيه وإذا كـــان القـــتال طعنا الفارس فرفعناه على رماحنا . فالشاعر فى الشطر الأول يفتخر بإصابة العير فى مكنون قاتله وهو رمز لخبرة قومه ومهارتهم فى إصابة المقاتل وهى الأماكن القاتلة فى الجسم .

نظرات فى القصيدة :

أولا : ســـار الشاعر فى قصيدته على نهج أقرانه من الشعراء الجاهليين حيث بدأ القصيدة بمقدمة غزلية بلغت اكـــثر من عشرين بيتا راح خلالها يتغزل فى محبوبته هريرة غزلا مكشوفا إباحيا ثم انتقل من المقدمة الغزلية إلى وصف الخمر ومجلسها مصورا هذا المجلس اللاهى ومادار فيه من لهو وشرب وغناء وموسيقى ثم خرج من وصف الخمر إلى وصف الرحلة والصحراء والراحلة ثم انـــتقل من ذلك إلى الغرض الأصلى للقصيدة وهو هجاء يـــزيد بن شيبان وقومه وتهديده وإنذاره ووعيده والفخر عـــليه بقومـــه وشجاعتهم وبطولاتهم وخبرتهم فى فنون القـــتال وقدرتهـــم عـــلى النصر على أعدائهم والإطاحة بأبطـــال أعدائهـــم أشـــلاء متناثرة وهو فخر فى الحقيقة بمثابة الهجاء وامتداد له حيث يظهر فى فخره قدرة قومه

وشجاعتهم وضعف وجبن أعدائهم ، فالقصيدة متعددة الموضوعات .

ثانيا : تصور القصيدة خاصة القسم اللاهى منها وهو القسم الذى تغزل فيه بمحبوبته ووصف فيه الخمر تصور حياة الشاعر وصفاته وخلقه وفسقه ومجونه حيث قضى الشاعر حياته ماجنا ينشد اللذة ويتعقب النساء ويجالس الأزواج للإيقاع بزوجاتهم ويقضى الليالى الطوال بين حانات الخمر لاهيا عابثا .

ثالثا : جاءت ألفاظ الشاعر سهلة واضحة إذا قيست بألفاظ شعراء عصره ، واستخدم كثيرا من الألفاظ الأجنبية – خاصة الفارسية – فى قصيدته ولا تقف السهولة عند ألفاظه فقط بل شملت معانيه وأفكاره وموسيقاه العروضية .

والجدير بالذكر أن هذه السهولة جاءته من تأثير الحياة المتحضرة التى كان يتصل بها ويتردد عليها وهو تأثير حضارى فاق فيه النابغة الذبيانى بمراحل عديدة .

رابعا : يشيع فى القصيدة عادات العرب وتقاليدهم وأفكارهم بوضوح خاصة عند حديثه عن الغزل والهجاء والفخر حيث زخرت القصيدة بأوصاف وعادات ألفها العرب وتوارثوها مثل : الغزل بالمرأة البيضاء ثقيلة الأرداف فاحمة الشعر ناصعة الأسنان وتصوير رائحتها بالمسك الخ .

ومثل الفخر بالشجاعة والقوة وتصوير البطولة والقدرة على انتزاع النصر وغير ذلك .

خامسا : استطاع الأعشى بقدرته الفنية وبراعته فى استخدام الأوزان العروضية وتطويعها لشعره استطاع أن

يــزاوج بيــن الرقة والنعومة والنغم الراقص فى حديث الحــب والخمر وبين العنف والشدة والنغم الصاخب فى وصف المطر والرحلة والصحراء والناقة وحديث الهجاء والفخر فحقق لقصيدته هذا التوازن الصوتى الجميل الذى برع فيه الأعشى بين شعراء الجاهلية جميعهم .

سادسا : تتســم القصــيدة بالرصانة والهدوء النفسى وبراعة الوصف والنسق المحكم من السياق الهادئ الذى يــدل على بصمات حضارية قد دفعتها وقريحة شاعر لم تخشنها صلابة ووعورة البادية .

سابعا : اعــتمد الشــاعر فى تصوير صوره وإبراز معانيــه على كثير من ألوان البلاغة خاصة ألوان البيان من تشبيه واستعارة وكناية واعتمد فى أكثرها على صور الشــعراء الســابقين وإن بــدت صور الحضارة ظاهرة

بوضوح فى صوره وتصويره .

ففى البيت الأول:

استفهام خرج عن معناه الحقيقى إلى معنى مجازى وهو الاستفهام الإنكارى الذى يراد به النفى فى قوله : وهل تطيق وداعا أيها الرجل ؟ أى أنه لا يطيق .

وفى البيت الثانى :

أسلوب تعدد راح الشاعر يعدد أوصاف الجمال فى محبوبته فهى : غراءٍ فرعاء مصقول عوارضها . وفرعاء : كناية عن طول شعرها . ومصقول عوارضها: كناية عن نقاء أسنانها ثم يشبه مشيتها فى بطئها وتدللها بمشى الحافى وقد علقت قدماه بالوحل ، وهى صورة منتزعة من بيئة الشاعر .

والشطر الثانى : كناية عن سمنتها وبدانتها .

وفى البيت الثالث :

يشـــبه مشـــيتها مـــن بيتها إلى بيت جارتها بمرور وحركة السحابة فى مرورها وانسيابها فى هدوء ورقة .

ثـــم يشبه صوت حلى محبوبته ومجوهراتها بصوت نـــبات العشـــرق إذا ضربته الريح وحركته ، ويشبه هذا الصوت بالغناء الذى يردده صاحبه .

والبيت الخامس :

كناة عن حسنها وجمالها فى الشطر الأول .

والشـــطر الثانى : كناية عن كرم أخلاقها وصفاتها الكريمة .

والبيت السادس :

كناية عن سمنتها وبدانتها وترفها وتنغمها .

والبيت السابع :

كناية عن طيب رائحتها ، ثم يشبه رائحتها الطيبة المنتشرة برائحة المسك والعنبر والزنبق .

والبيت الثامن والتاسع والعاشر :

شبه الشاعر محبوبته فى حسنها وجمالها وبهائها وطيب رائحتها بروضة فائقة الحسن والجمال شديدة الخضرة وتنتشر فيها الأزهار العطرة ، فالشاعر يرسم فى الأبيات الثلاثة منظراً رائعاً لروضة جميلة ثم شبه بها محبوبته حسنا ورائحة طيبة وروعة وجمالا .

والاستفهام في البيت الحادى عشر : حيل من تصل؟ استفهام تعجبى .

والاستفهام في البيت الثانى عشر : للعتاب ، وفى نفس البيت جعل الشاعر الدهر يضربه كما جعله سفيها على سبيل الاستعارة المكنية .

وفى البيت السابع عشر :

تنافر كلمات حيث استخدم الشاعر ألفاظا متنافرة ثقيلة على اللسان والآذان وذلك يعد عيبا وقع فيه الشاعر حيث جانس جناساً خماسيا غامضا ثقيلا يتضايق الإنسان حين يسمعه بالرغم من التساوق الصوتى والتوقيع اللفظى الكائن فى البيت .

- ثم يشبه رفاقه فى البيت الثامن عشر بسيوف الهند

فى الصفاء والصرامة والنضرة ، وبين يحفى وينتقل : طباق .

والبيت يوضح حقيقة كونية محققة وهى هلاك كل الخلق غنيهم وفقيرهم وأن الموت لا يفرق بين الغنى والفقير فكل من عليها فان .

وقوله :

وقهوة مزة " فى البيت التاسع عشر كناية عن الخمر ، وهى كناية عن موصوف .

والبيت الحادى والعشرون :

كناية عن ساقى الخمر التى هى صفاته ما ذكرت فى البيت ، وقوله : مقلص أسفل السربال : كناية عن الحركة والنشاط وهى كناية عن صفة .

ثم يجعل الشاعر : العود يستجيب لصوت الصنج كأنه يسمعه فيجيب عليه ويحاكيه على سبيل الاستعارة المكنية فى البيت الثانى والعشرين . والقينة الفضل كناية عن المغنية الراقصة وهى كناية عن موصوف .

وفى البيت الثالث والعشرين فى قوله :

والساحبات ذيول المرط : كناية عن المرأة وكذلك قوله : والرافلات . ثم يشبه الشاعر فى نفس البيت : يشبه أرداف المرأة الثقيلة الممتلئة عند سيرها بالقرب التى يترجرج فيها الماء .

والاستفهام فى البيت الخامس والعشرين للتقرير أى إنك تاكل نفسك من الغيظ . والعبارة : كناية عن الغيظ .

والاستفهام فى البيت السادس والعشرين :

للتهديد والوعيد .

وقوله : نحت أثلتنا : كناية عن الأصل والمجد والعزة . ثم شبه الشاعر فى البيت عراقة أصل قومه وعزتهم وثبات مجدهم بثبات شجرة الأثل القوية على سبيل التشبيه الضمنى .

والبيت السابع والعشرين : كناية عن الجبن وشدة الخوف من خوض المعارك ، وإشعال الفتنة ثم التهرب منها .

وفى البيت الثامن والعشرين :

قوله : جد النفير : كناية عن اشتداد الحرب واستعارها ، ثم يشبه تدفق الفرسان فى المعركة بتدفق

الطوفان فى الشدة .

ثـــم يشـــبهه فى محاولاتـــه اليائسة لأيقاد نار الفتنة بـــالوعل الذى ينطح الصخرة الصامدة فلم يؤثر فيها بل هو الذى يتأثر بها فينكسر قرناه .

وقوله فى البيت الثلاثين :

جدت عداوتنا كناية عن استحكامها والبيت كناية عن عجز المهجو وقصوره وضعفه .

والبيت الحادى والثلاثون :

كناية عن إشعال الحرب ثم التهرب منها .

وتلزم ارماحه : كناية عن التوريط فى الحرب .

وقولـــه : وقـــد أكلـــتها حطبا " : كناية عن تأجيج الحرب وإشعال نارها.

والبيت أيضا كناية عن إشعال الفتنة ثم التهرب منها، وفى البيت إيجاز بالحذف : أى لا تقعدن عن الخوض فيها لنرى ماذا ستفعل وقد أججتها حطبا .

وفى البيت الثالث والثلاثين :

إيجاز بالحذف أى إذا كنت تجهل مقدار قوتنا فسائل بنى أسد عنا .

وكذلك فى البيت الرابع والثلاثين :

إيجاز بالحذف أى إذا لم يجبك بنو أسد فسل قبيلة قشيرا وعبد الله .

وقوله : كيف نفتعل : تفخيم وتعظيم أى نفعل الأمور العظيمة والأفعال الجليلة .

وفى البيت الخامس والثلاثين :

إنا نقتلهم بالتشديد للمبالغة فى القتل والإمعان فيه .

وقولــه : وهم جاروا : أى فى الحرب أى يحتدمون فيهــا . وهم جهلوا : أى جهلوا أين تغلى عصبيتهم سفها وحمقا ففيهما : إيجاز بالحذف .

وفى البيت السادس والثلاثين :

أسلوب قسم للتأكيد فى قوله : إنى لعمر الذى خطت مناسمها .

وفى البيت الثامن والثلاثين :

تشبيه ، حيث شبه استمرار بغيهم وجورهم بالطعنة الغائرة التى لم يفد معها علاج فتبقى بلا برء .

والبيت الحادى والأربعين : كناية عن شجاعة قومه، وقوتهم وشدة بأسهم.

وفى البيت الثالث والأربعين :

إيجاز بالحذف : أى او تنزلون عن ظهور الخيل للمجالدة بالسيوف .

والبيت الرابع والأربعين :

كناية عن خبرة قومه ومهارتهم فى إصابة المواضع القاتلة فى الجسم .

هذا وقد نظم الشاعر معلقته على بحر البسيط وأجزاءه : مستفعلن فعولن مستفعلن فعولن مرتين وهو من البحور الطويلة القوية التى تناسب غرض القصيدة وتزيد من قوة أسلوبها وإحكام نسجها .

* * *

معلقة الأعشى الثانية

أو "لامية عكاظ"

يقول الشاعر :

ما بكـــاء الكبير بالأطـــــلال

وسؤالى فهل تـــرد سؤالـــى(١)

دمنة قفرة تعاورها الصيـــ

ـــف بريحين من صبا وشمال (٢)

---

(١) الكـــبير : الكهـــل المسن . الأطلال : جمع طلل وهو ما تبقى من أثار الديار . وسؤالى : أى عن المحبوبة وذكرياتها ويسأل الأطلال والدمن .
وروى البيت : وسؤالى وما ترد سؤالى والقصيدة من بحر : الخفيف .

(٢) الدمـــنة : آثار الديار والناس ويعنى : الأماكن التى يقيم فيها العرب ثم يرتحـــلون عـــنها ويـــتركون آثاراً تدل على إقامتهم بها . قفرة : خالية من السكان ، جرداء صحراء لا زرع فيها ولا ماء .
تعاورها : تبادل عليها أى تبادل عليها مرة بريح الصبا الشرقية ومرة بريح الشـــمال . والصـــبا : ريح لطيفة منعشة تهب ليلا ، والشمال : ريح تهب نهارا .

لات هنا ذكـــــرى جبيرة أو من

جاء منها بطائف الأهـــوال (٣)

حل أهلى : بطن الغميس فبادو

لى وحلت علوية بالسخـــــال (٤)

---

(٣) لات : بمعنى : ليس وأصلها : لا ، والتاء للتأنيث .

وهـــنَا : لغـــة فى هـــنا بالتخفيف ، والمعنى : ليس هنا أى ليس الآن وقت ذكـــرها . وجبيرة : اسم صاحبته . والطائف : الطيف وأضافه إلى الأهوال لأنه اخترق أهوال الصحراء فى زيارته له . والأهوال : جمع هول مصدر هال بمعنى أفزع وأخاف.

(٤) حل أهلى : أقاموا واستقروا وسكنوا . الغميس : اسم مكان أو اسم واد . بادولى : موضع باليمامة .

والسخال : موضع باليمامة أيضا . وعلوية : أى فى عالية نجد أو علوية بالرفع : اسم فتاة من فتيانه أو وصيفة جبيرة محبوبته .

وعلوية بالنصب : حال من الفعل :حلت . وروى البيت : حل أهلى ما بين درنى فباد ولى . ودرنى : اسم موضع كذلك .

ترتعى السفح فالكثيـــب فذاقــا

رفروض القطا فــذات الرئــال (٥)

رب خرق من دونها يخرس السفـ

ـر وميل يفضى إلى أميــــال (٦)

وسقاء يوكى على تــأق الملـ

ـء وسير ومستقى أوشـــــال (٧)

---

(٥) تــرتعى الســفح : أى أن عــلوية ترعى إبلها عشب السفح . والسفح والكــثيب وذو قار وروض القطا أو روض الفضا .وذات الرسال : أسماء مواضع . وقد نصبت كلها بنزع الخافض .

(٦) الخرق : الصحراء الفسيحة المترامية الأطراف كأن الرياح تخرقها . والضــمير في دونهــا : يعود على صاحبته . والسفر : جماعة المسافرين وضمير الفاعل فى يخرس : يعود إلى الخرق . والميل : المسافة البعيدة أو المسافة المعلومة . ويفضى : يؤدى. ويخرس السفر : يخرسهم ويسكتهم .

(٧) الســقاء : قربة الماء . يوكى : يربط : من الوكاء وهو ما يشد به عنق السقاء . التأق : شدة الامتلاء . وتأق الملء : أى نهاية امتلاء السقاء بالماء . والسير : قطعة من الجلد يتخذ منها الأربطة .المستقى : طلب السقيا . الأوشـــال : جمـــع وشل وهو الماء القليل يستحلب على فترات لقلته . وهو الماء الكثير كذلك لأنه من ألفاظ الأضداد .

وادلاج بعد المنـــام وتهجيـــ

ــر وقف وسبسب ورمـــال [٨]

وقليب اجن كـأن مـــن الريـــ

ش بأرجائه سقـــوط النصـــال [٩]

---

(٨) الادلاج : السير ليلا أو السير طوال الليل .

الهدوء النوم . والتهجير : السير وقت الهاجرة وهى وقت الظهيرة أى فى شدة الحر . والقف : الأرض الغليظة الوعرة أو هى حجارة غاص بعضها فى بعض . والسبسب : الأرض المستوية الواسعة البينة الممتدة .

ورمال : الأرض المرملة ذات الرمال .

(٩) القـليب : البـئر . الأجـن : الذى تغير لونه وطعم مائه . السقوط : الساقط. والنصـال : جمـع نصـل ويشمل نصل السيف والرمح والسهم والسـكين . وروى : لقـوط نصال : واللقوط : ما يلتقط مما يتناثر على الأرض جمع: لقط .

فلئن شط بى المزار لقد أغـــــ

ـــدو قليل الهموم ناعم بـــــال (١٠)

إذ هى الهم والحديـــث وإذ تعـــ

ـــصى إلىَّ الأمير ذا الأقـــــوال (١١)

---

(١٠) شط :بعد . ولئن شط : قسم وشرط وجواب القسم : لقد أغدو وحذف جواب الشرط اكتفاء بجواب القسم . قال ابن مالك :

واحذف لدى اجتماع شرط قسم

جواب ما أخرت فهـــــو ملتزم

أغـــدو : أدخل فى وقت الغدو أى مبكرا ، وروى : لقد أضحى : أى أدخل فى وقت الضحى . الهموم : جمع هم وهو شدة الحزن .وناعم بال : هادئ النفس مرتاح الخاطر .

(١١) هى الهـــم : أى هى الشـــاغل وموطن الاهتمام . والحديث : أى مـــثار حديـــثى . تعصـــى إلىَّ : أى من أجلى . الأمير : ولى أمرها وأغلب الظن هو زوجها حيث دأب الأعشى على ذكر المرأة المتزوجة فى شـــعره وردده كـــثيرا . ذا الأقوال : أى صاحب الأوامر المطاعة والكلمات النافذة .

ظبية من ظباء وجـــرة أدمـــا

ء تسف الكباث تحت الهـــدال (١٢)

حرة طفلـــة الأنامـــــل ترتبـــ

ـــب سخاما تكفـــه بخـــلال (١٣)

---

(١٢) وجـــرة : موضع بين مكة والبصرة تكثر فيها الظباء وهى منطقة مشـــهورة بظبـائها ويـــتردد ذكرها كثيرا فى الشعر العربى القديم . الأدمـــاء السمراء ، أو الشديدة البياض أو البيضاء السوداء المقلتين ، تســـف : تناولـــته غير متلوث .الكباث : ثمر شجر الأراك . الهدال : الأغصان المتهدلة .

(١٣) حرة : كريمة . الطفلة : الناعمة اللينة الرخصة وجمعها : أطفال وطفول وطفل . السخام : يريد به شعرها الأسود . وترتب : تعنى به وتـــنميه . الخـــلال : المشـــط ، لأنه يتخلل الشعر أثناء التمشط به . تكفـــه: تجمعـــه وتضـــمه . وقد يريد بالسخام : الثياب اللين المس . وترتب : نهى وتنعم . وتكفه : تشد حواشيه . والخلال : ما يثقب به ، يقـــال : خـــل الثوب بمعنى خاطه أو شده بخلال أى مثقب من عود أو حديد ونحوه .

وكأن السموط عكفهـــا السلـــ

ــك بعطفى جيداء أم غـــزال (١٤)

وكأن الخمر العتيق فى الإسفنـــ

ــط ممزوجـــة بمــــاء زلال (١٥)

---

(١٤) السموط : الخيط مادام فيه الخرز أى العقود والمفرد سمط .

عكفها : ثناها فالتفت حوله ، عكف الجوهر فى النظم : إذا استدار .

والسلك : دخول الشئ فى الشئ . العطف : الجانب . الجيداء : الطويلة العنق . أم الغزال : الظبية .

(١٥) الخمر : سميت بذلك لأنها خامرت العقل أى خالطته فغلبت عليه ويقال فيها : خمر وخمرة وخمور .

العتيق : القديمة . الإسفنط : لفظ فارسى معرب وأراد به أجود أنواع الخمر وأعلى مراتبها وهى الخمرة الطيبة النفيسة عند شاربيها .

ومـــاء زلال : أى عذب . وزلال : صفة لماء وهو من إضافة الموصوف للصفة .

باكرتها الأغراب فى سنة النو

م فتجرى خلال شوك السيال (١٦)

فاذهبى ما إليك أدركنـــى الحلــ

ــم..عدانى عن هيجكم أشغالـــى (١٧)

---

(١٦) باكرتها: بادرت إليها . الأغراب : جمع : غرب وهى الأقداح أو الكؤوس . أو الأغراب : ريق الأسنان ، أو كثرة الريق . وسنة النوم: غفـــوة النوم أو أول النوم .والسيال : نبات صحراوى له شموك أبيض طويـــل إذا نـــزع خـــرج منه اللبن ، والعرب يشبهون به الأسنان فى بياضها وصفائها.

(١٧) فاذهبى : انصرفى عنى واتركينى والخطاب لمحبوبته . ما إليك : أى ما سبيل إليك . الحلم : العقل والرشد . عدانى : صرفنى وشغلنى وأبعدنى. هيجكم : إثارتكم لى وشغلى بكم . أى شغلنى عن ذكرك شواغل الحياة . وإلى هنا تنتهى المقدمة الغزلية .

وعسير أدماء حادرة العيـــ

ـــن خنوف عيرانة شملال[١٨]

من سراة الهجان صلبهـــا العضـــ

ـــض ورعيى الحمى وطول الحيال [١٩]

---

(١٨) العسير : الناقة التى ترفع ذنبها فى عدوها أو الناقة التى لن تحمل فى عامها . الأدماء : البيضاء أو السمراء التى تجمع اللونين .
ويرى اللغويون : أن الأدمة فى الإنسان : السمرة وفى الحيوان : البياض .
حـــادرة العيـــن : صـــلبة العين أو إلتى يتحدر دمعها .الخنوف : النشيطة السـريعة الجـــرى. العيـــرانة : الـــتى تشبه العير أى الجمال ، أو الحمار الوحشى . الشملال : السريعة فى مشيها وجريها.
(١٩) ســـراة الهجان : أفضل الإبل وخيار الإبل الكريمة ، وسراة : جمع سرى ، هو جمع نادر لا شبيه له .
الهجان : جمع هجين وهو الجمل الأبيض أو الناقة البيضاء .
صـــلبها : جعلها صلبة قوية . العض : عطف الإبل ، والعض : نوع من أنواع الأشجار الشوكية .
أرض الحـــمى : الأرض المحمية التى يحجزها أصحابها لرعى أغنامهم .
الحيال : عدم الحمل .

لم تعطف على حوار ولم يقـ
ـطع عبيد عروقها من خمال (٢٠)

قد تغللتها علـى نكظ الميـ
ـط وقد خب لامعات الآل (٢١)

---

(٢٠) لم تعطف : أصلها : لم تتعطف فحذفت احدى التائين للتخفيف . والتعطف : الميل والحنو والرحمة . الحوار : ولد الناقة حال ولادته وجمعه : حوران وحيران وأحورة . عبيد : تصغير عبد أو هو رجل كان يعالج الإبل أو راوية الأعشى . الخمال: داء يسبب الضعف فى قوائم البعير أو مفاصله.

(٢١) تعللتها : استخرجت أقصى ما عندها من السير أو استعنت بها .

والنكظ : الجهد وشدة الحال فى السفر .

والنكظ : الجهد والمشقة والعجلة . والميط : البعد أو الزجر والحث وقوله : على نكظ الميط : أى على شدة البعد ، ونكظ الميط : طول المسافة . خب : ارتفع أو أسرع والآل : السراب ولامعات الآل : أطياف السراب .

فوق ديمومة تغــول بالسفــ

ــر قفار إلا من الآجـــــال [٢٢]

تقطع الأمعز المكوكب وخدا

بنــــواج سريعـــة الإيغال [٢٣]

---

(٢٢) الديمومة : الفلاة الواسعة والصحراء المترامية الأطراف . تغــول : أصلها : تتغول فحذفت إحدى التاءين للتخفيف وهى بمعنى تهلك وتضـــل . السفر : جماعة المسافرين . قفار : خالية . الآجال : جمع إجل وهى قطعان البقر الوحشى . وفوق: ظرف زمان متعلق بالفعل تعتل فى البيت السابق .

(٢٣) الأمعز : الأرض الكثيرة الحصى والأرض الصلبة والأرض الوعرة. المكوكــب : الذى يتلألأ كالكوكب من شدة الحر أو الذى تلمع أحجاره مع الكواكب فى السماء . الوخد : السير السريع الواسع الخطوات . النواجى : القوائـــم وهى جمـــع : ناجية والنواجى : هى السريعة من النياق والمراد قوائـــم ناقتـــه الأربـــع حيث جعلها الشاعر نياقا على سبيل المجاز المرسل والعلاقـــة : الجزئية وذلك للمبالغة فى سرعة السير . الإيغال : المبالغة فى السير أو السير لمسافة طويلة أو الاندفاع فى السير والإبعاد فيه.

عنتريس تعدو إذا مسهـــا السو

ــط كعدو المصلصل الجوال (٢٤)

لأحه الصيف والصيال وإشفا

ق على صعدة كقوس الضال (٢٥)

---

(٢٤) العنتريس : الناقة الصلبة القوية عظيمة البنيان . المصلصل : المرتفع الصوت والذي يرن صوته لشدة نهيقه .

الجوال : الدائم الحركة والكثير الجولان ولا يستقر في مكان ويريد بقوله : المصلصل الجوال : الحمار الوحشي حيث شبه به ناقته .

وعنتريس : صفة لنواج في البيت السابق .

(٢٥) لاحه : غيره وأضمره . الصيف : حرارة الصيف . الصيال : المصاولة ويعني مصاولة غيره من حمر الوحش . وروى البيت :

لاحه الصيف والطراد " والطراد : المطاردة ، والمعنى واحد .

والصعدة : الأتان وهي أنثى الحمار الوحشي .

والضال : شجر صلب من أشجار البادية يتخذ منه القسي وقيل هو شجر السدر . والبيت وصف للحمار الوحشي المتقدم في البيت السابق .

لا تشكى إلىَّ من ألـــم النســـ

ـــع ولا من حفى ولا من كـــلال [٢٦]

لا تشكى إلى وانتجعى الأســـ

ود أهل الندى وأهل الفعـــال [٢٧]

---

(٢٦) لا تشـــكى : أى لا تشتكى فحذفت إحدى التائين للتخفيف . والخطاب : للـــناقة والـــبيت تمهيـــد للانتقال من وصف الرحلة والراحلة إلى الغرض الأصـــلى للقصـــيدة وهـــو المدح وذلك فى حسن تخلص وانتقال بارع من الشاعر إلى غرضه الأصلى فى البيت التالى .

وألم النسع : الأوصاب . والحفى : رقة تصيب القدم من طول السير .

والكلال : التعب والمشقة .

(٢٧) انـــتجعى : اطلـــبى واستريحى والانتجاع : طلب النجعة أى الإقامة ، والخطاب أيضا للناقة . الأسود بن المنذر اللخمى وكان من سادة الغساسنة وكـــان الأعشـــى يـــتردد عليه كثيرا لمدحه ونيل جوائزه . والندى : الكرم والجود . والفعال : المآثر الطيبة والفعل الطيب .

فرع نبع يهتز فى غصن المجـــ

ـــد غزير الندى شديد المحـــــال (٢٨)

عنده الحزم والتقى وأسى الصد

ع وحمل لمضلــع الأثقـــال (٢٩)

---

(٢٨) النـــبع : شجر صلب ينمو فوق رؤس الجبال شديد الصلابة وتتخذ منه القسى ويضرب به المثل فى الصلابة والاستقامة . المحال : القوة أو التمكر والكيد والشدة والبأس .

(٢٩) الحزم : ضبط الأمور بحكمة .

والتقى : بالمفهوم الجاهلى : الحذر والاتقاء .

والأسى : الدواء والعلاج .

الصـــدع : الشق والكسر ويريد بقوله : وأسى الصدع : أى أنه يعمل على إصلاح ما بين الناس من تصدع .

المضلع : الذى يرهق الضلوع ، ويريد بمضلع الأثقال : الأعباء الثقيلة التى يريد الناس أن يخففها عنهم .

وصلات الأرحام قد علم النا

س وفك الأسرى من الأغــلال (٣٠)

وهوان النفس العزيزة للذكـــ

ــر إذا ما التقت صدور العوالى (٣١)

وعطاء إذا سئلت إذ العــذ

رة كانت عطية البخـــــال (٣٢)

---

(٣٠) الأرحام : جمع رحم والرحم : القرابة .
والأسرى : جمع : أسير وهو من يؤخذ فى الحروب والغارات من الأعداء والأغلال : جمع غل : وهو الطوق يوضع فى رقبة الأسير .

(٣١) هــوان الــنفس : تعــبها وشقاؤها . العزيزة : أى الغالية ، وروى : الكــريمة . والذكر : السمعة الطيبة والذكر الطيب : أو هوان النفس : أى يهون بنفسه ولا يبالى بها ويبذلها ويضحى بها . العوالى : الرماح . والتقاء صدورها : كناية عن الحرب . وصدورها : أسنتها .

(٣٢) وعطاء : معط . العذرة : المعذرة والاعتذار أو العذرة : ما يخرج من الطعام وهو قليل لا يشبع . والبخال : جمع باخل وهو الشديد البخل .

ووفـــــاء إذا أجرت فما غرّ

ت حبال وصلتها بحبـــال (٣٣)

أريحى صلت يظل له القو

م ركودا قيامهـــم للهلال (٣٤)

إن يعاقب يكن غراما وإن يعـــ

ـــط جزيلا فإنه لا يبالـــى (٣٥)

---

(٣٣) أجرت : حميت . والمجير : هو الحامى الذى يلجأ إليه الضعفاء . وغـــرت : ضيفت أو خدعت والمراد : نقضت وقطعت . الحبال : العهود والمواثيق التى يقطعها على نفسه .

(٣٤) أريحى : أى يرتاح للندى وينشرح للجود ، نسبة إلى الأريحية . والأريـــحى : الكـــريم الجـــواد الـــذى يرتاح للكرم . الصلت : الشجاع أو الماضـــى إلى هدفـــه دون تـــردد ، أو الجبين الواضح أو السيف الصقيل الماضى أو الرجل الماضى فى الحوائج .

الركود :الذين لا يتحركون ويقفون فى صمت وخشوع يترقبون وينظرون .

(٣٥) الغرام : الهـــلاك والعذاب والشر الدائم ، قال تعالى " إن عذابها كان غراما" الفرقان آية رقم ٦٥ . الجزيل : الكثير والعظيم .

لا يبالى : لا يكترث ولا يعبأ ولا يهتم .

يهب الجلة الجراجـــــر كاليســـ

ـــتان تحنو لدردق أطفـــال (٣٦)

والبغايا يركضن أكسية الإضـــ

ـــريج والشرعبى ذا الأذيال (٣٧)

---

(٣٦) الجلة : الإبل الكبيرة الضخمة السمينة . الجراجر : الضخام من الإبل ومفردها : جرجور ، والجراجر : الإبل الصخابة .

والبســــتان : النخل أو الحائط وهو فارسى معرب . الدردق : الصغار وهى أيضا فارسية تعنى الصغار .

(٣٧) الـــبغايا : جمع : بغى وهى الأمة والجارية وهو المعنى المراد ويطلق هذا اللفظ ويراد به كذلك . : الحرة الفاجرة .

يركضن : يجررن وراء هن أو : يدفعن أو يعدون أو يجرين .

الأكسية : جمع كساء ويعنى به : الثياب .

الأضريج : الحرير الأصفر . والشرعبى : الحرير الأحمر أو هو ثوب من ثيـــاب اليمـــن أو نســـبة إلى الشـــرعب :أى الطويل . ذو الأذيال : المذيل بالتطريزات .

وجيادٌ كأنها قضب الشـــو

حط تعدو بشكة الأبطـــــال (٣٨)

والمكاكيك والصحاف من الفضـ

ـضة والضامرات تحت الرحال (٣٩)

---

(٣٨) الجياد : جمع جواد وهو الفرس الجيد .

القضب : جمع قضيب ومعناه : الغصن .

الشـــوحط : شـــجر صحراوى تتخذ منه القسى مثل شجر النبع . الشكة : السلاح .

(٣٩) المكـــاكيك : جمع مكوك وهو طاس يشربون به ، أو هو مكيال يتسع لنحو صاع أو نصف صاع .

الصحاف : الأطباق ، جمع : صحفة .

والضامرات : جمع ضامرة وهى الناقة السهلة القياد أو النوق الوديعة التى لا تجـــتر ، أو الـــنوق الـــتى حبست عن الطعام والشراب فترة حتى يزول شحمها وهى من أجود أنواع النوق .

الرحال : جمع رحل ، وهو ما يوضع على ظهر البعير ويجمع أيضا على أرحل .

ويجوز أن يراد بالرحال : الأحمال .

ودروعا من نسج داود فى الحرب

وسوقا يحملن فوق الجمال [٤٠]

هو دان الرباب إذ كرهوا الد

دين دراكا بغزوة وصيـــال [٤١]

رب رفـ هرقته ذلك اليـــو

م وأسرى من معشر أقتــال [٤٢]

---

(٤٠) الـــدروع : جمع درع وهو ثوب من الحديد يلبس للحماية من طعنات السيوف والرماح . وأراد بداود : نبى الله داود عليه السلام حيث علمه ربه صـــناعة الدروع قال تعالى : " وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم مـــن بأسكم " سورة الأنبياء آية ٨٠ " . الوسوق : الأحمال جمع : وسق .

(٤١) الـــرباب : مجموعة من قبائل العرب كانت تنزل شرقـــى الجزيرة العربية . دانها : أذلها وأجبرها على الطاعة والدين : الموت والطاعة .
دراكا : أى متلاحقة متتابعة . صيال : صولات وحروب .

(٤٢) الرفد : القدح الضخم . هرقته : أرقته وصببته ، وهراقة الرفد : كناية عـــن الموت الذى صبه ممدوحه على أعدائه . أسرى : جمع أسير .أقتال : جمع قتل وهو العدو المطالب بثأره . وروى من معشر ضلال

وشيوخ حربـــى بشطى أريك

ونساء كأنهـــن السعالـــــى (٤٣)

رب حــــــى أشقاهم آخر الد

هر وحى سقاهم بسجـــــال (٤٤)

---

(٤٣) الشيوخ : جمع شيخ وهم رؤساء العشائر . حربى : جمع حريب وهو من سلب ماله وحرم منه . أريك : موضع أو اسم واد .

السعالى : مفردها : السعلاة وهى أنثى الغول أو هى الغول . كفاه : جانباه .

(٤٤) الحى : أحد أحياء العرب الذين يحيون فيه ويعيشون .

ويريد : أهل الحى . أشقاهم : سبب لهم الشقاء والتعب أو أهلكهم .

الدهر : الزمن . السجال : الدلاء الكبيرة ، جمع سجل : وهو الدلو حينما يكون فيه الماء أما الدلو الفارغ فلا يسمى سجلا .

وأرى من عصاك أصبح محرو

با وكعب الذى يطيعــك عالــى[٤٥]

للعدا عندك البوار ومـــن وا

ليت لم يعــر عقده باغتيال[٤٦]

لن تزالوا كذلكم ثم لا زلــ

ــت لهم خالدا خلــود الجبال[٤٧]

---

(٤٥) محروبا : مسلوب المال . والمراد : مسلوب العزة .

والكعــب : المجــد والرفعة . وعال : مرتفع منيع عزيز . وقوله : وكعب الــذى يبطيعك عالى : كناية عن العزة والرفعة . وروى البيت : وأرى من عصاك أصبح مخذولا .

(٤٦) الــبوار : الهــلاك والخســران .واليت : نصرت وأعنت . يعرى : يغشى. عقده : عهده . الاغتيال : النكث .

(٤٧) لن تزالوا كذلكم : دعاء لقوم الممدوح بدوام النصر .

والضــمير فى قوــله : لهــم : يعــود إلى قومه . والخلود : الدوام والبقاء المستمر .

موضوع القصيدة :

تعد هذه القصيدة من روائع شعر الأعشى ومن أشهر شعره حتى ذهب البعض إلى القول بأنها هى المعلقة لا قصيدته الأولى : ودع هريرة " ووضعها بعض الرواة بين المعلقات العشر ويقولون إنها هى القصيدة التى أنشدها الأعشى أمام النابغة الذبيانى فى سوق عكاظ فأعجبته ولذلك سميت بلامية عكاظ .

والقصيدة طويلة حيث تبلغ نحو خمسة وسبعين بيتا بل جعلها البعض ثمانية وتسعين بيتا حيث أضافوا الى أبياتها الخمسة والسبعين ثلاثة وعشرين بيتا أخرى واختتموها بقوله :

ذاك عيش شهدته ثم ولى

كل عيش مصيره للزوال

ولكن يبدو أن هذه الأبيات المضافة ليست من هذه

المعلقة وأنها أضيفت إليها بعد ذلك حتى وإن وافقتها وزنا وقافية ، وذلك لأن الأبيات المضافة لا تتسق مع الأبيات السابقة للقصيدة وأنها لا تتصل بالمعنى العام والغرض العام للقصيدة وتخرج عن الإطار الذى رسمه الشاعر لقصيدته وخطته لها .

فالقصيدة فى المدح وقد مهد لها بالوقوف على الأطلال ثم انصرف إلى وصف الرحلة والراحلة حيث تخلص منها إلى مدح الممدوح فلا يعقل بعد ذلك أن يتحدث الشاعر عن نفسه وما ضيه وشبابه ورحلاته للصيد وغير ذلك بعد أبيات المدح ، مع أن هناك من العلماء والرواة والنقاد من يعدون هذه الأبيات من القصيدة وأنها من تمامها ويستدلون على ذلك بأنها صورة صادقة لحياته ورسم واضح لصفاته ، ومع ذلك فإذا كانت هذه الأبيات كذلك فإنها من نظم الشاعر ولكن ليست من تمام هذه المعلقة ، اللهم إلا إذا كان الأعشى قد خالف النهج المعروف وخرج بقصيدته على نمط القصيدة الجاهلية وأنه قد جاء بقصيدة على نهج جديد ونمط لم يعرفه الشعراء فى عصره.

وموضـــوع القصـــيدة الأساسى هو المدح حيث راح الشـــاعر يمدح بها : الأسود بن المنذر أحد أمراء الحيرة ، إلا أنـــه قـــد بـــدأ القصـــيدة بمقدمة طللية وقف فيها على الأطـــلال وتغـــزل بمحبوبـــته " جبيرة " وتغنى بجمالها ثم انتقل بعد ذلك إلى وصف الرحلة والراحلة ثم يتخلص منها تخلصـــا حســـنا إلى الغرض الأصلى للقصيدة وهو : مدح الأسود بن المنذر .

وقد استغرقت المقدمة الطللية نحو سبعة عشر بيتا ثم وصـــف الرحـــلة والراحلة فى ثمانية عشر بيتا بينما خص المـــدح بـــبقية أبيات القصيدة حيث بلغت أبيات الندح نحو أربعين بيتا .

* * *

شرح الأبيات :

(١- ١٧) : -

هـذه الأبيـات السبعة عشر تدور حول الوقوف على الأطـلال في مقدمـة طللية تقليدية وقف فيها الشاعر على أطـلال محبوبته " جبيرة " وقد تقدمت به السن فراح ينكر وقوفه بها وسؤاله حيث لا ترد عليه جوابا ثم راح يتحدث عن محبوبته وراحلتها وبعد مابينهما مستعيدا ذكرياته معها متغـنيا بجمالها ومظهراً لمفاتنها مشبها لها بالخمر العذبة ثم يتذكر مشيبه الذى باعد بينه وبين لهو الشباب فقد شغل الشاعر عن ذكر حبيبته بشواغل الحياة .....

يقول فى البيت الأول :

إنـه لا يحـق للكبير المتقدم فى السن ولا يليق به أن يقـف عـلى أطـلال ديـار محبوبته لسؤالها عن الحبيبة وذكرياتها لأنها لا ترد سؤالاً ولا تشفى غلته . والاستفهام

فى البيت استفهام إنكارى .

فـإن هـذه الأطـلال أصبحت دمنة مقفرة من الناس وتـبادلت عـليها الـرياح فغيرت من معالمها وبدلت من رسومها فمن الحمق حينئذ سؤالها والوقوف أمامها .

وهـذا الـبيت الذى ذكر تبادل ريح الشمال والجنوب على ديار المحبوبة فغيرت معالمها مثل بيت امرئ القيس:

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها

لما نسجتها من جنوب وشمـال

وفى البيت الثالث يقول:

يقـول : ليـس الآن وقـت ومكان لذكر جبيرة فقد أصبحت رجلا مسنا منشغلا بما هو أهم من ذلك .

وقـد أضـاف الشاعر الطيف إلى **الأهوال في قوله :** بطـائف الأهوال : ليدل على أنه اخترق أهوال الصحراء في زيارته له ، وذلك مثل قول تأبط شرا : "

" **ومر طيف على الأهوال طراق** "

وفي البيتين الرابع والخامس :

يذكـر الشـاعر منازل أهله ومنازل أهلها ليؤكد على تباعد ديارهما : فقد أقام أهله بالغميس وحلت علوية بعيداً عنهم ، وأن علوية ترعى إبلها في الأماكن التي ذكرها لذا فهي مشغولة عنه أيضاً بعملها وكأ بـه يقـول :

فمـا جدوى السؤال والبكاء وما جدوى الذكريات بعد أن باعدت بيننا الحياة وشغل كل منا بمشاغله ؟

وفي البيت السادس :

يؤكـد مرة أخرى على بعد ما بينه وبين صاحبته من

مســافة وتباعد ما بين دياره وديارها : فالفاصل بينه وبين علوية طويــل جــدا تستلزم أن يتحمل فى سبيلها المشقة والآلام فى السفر والوصول إليها .

ثم يستمر الشاعر فى تأكيد بعد المسافة بينه وبين محبوبته وتباعد ديارهمــا : فالمسافة بعيدة تحتاج من المســافر إلى ملئ قربه بالماء حتى نهايتها وربطها بإحكام حتى لا يتسرب شئ منها كما تحتاج إلى سير طيل شاق واستقاء للماء من الأوشال المتناثرة طوال الطريق .

وفى البيت الثامن :

يوضح الشاعر مقدار المشقة والعناء والآلام التى كان يعانيهــا ويتحملها فى سبيل محبوبته : فقد كان فى رحلاته إليها تارة يسير طوال الليل وتارة يسير وقت الهاجرة أثناء الحر فى الظهيرة وكان يسير فى رحلاته إليها على أرض

مختـلفة فمـرة كان يمشى على أرض غليظة وعرة ومرة يمشى على أرض مستوية ممتدة مسافات بعيدة ومرة يمشى على أرض رملية .

ثم يصف فى البيت التاسع :

بئرا مر به أثناء رحلته إلى محبوبته فيقول : إنه بئر تغيـر مـاؤه لونا وطعما ويطفو فوق سطحه بعض الريش الذى يشبه قطع النصال المتناثرة فوق الأرض .

فالشاعر يشبه ريش الطيور المتناثرة حول الماء الذى يـتجمع حولـه لإطفـاء ظمئها من لهيب الصحراء بقطع النصـال المتـناثرة فـوق الأرض وهو تشبيه جميل رائع وبديـع ، مـع أن صـورة تناثر ريش الطير حول مناهل الميـاء فى لأعمـاق الصـحراء أن ورد كـثيراً فى شعر الشعراء القدامى .

وفى البيت العاشر :

يـتذكر الشاعر أيام الذكريات الجميلة التى قضاها مع محبوبـته ويسـتعيد ذكريات ماضيه معها قبل بعدها عنه فيقـول : إذا كـانت قد بعدت المسافة بينى وبين محبوبتى وبعد مزار المحبوبة الآن فلقد كنت فى الأيام الماضية على اتصال بها قريب محبب إليها .

والشـاعر فى بيـته يقسـم عـلى ذلك والقسم تأكيد وتحقيق.

ثم يتحدث فى البيت الحادى عشر :

فيقول : إن محبوبته كانت همه وشغله الشاغل وكانت موضـع اهتمامه ومثار حديثه وكانت تطيعه هو وتعصى من أجله ولى مرها وتضرب بأوامر الأمير عرض الحائط

وما ذلك الا لحبها له وإجلالها إياه دون الآخرين .

وفى البيت الثانى عشر :

يشـبه محبوبـته فى رشاقتها ورقتها وحسنها بالظبية البيضـاء الـتى تقـف تحت أغصان شجر الأراك لتتناول ثمـاره وهـو تشـبيه رائـع جميل ومصيب : حيث يشبه الشـاعر محبوبـته بالظـبية وهى فى وضـع من أجمل أوضـاعها وهى تند عنقها فى ظلال شجر الأراك لترعى ثمـره وهـو منظر رائع من صورة جميلة تجذب العيون للنظر إليها.

ثـم راح يعدد صفات محبوبته مبرزاً جمالها ومفاتنها فـهى : حـرة كـريمة لينة ناعمة بضة الأنامل ذات شعر أسـود جميـل تعنى به وتصففه وتسرحه بالمشط وتجمعه وتضمه وهذا يدل على ترفها واعتنائها بجمالها.

ثم يستمر فى وصف محبوبته وتصوير جمالها قائلا : انهــا تحبــدط ثيابها بالعقود المستديرة وتثبتها فى جانبى وشــاحها وأنهــا تشــبه الغــزالة الطويلة العنق فى رقتها وحسنها وروعة جيدها .

وفى البيت الخامس عشر والسادس عشر :

يصــف الشــاعر صــورة جميلة للخمر ثم يشبه بها محبوبــته : فــإن خمــرا عتيقة من أجود أنواع العنب قد مــزجت بالمــاء وهى خمــر جيــدة مرغوبة باكرت إليها الأقــداح مــبكرة فــتخرج قطــرات نقية تشبه هذا السائل الابيض الصافى الذى يخرج من شجر السيال ....

يصــف الشــاعر عذوبــة ثغر صاحبته علوية وطيب ريقهــا حيث يتخيل ان خمرا معتقة ممزوجة بماء العذب تجــرى بيــن اسنانها الجميلة البيضاء اللامعة الصافية فى

وقـت الصـباح الـباكر وهى بيـن النوم واليقظة أى أن محبوبـته فى هـذا الوقت الذى تتغير فيه أفواه الأخريات فإنها تكون أطيب رائحة وألذ ريقا وأطيب حسنا .

ثـم يختم أبيات هذا الجزء من القصيدة بتوجيه حديثه إلى محبوبـته قائلا : اذهبى فلا سبيل إليك فلقد انتهى عهد الشـباب وأدركنى الشيب والتعقل وشغلتنى شواغل الحياة عن ذكرك .

* * *

(١٨ – ٢٦) " وصف الرحلة والراحلة "

استغرق الأعشى فى وصف رحلته وراحلته ثمانية عشر بيتا حيث انصرف عن غزله وذكرياته إلى الصحراء يصف فيها رحلته وراحلته التى حملته وراح يدقق ويمعن فى وصف راحلته فى إسهاب وإطناب موضحا ما تتميز به من صفات وما تحتويه من سمات ، وقد اكتفينا بتسعة أبيات منها أثبتناها وتعرضنا لها بالشرح والتوضيح .

يصف الشاعر ناقته ويصورها فيقول : إنها ناقة بيضاء صلبة العينين مسرعة نشيطة تميل برأسها نحو راكبها من شدة سرعتها وتشبه الحمار الوحشى فى سرعته.

وأنها من خيار الإبل الكريمة ومن أجود الهجان وأقواها جسما وأنها تتحمل السير السريع وتقدر على

السفر البعيد صلبة قوية العود وترعى فى حمى القبيلة كيف تشاء ولا تحمل كغيرها من النياق حيث يؤثر الحمل في النوق ويضعفها .

ثم يستمر الشاعر فى البيت العشرين فى تصوير قوة هذه الناقة ونشاطها : فإنها ناقة قوية لم تلد ولم ترضع ولم تتعرض للإصابة بالأمراض لذا فإنها قوية نشيطة سريعة لا يعجزها شئ .

هذه الناقة التى هذه صفاتها وأوصافها قد استعنت بها واستخرجت أقصى ماعندها من السير على مشاق السفر فى وقت الحر لأن قوتها وسرعتها ستساعد على الوقاية من شدة الحرارة فى الصحراء والبيت الحادى والعشرون: خبر لقوله : وعسير أى ورب عسير فى البيت الثامن عشر .

والـــبيت الثانى والعشرون وصف للصحراء التى سار فيهـــا بناقـــته : فقـــد ســـرت بناقتى فى صحراء مترامية الأطراف خالية من كل شئ يخاف المسافرون من هلاكهم فيها ولا تجد فيها إلا قطعانا من البقر الوحشى .

وأن هـــذه الـــناقة لسرعتها وشدة سيرها وقوة تحملها تسير على الأرض الغليظة الوعرة المتوقدة من الحر مثلها فى الأرض الســـهلة المهيأة للسير وتسير فيها بسرعة فائقة وتـــندفع فى سيرها وكأن كل قائمة من قوائمها الأربع ناقة كامـــلة ، حيث جعل الشاعر مقياس قوة وسرعة ناقته كقوة وسرعة أربع نياق مجتمعة .

وفى البيت الرابع والعشرين :

يســـتمر فى وصـــف ناقته حيث يقول " إنها عنتريس صلبة قوية متينة البنيان ، سريعة خفيفة فى سرعتها كأنها الحمار الوحشى فى سرعته وحركته الدائبة والمستمرة .

وفى البيت الخامس والعشرين :

يوغل فى وصف الحمار الوحشى الذى شبه به ناقته حيث قال : إنه قد تغير وأضمر من شدة حرارة الصيف وكثرة مصاولته لغيره من حمر الوحش وجفاف المرعى وإشفاقه على إناثه المستوية كأنها قوس من شجر السدر مستقيمة لا عوج فيها .

والبيت السادس والعشرين :

فى وصف ناقته ويجعله توطئة وتمهيدا يدخل به إلى غرضه الأصلى فى هدوء ودون نشاز أو اضطراب فى انتقاله من موضوع إلى موضوع آخر : حيث يقول مخاطبا ناقتة : لا تشتكى إلى أيتها الناقة مما أصابك أو لحق بك من أو صاب وماحل بك من تعب وكلال ولا إعفائك من طول السفر والسير الدائم لأننى لا أستطيع ذلك وإنما الذين يستطيعه هو الممدوح فعنده العلاج وعنده الدواء الشافى ، وهذا حسن تخلص أبدع فيه الأعشى .

(٢٧- ٤٦) مدح الأسود بن المنذر "

راح الأعشى بعد حسن تخلص يمدح ممدوحه فى نحو أربعين بيتا من المعلقة خصصها للمدح حتى نهاية القصيدة مشـيدا به منوها بسجاياه الحميدة وعطاياه العظيمة وأصله العـربى واصفا جيشه وقوته مسجلا بعضا من انتصاراته على الأعداء مختتما القصيدة له بالدعاء .

ففى البيت السابع والعشرين :

يكـرر الشـاعر خطابه لناقته ويطلب منها ألا تشتكى إليـه فليس عنده لها علاج وإنما عليها أن تطلب، ذلك عند الأسود بن المنذر فعنده علاجها وراحتها وطلبها فإنه أهل الجود والكرم وأهل المآثر الطيبة والأفعال الكريمة .

ثم يستمر فى وصف الممدوح قائلا : إن الأسود فرع

قـوى مـتين من أغصان المجد والرفعة وأنه عزيز الجود والكرم قوى البأس شديد المكر والكيد بأعدائه .

وأنـه حكيـم حـازم تميـل نفسه إلى فعل الخيرات والإحسـان وعـلاج الجـروح وإصلاح ما بين الناس من شـقاق وتصدع ويتحمل الأعباء الثقيلة حيث يقصده الناس ليخففها عنهم ، فهو مقصد كل قاصد وأمل كل أمل ورجاء كل مرتجى .

وأن مـن صـفات الأسـود بن المنذر " صلة القرابة والـرحم والإحسان إلى قرابته ومن صفاته كذلك فك رقاب الأسـرى وتحرير رقابهم من الأسر بدفع الديات وأن ذلك كان مشهورا ويعرفه الناس جميعا .

وأنه يبذل نفسه فى ميدان الحروب ولا يبالى بما يصيبه فى غمراتها حرصا على ذكره الطيب وسمعته الحسنة .

وأنه كان كريما جوادا إذا سئل فى الوقت الذى يكون فيه الاعتذار هو عطاء البخلاء من الناس أو فى وقت يكون فيه عطاء الآخرين لا يشفى غلة السائل ولا يشبعه .

وإنه كذلك وفى يجير كل من يحتمى بجواره ولا يتخلى عنه ولا تنقطع حبال العهد التى وصلها بحباله وكل عهد تعهد به لا ينقضه على مر الأيام .

وأنه كريم يرتاح للكرم وينشرح للجود ويصدر منه الكرم عن طبع وسجية ونفس راضية وأنه صاحب عزيمة قوية وإرادة صلبة لا تلين ومحل إجلال وتوقير من الناس لأفعاله الحميدة وأصبح محلا لعجب الناس واعتزازهم وينظرون إليه فى خشوع وسكينة كأنهم يرقبون ظهور الهلال .

وفى البيت الخامس والثلاثين :

يوضـــح الشـــاعر أنه يبلغ المدى فى عقابه وعطائه : فــإن عـــاقب أحداً بلغ النهاية فى عقابه وأهلك وأباد وإذا أعطى أجزل العطاء ولا يبالى ، ثم راح يفصل عطاياه فى الأبيات التالية ......

أنه إذا أعطى فإنه يعطى العطايا الثمينة التى يحرص غيــره عــلى مــنع إعطائها فإنه يعطى إبلا ثمينة ضخمة ومعها أولادها الصغار ، فإنه يجود بها ولا يبالى .

وأنــه يجود أيضا بالجوارى الجميلات المختالات فى ثياب من الحرير المطرزة بالأذيال السابغة الطويلة .

وأنه أيضا فى عطائه يعطى الخيول القوية التى هيئت للقتال محملة بالسلاح .

ويعــطى كذلــك الأشياء الثمينة والنفسية مثل المكايل الكــبيرة والأطــباق الغالية الثمن والنوق الوديعة الضامرة السهلة القيادة .

ويعــطى كذلك الدروع الجيدة الصنع من خير الدروع الأصــيلة ... يعطيها أحمالاً محملة فوق ظهور الجمال ، وجعــل الشــاعر الدروع من نسج داود بحسب أصلها لأن نــبى الله داود هــو أول من صنع هذه الدروع ، أى أنها دروع أصيلة متينة محكمة الصنع .

وبعد أن وصف الشاعر الممدوح بالجود والكرم وعدد عطايــاه وضرب لها أمثالا عديدة ، راح فى البيت الحادى والأربعيــن يصــفه بالشجاعة والقوة والنصر المؤزر على الأعــداء : فقد انتصر الممدوح على قبائل الرباب وهزمهم شر هزيمة .

وأذلهم وأجبرهم على السمع والطاعة بالرغم من قوتها وشدتها ومنعتها ورفضها للهزيمة والإذلال ولكنه هزمهم وأذلهم لقوته وشجاعته وبطولته في ساحات المعارك .

ثم يستمر في وصف شجاعة الممدوح فيقول : إنه قد صب الموت صبا على أعدائه وسقاهم الموت شراباً فمنهم من شرب كأس الموت ومنهم من وقع في الأسر بالرغم من أنهم قوم شجعان ومقاتلون أبطال ورجال معاندون لا يرضون بالهزيمة بل أعداء دائما مطالبون بثأرهم .

وقد تركت الشيوخ وهم مسلوبو المال والعزة بعد هزيمة قومهم كما تركت النساء وهن ذابلات الوجه وشاحبات من شدة الخوف ومرارة الهزيمة وذلك في جانبي أريك ، والبيت يدل على كرم أخلاق الممدوح

ورحمــته بالضــعفاء ، فهو وإن قتل الأبطال الشجعان من أعدائــه إلا أنــه لــم يقتل شيوخهم ونساءهم لضعفهم فهو صاحب المروءة والأخلاق الحسنة .

وفى البيت الرابع والأربعين :

يقــول : إن يــد الممدوح دوما مبسوطة إما بالهلاك والشــقاء لأعدائــه طــوال حيــاتهم وإما بالكرم والعطايا لأحــبائه، فكأنــه هــو الذى يميت ويبقى ويشقى ويسعد ، فشهب الموت وسحب الحياة فى يديه .

وفى البيت الخامس والأربعين :

توكيد لهذا المعنى وصقل له حيث يقول : إن كل من يعــص الممــدوح يتشــح بلباس الذلة والمهانة ويكرع من حيــاض الهــوان أما من يطع الممدوح فقد اعتلى بطاعته

عـــرش العـــلا والرفعة والشرف العميم . أى أن الممدوح يخفض من عصاه ويرفع من أطاعه .

والبيت السادس والأربعين :

امتداد لمعنى البيتين السابقين حيث يقول : إن الهلاك والخســـران والبوار لأعداء الممدوح لأنهم لا يقدرون على عداوته ولا يصلون إلى قوته وسطوته .

مـــن أنصـــاره وأصدقاؤه فإنهم فى مأمن وأمن وأمان لاعتمادهم على الممدوح وعهدهم معه .

وفى الـــبيت الأخير : يدعو الشاعر للمدوح بأن يبقى خـــالدا خلود الجبال لقومه حتى يعلو شأنهم ولأعدائه حتى يذلهـــم ، و هو دعاء لقوم الممدوح بدوام النصر بأن يبقى الممدوح لقومه خالدا فيهم خلود الجبال الراسيات .

نظرات فى القصيدة :

أولا :

نهج الأعشى فى قصيدته نهج الشعراء الجاهليين فى قصائدهم فقد بدأها بسؤال الأطلال والديار الدارسة التى كانت تقيم فيها محبوبته " جبيرة " ثم عاد يسأل نفسه : كيف يسأل هذه الأطلال الصامتة التى لا تجيب جوابا ولا ينفع سؤالها لأنها دمن مقفرة ، ثم راح يتذكر محبوبته ويسرد الذكريات ويروح متغزلا فى محبوبته واصفا جماليا ومصورا حسنيا ومتحدثا عن رحلتها وبعد مابينها وبينه من صحراء مترامية الأطراف واسعة المدى موضحا انها هى الهم والحديث مصورا لها بالظبية فى جمالها وبالخمر فى طيب رائحتها ، ثم انتقل من ذلك إلى وصف رحلته وراحلته التى حملته وسط الصحراء معدداً أوصاف ناقته مركزا على عناصر السرعة والنشاط والقوة وأضفى

عـنيها أوصافا متعددة وأطال الحديث عنها بما يتلائم مع مهمتها فى ايصالها إياه إلى عتبة الممدوح ليجد عنده آماله وما يأمله ويرجوه منه من هبات وعطايا ثمينة .

ثـم يتخلص من وصف رحلته وراحلته تخلصا حسنا الى غرضـه الأصلى : وهو مدح الأسود بن المنذر حيث راح يمدحـه ويشيد بصفاته وسجاياه العظيمة والكثيرة من كرم وجود وشجاعة وقوة ورفعة ومجد ووفاء وعطاء وبر وتـقى وأريحيـة ومـروءة وما حققه من انتصارات على أعدائه .. الخ .

ثـم يختـم القصيدة بالدعاء للممدوح بالخلود وبداوم النصر له ولقومه على أعدائهم .

فالأعشـى نهج فى معلقته نهج القصيدة الجاهلية وحذا هـذا النهج حذو النعل للنعل حيث اكتملت القصيدة من كل العناصر التى عرفت للقصيدة الجاهلية ونهجها المعروف .

ثانيا :

تمثل القصيدة أسلوب الأعشى فى أشعاره ، حيث تمتاز بالجزالة والفخامة والقوة فى الألفاظ والوضوح فى المعانى والأفكار واستخدام بعض الألفاظ الأعجمية فضلا عن أنها - كسائر شعره - غنية بالنغم الموسيقى الذى كان يحرص عليه الأعشى دائما من الملائمة الصوتية بين الألفاظ والمعانى وتحقيق أكبر قدر من التالف بين الشكل والمضمون والألفاظ والمعانى .

ثالثا :

تمثل القصيدة حياة الأعشى وخلاله فهى صورة ناطقة لحياته وصفاته الخلقية وأعماله وأفعاله التى أشتهر بها وعرفت عنه ، كما تمثل القصيدة المحاور الأربعة الأساسية التى يدور حولها شعر الأعشى :

الغـــزل والخمر والناقة والمدح وتعكس الدور الكبير الـــذى قـــام بـــه الأعشى فى تطوير حركة الشعر العربى الجاهلى وجعلته يتبوأ منزلته بين كبار شعراء الجاهلية .

رابعا :

اعتمد الأعشى فى تصوير صوره وإبراز معانيه على دقـــة الوصف والإمعان فيه والتأكيد على الصورة أكثر من مرة وتفصيل المجمل والمبالغة فى الأوصاف التى جاء بها ليصـــور معانيـــه وأفكاره ، فضلا عن أنه جعل من ألوان الـــبلاغة متكئاً كبيراً لتصوير صوره وإبراز معانيه خاصة ألـــوان علم البيان حيث احتوت القصيدة على ألوان بلاغية كـــثيرة زانـــت أبياتـــه وزادتها روعة على روعة وزادتها إشراقا وبهاءً وجمالا :

فـــفى البيت الأول : نجد استفهاماً قد خرج عن معناه

الحقيقى إلى معنى مجازى وهو الإنكار فالاستفهام انكارى.

وفى البيت الثانى :

فى قولـــه : " تعاورها الصيف " استعارة مكنية حيث جعل الصيف وكأنه إنسان حى يروح ويجئ بيح الصبا مرة ويـــريح الشـــمال مـــرة على ديار المحبوبة ، وسر جمال الاستعارة : التشخيص .

وفى البيت الخامس :

إيجـــاز بالحذف فى قوله : ترتعى السفح : أى ترعى إبلها عشب السفح .

وفى البيت السادس :

فى قوله : يخرس السفر " كناية عن اتساع الصحراء

وامـــتداد أطرافها ، وما يعانيه المسافرون من تعب ومشقة فى اختراقها ، فهى كناية عن شدة الإرهاق .

والبيت السابع :

توكيــد لمعنى البيت السابق عليه ، وفى البيت الثامن أســلوب تعــدد واضح ، وبين : ادلاج وتهجير : طباق ، وبين : القف والسبب : طباق ، فهما متضادان .

وفى البيت التاسع :

تشــبيه حيــث شبه ريش الطيور المتناثرة حول الماء الــذى تتجمع حوله لإطفاء ظمئها من حر الصحراء بقطع النصــال المتناثرة فوق الأرض وهو تشبيه تمثيلى مركب لأنه تشبيه صورة بصورة وهيئة بهيئة .

وفى البيت العاشر :

أسلوب قسم فى قوله : فلئن شط بى المزار .

والقسـم للتوكيد ، فضلا عن لام التأكيد و" قد " التى للتحقيق فى قوله : لقد " أغدو "

ثـم نراه يشبهها فى البيت الثانى عشر بظبية بيضاء وهى تمـد عـنقها فى ظلال شجر الأراك لتناول ثماره ، وهـو وضـع من أجمل أوضاع الظبية حيث تكون فيه . وقوله: طفلة الأنامل : كناية عن نعومتها ورقتها .

والسـخام : كـناية عن شعرها الأسود ، والخلالة : كناية عن المشط وذلك فى البيت الثالث عشر .

وفى البيت الرابع عشر :

تشــبيه جميل حيث شبهها بالغزال فى رقتها وجمالها وطــول جيدها وقد آثر الشاعر الظبية الأم لأنها حين ترفع رأســها لتطمئن على ولدها يظهر جيدها الطويل فى أجمل أوضاعه .

وقولــه : والســموط عاكفة السلك بعطف وشاحها : كناية عن ترفها ونعيمها .

ثــم راح الشــاعر فى البيتين الخامس عشر والسادس عشر :

يرســم صورة رائعة للخمر ثم يشبه بها محبوبته فى عذوبــة ريقهــا وطيب رائحتها وبياض وصفاء أسنانها . وعــبر بقولــه : فى سنة النوم لأنه الوقت الذى تتغير فيه

رائحـــة الأفواه ، أى أن محبوبته حتى فى هذا الوقت تكون رائحتها أشد طيبا وأعذب فاها ، وجعل الماء الذى مزجت بـــه الخمر ماء زلالا أى عذباً وجعل الخمر عتيقة أى أنها أجود الخمر حتى يؤكد المعنى الذى يقصده .

وفى قوله : باكرتها الأغراب : أى حاملوها ففى ذلك إيجاز بالحذف أى باكر إليها حاملوا الأغراب .

أو عـــلى ســـبيل الاســـتعارة حيث جعل الإغراب أى الأقـــداح هى الـــتى باكـــرتها ، فشبها بالساقى على سبيل الاستعارة المكنية .

وقوله : أدركنى الحلم : كناية عن الرزانة والتعقل .

وفى البيت الثامن عشر :

أسلوب تعدد ، حيث راح يعدد أوصاف ناقته : فهى :

عسير ، أدماء ، حادة العين خنوف ، عيرانة شملال .

وقولـــه حادرة العين : كناية عن صلابة عينيها وقوة إبصارها وشدة نظرها .

وقولـــه : عيرانة : أى تشبه الحمار الوحشى فى خفته وسرعته أو تشبيه الجمال فى قوتها وسرعتها .

والـــبيت التاسع عشر : كناية عن أن ناقته كريمة من خيار الإبل ، فى أفضل الإبل صلبة قوية ترعى فى أرض محمية لم تحمل ولم تلد .

والـــبيت العشـــرون : كـــناية عن قوة ناقته ونشاطها وصـــحتها ، فهى لم ترضع ولدا ولم تصب بأى مرض من الأمراض التى تصيب أمثالها .

وقولـــه : نكظ الميظ " فى البيت الحادى والعشرين :

كناية عن طول المسافة .

وقوله: لامعات الآل : كناية عن أطياف السراب .

والبيت الثالث والعشرون : كناية عن شدة سرعتها ، وجعل الشاعر قوائم الناقة الأربعة بمثابة أربع نياق للمبالغة فى سرعتها .

ثم يشبه ناقته بالحمار الوحشى فى البيت الرابع والعشرين فى سرعته وخفته ونشاطه وسرعة تحركه .

ثم يشبه فى البيت الخامس والعشرين الحمار الوحشى بالقوس المتخذة من شجر السدر فى الاستقامة والمتانة .

وفى البيتين : السادس والعشرين والسابع والعشرين :

يخـــاطب الأعشى ناقته على سبيل الاستعارة المكنية وكأنها إنسان يعقل وذلك للتشخيص .

وفى البيت الثامن والعشرين : فى قوله :

فـــرع نبع : كناية عن عراقة أصله ، ثم يجعل المجد شـــجرة عاليـــة عـــلى سبيل الاستعارة المكنية . ثم يجعل الممدوح فرعا من فروع شجرة المجد .

يهـــتز فى غصن المجد : كناية عن رفعة قومه وعلو شأنهم . وغزير الندى : كناية عن شدة الكرم .

وشديد المحال : كناية عن شدة البأس والقوة والحنكة.

وقولـــه : وحمـــل لمضـــلع الأثقال : كناية عن تحمله الشدائد والغرامات عن الناس .

وهوان النفس العزيزة : كناية عن البذل والتضحية .

وفك الأسرى من الأغلال : كناية عن تحمله ديات الأسرى لتحريرهم من الأسر.

إذا التقت صدور العوالى : كناية عن الحرب .

وقوله : فما غرت حبال وصلتها بحبال : كناية عن تمسكه بالعهد الذى يقطعه على نفسه .

ثم يشبه قيام الناس أمامه ووقوفهم بين يديه فى خشوع وصمت بقيامهم للهلال يرقبون ظهوره ، حيث جعله هلالا ينظرون إليه من أسفل وهو واقع فى السماء . .

وبين يعاقب ويعطى فى البيت الخامس والثلاثين : طباق ، فهما متضادان .

ثم يشبه الإبل الضخمة بالبستان فى البيت السادس والثلاثين فى الضخامة والعلو والمتانة .

ثـم يشـبه جياده بقضيب متينة مستقيمة بجامع القوة والمتانة في كل في البيت الثامن والثلاثين.

وقولـه في نفس البيت :

تعدو بشكة الأبطال : كناية عن أنها مهيأة للقتال .

وقوله في البيت التاسع والثلاثين :

والضـامرات تحت الرحال : كناية عن الإبل المحملة بالأحمـال . وفي الـرحال مجاز مرسل علاقته المحلية أو المجاورة .

والبيت الأربعين : مبالغة في الكرم والجود .

وقولـه : هو دان الرباب إذكرهوا الدين : كناية عن أنه أذلهم وأخضعهم .

وبين : دأن والدين : جناس ، حيث اتفقا في اللفظ واختلفا في المعنى .

وقوله : رب رفد هرقته : كناية عن الموت فهراقة الرفد : كناية عن الموت . ثم يشبه النساء بالسعالي في البيت الثالث والأربعين في ذبول الأجسام وظهور قوة الأيام ومرارة الأزمان على وجوههن .

وفي البيت الرابع والأربعين : مقابلة حيث يسعد أصدقاءه ويشقى أعداءه .

وقوله : سقاهم بسجال : كناية عن كثرة العطايا التي تحقق السعادة . وقوله : رب حي : أي أهل حي .

وقولأه : وكعب الذي يعطيك عالي " : كناية عن الرفعة ، وبين عصاك ويعطيك : طباق فهما متضادان أو

مقابلة : أى يخفض من عصاه ويرفع من أطاعه ...

وقولــــه : للعدا عندك البوار " : أسلوب قر طريقه الـتقديم أى الـبوار لـلعدا ، والقصر للحصر والتوكيد . ويوجـد فى الـبيت مقابلة : أى الخسران والهلاك للأعداء والربح والأمان والنصرة للأولياء والأنصار .

وقولــه :لـم يعر عقده باغتيال ، كناية عن الأمان والوفاء بالعهد .

وخـاطب الأعشى ممدوحه فى البيت الأخير بأسلوب الجمـع : كذلكـم للـتعظيم والتوقير والإجلال . والجملة دعائية .

" من لامية العرب "

" للشنفرى الأزدى "

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم

فإنى إلى أهل سواكم لأميل (١)

فقد حمت الحاجات والليل مقمر

وشدت لطياتى مطايا وأرحل (٢)

( ) أقام صدر مطيته : أى سار وارتحل وانصرف إلى مكان آخر .
وأقيموا صدور مطيكم : أرحلوا وسيروا واصرفوها عنى .
والمطى والمطايا : جمع مطية وهى الناقة .
(٢) حمت : قدرت وحددت .
والليل مقمر : أى والأمر واضح وضوح القمر فى الليل .
شدت : تجهزت وتهيأت واستعدت للرحيل .
الطيات : جمع طية : وهى الحاجة أو الجهة المقصودة .
المطايا : جمع : مطية وهى الناقة أو البعير .
الأرحـــل : جمع رحل وهو ما يوضع على ظهر البعير أو الناقة . ومثله :
الكور : وجمعه أكوار ، والأكوار : جماعة الإبل .

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى

وفيها لمن خاف القلى متعزل [٣]

لعمك ما بالأرض ضيق على امرئ

سرى راغبا وراهبا وهو يعقل [٤]

---

(٣)المنأى : المكان البعيد . ومثله : المنتأى ومنه : نأت : بعدت ، والناى : البعد ومثله : البين ، بانت : بمعنى : بعدت .

القلى : الهجر والفراق المتعمد ومن معانيه : البغض والكراهية.

المتعزل : مكان الاعتزال أو الاعتزال نفسه ، فيكون اسم مكان على الأول ومصدرا ميميا على الثانى .

(٤) العمــر والعمر والعمر : الحياة والوجود والبقاء وزمن الحياة ، وشاع عــن العرب استعمال الوزن الأول فى القسم لخفته ، وجاء ذلك فى القرآن الكريم : " لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون " أى وحياتك يا محمد وفيه من التعظيم ما فيه . سرى : سار فى أول الليل . وأسرى : أى سار فى آخره ، وقــد يطــلق كل منهما على مطلق السير ليلا . قال تعالى : " سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله" الآية .

ولى دونكم أهلون سيد عملس

وأرقط زهلول وعرفاء جيـــأل (٥)

هم الرهط لا مستودع السر شائع

لديهم ولا الجانى بما جر يخذل (٦)

---

(٥) دون الشـــيئ : تحته أو قربه أو غيره والمراد هنا : غيركم . أهلون : مـــلحق بجمع المذكر السالم وهو جمع : أهل . السيد : الذئب . وعند قبيلة هذيـــل يعـــنى : الأسد . العملس : القوى الشديد فى السير والسريـــــع فى المشى .الأرقط : النمر ذو الجلد المخطط . الزهلول : الناعم الملمس.

العرفاء : الضبع . جيأل : اسم معرفة للعرفاء .

(٦) الرهط : القوم والعشيرة ، شائع : منتشر ومشهور .

لديهم : عندهم . الجانى : المذنب الذى ارتكب ذنبا .

جر : أذنب . والجريرة : الذنب . يخذل : لا ينصر ولا يعان .

والمخـــذول : مـــن لا ينصـــر ولا يعنان . والمخذول : اسم مفعول واسم الفاعل. خاذل على وزن : فاعل .

وكل أبى باسل غير أنننــــى

إذا عرضت أولى الطرائد أبســـل [٧]

وإن مدت الأيدى إلى الزاد لم أكن

بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل [٨]

وماذاك إلا بسطة عن تفضل

عليهم وكان الأفضل المتفضـــل [٩]

---

(٧) أبى : حمى شديد الأنف يأبى الضيم ويرفض الذلة والمهانة .. باسل : شجاع قوى ثابت جرىء لا يخاف ولا يجبن . عرضت : ظهرت وبانت ورؤيت وأبصرت.

الطرائد : جمع طريدة وهى الكتيبة التى تطارد غيرها أو غيرها يطاردها فعـــلى الأول : بمعنى : طاردة وعلى الثانى بمعنى : مطرودة ، أى هاجمة أو مهجوم عليها . أبسل : أظهر الشجاعة والقوة

(٨) الجشع : شـــدة الحرص وزيادة الطمع وعنف النهم ، وهو صفة ذميمة تنافى العفة . أعجل : أى أعجلهم بمديده للطعام .

(٩) البســـطة : السعة وزيادة الكرم .التفضل : الفضل والإحسان دون سبب مقابل .

وإنى كفانى فقد من ليس جازيا

بحسنى ولا فى قربــه متعلل (١٠)

ثلاثة أصحاب : فؤاد مشيع

وأبيض إصليت وصفراء عيطل (١١)

---

(١٠) الحســنى : مؤنــث الأحسن . والجزاء بالحسنى مذموم عند الصعاليك ويرون الشجاعة : فى مقابلة الإساءة بأشد منها .

التعلل : الاكتفاء بالشئ أو التلهى به والشجاع : من لا يتعلل بشئ ولا يكتفى إلا بالقضاء على عدوه .

(١١) الفؤاد : القلب ، وقيل : وسطه وقيل : غشاؤه والقلب سويداؤه . مشيع ثابت قوى مطمئن كأنه فى حصن من شيعته وأنصاره . والأبيض : السيف .

والأصليت : السيف الذى يرفع من غمده .أصلت سيفه : رفعه من غمده .

الصــفراء : القــوس المصــنوعة مــن شجر قوى ينبت فى أعالى الجبال ويسمى: النبع . العيطل : المتينة القوية بنفسها .

هتوف من الملس الحسان يزينها

رصائع قد نيطت عليها ومحمل[١٢]

إذا زل عنها السهم حنت كأنها

مرزأة ثكلى ترن وتعول [١٣]

---

(١٢) هتوف : صيغة مبالغة من الفعل : هتف أى ذات صوت أى مصوته .
وهتوف : خبر لمبتدأ محذوف أى قوس هتوف على وزن : فعول .
الملس : جمع ملساء : أى ناعمة خالية من الخشونة .
الرصائع : جمع : رصيعة وهى الحلق من ذهب وغيره يتزين بها .
نيطت :علقت : المحمل : ما تحمل به القوس .

(١٣) زل عنها السهم : خرج من القوس . حنت : أحدثت صوتا يشبه الحنين أى : صوت وترها . والمرزأة : المصابة بألارزاء والمصائب الكثيرة .
الثكلى : التى فقدت زوجها أو أباها أو ابنها الوحيد . ترن : تحدث صوتا رفيعا يشبه الرنين فى رقته .
تعول: تبكى بصوت مرتفع .الرنين :الرقيق و العويل : الصوت المرتفع والبكاء بصوت عال ..

فإما ترينى كابنة الرمل ضاحياً

على رقبة أحفـــى ولا انتعل [١٤]

فإنى لمولى الصبر أجتاب بزه

على مثل قلب السمع والحزم أفعل[١٥]

---

(١٤) ابـــنة الـــرمل : الحية أو الريح . ضاحيا : بارزا . رقبة : أى رقـــة حـــالى . ويـــروى : عـى رقة : أى رقة حالى وفقرى . لا أنتعل : لا ألبس نعلا . أحفى : أمشى حافيا بلا نعل .

(١٥) مولى الصبر : وليه وصاحبه والملتزم به فى كل أموره .

أجتاب : أقطع . جاب الطريق : قطعه .

بزه : ثوبه ، ويعنى الشاعر بقوله : اجتاب بزه : أجوب فبه وأتصرف فيه كما أريد وهو كناية عن سيطرة الشاعر على الصبر واحتوائه .

السمع : ولد الذئب من الضبع . الحزم : ضبط الشخص أموره بثقة واتزان وحكمه .

وأعدم أحيانا وأغنى وإنمـــا

ينال الغنى ذو البعدة المتبذل [١٦]

فلا جـــزع لخلة متكشف

ولا مرح تحت الغنى أتخيل [١٧]

ولا تزدهى الأجهال حلمى ولا أرى

سؤلاً بأعقاب الأحاديث أنمل[١٨]

---

(١٦) العدم والعدم والإعدام : الفقر . أحيانا : أوقاتا . الغنى ضد الفقر وهو الاكتفاء وعدم الاحتياج . البعدة : اسم للبعد .

والمبتذل : الذى لا يصون نفسه بل يهينها فى جمع المال دون كلل أو ملل .

(١٧) الجزع : ضد الصبر . وهو التأثر وإظهار الحزن والترنح عند الشر . الخـــلة : الفقر والحاجة والعوز . المتكشف : هو الذى يكشف حاله ويظهر فقـــره للـــناس ويشكو عوزه . المرح : شدة الفرح والنشاط .أتخيل : أتكبر وأختال كبراً وبطراً .

(١٨) تـــزدهى : تستخف . الأجهال : جمع : جهل وهو من الشواذ والقياس أجهـــل وجهول . الحلم : العقل . والأعقاب : الأواخر ، وأنمل : أنم وأفسد بيـــن الـــناس بالنميمة ، والأنمل : النمام ، ويقال فلان نملة إذا كان ينم بين الناس.

وليلة نحس يصطلى القوس ربها

وأقطعه اللائى بها يتنبـــــل (١٩)

دعست على بغش وغطش وصحبتى

سعار وإرزيز ووجر وأفكل (٢٠)

---

(١٩) النحس : الشقاء وهو ضد السعد ويقصد الشاعر : ليلة شديدة البرد .

يصطلى : يقاسى شدة حر النار ، ويريد نار القوس .

ربها : صاحبها ومالكها رب كل شيء مالكه ومليكه .

الأقطع : جمع قطع وهو : النصل الصغير أو السهم القصير . يتنبل : يختار نباله الصالحة للرمى .

(٢٠) دعست : دست ووطئت وطعنت .

البغش : المطر الخفيف .

والغطش : الظلمة ، قال تعالى : " **وأغطش ليلها** " .

والسعار : حر شديد فى الجوف ينشأ من شدة الجوع والعطش .

والأرزيز: البرد الشديد .

والوجر : الخوف الشديد .

الأفكل : الرعدة .

فأيمت نسوانا وأيتمـــت إلدة

وعدت كما أبدأت والليلُ أليل(٢١)

فأصبح عنى بالغميصاء جالساً

فريقان : مسئول وآخر يسأل (٢٢)

فقالوا : لقد هرت بليل كلابنا

فقلت :أذئب عس أم عس فرعل (٢٣)

(٢١) أيمت : نسوانا : جعلت كلا منهن أيما أى : قتل أزواجهن .
ايتمت الدة : اى جعلت الأولاد يتامى بعد قتل آبائهم . والإلدة : الأولاد .
كما أبدأت : أى كما ابتدأت . والليل أليل : أى شديد الظلمة .

(٢٢) الغميصاء : مكان بأرض نجد . والجلس : اسم لنجد .

(٢٣) هــرت كلابــنا : صــوتت . وهرير الكلب: صوته الذى دون النباح ويحدثــه عــند شدة البرد . عس : طاف بالليل . والفرعل : ولد الضبع . والأنثى : فرعلة والجمع : فراعل وفراعيل وفراعلة .

فلم يك إلا نبـــأة ثم هومت

فقلنا: قطاة ريع أم ريع أجدل[٢٤]

فإن يك من جن لأبرح طارقا

وإن يك إنسا ماكها الإنس يفعل [٢٥]

---

(٢٤) النبأة : الصوت الواحد . هو مت : نامت وسكنت بعد ذلك الصوت .
القطا : طائر معروف ونبأة : اسم مرة على وزن فعلة.
ريع : فزع . الأجدل : الصقر .

(٢٥) لأبرح طارقا : أى والله لأبرح طارقا ، جواب قسم محذوف .
ومن في قولـه : "من جن : زائدة دخلت على خبر "يك" وجواب القسم أغنى عن جواب الشرط . وقوله . ماكها الإنس يفعل : جواب الشرط الثانى وحذفت فاء الجواب شذوذا والأصل : فماكها الإنس يفعل .
ومعنى لأبرح طارقا : أى لظل يأتى دائما طارقا لأبوابهم بالشر .

تعريف بالشاعر :

هو شاعر من الشعراء الصعاليك [١] ويختلف الرواة والباحثون فى أسمه ونسبه ولقبه ، ولقد قيل : إن اسمه شمس بن مالك وقيل : عمرو بن مالك الأزدى اليمنى .

ويرى المبرد : أنه ابن الأوس بن الحجر بن الهنو ابن الأزد ، والشنفرى [٢] لقب أطلق عليه ، وهو أحد أغربة العرب وكان أبوه فى موضع من أهله ولكنه كان فقيرا وأمه كانت سبية ، وهناك خلاف كبير بن الباحثين والرواة فى ذلك : هل كانت أمه سبية أم حرة ؟ أم من دم مختلط ؟

نشأ الشنفرى فى قبيلة الأزد اليمنية كما ينشأ أبناء الإماء تحت وطأة العنصرية الجاهلية من أب عربى لم يعترف به ثم انتقل إلى قبيلة فهم جنوبى مكة وهى قبيلة مشهورة

---

(١) الصعلكة : هى الفقر ، والصعاليك : الفقراء ، ولقب به جماعة الشعراء الذين احترفوا السلب والنهب والطعن والضرب والغارات الوحشية.

(٢) الشنفرى : معناه : الأسد أو الجمل الكثير الشعر ، أو الرجل الغليظ الشفتين .

بكثرة لصوصها واتصل بتأبط شرا أحد كبار الصعاليك، فلقنه دروس الصعلكة حتى فارق أستاذه تأبط شرا.

انطلق الشنفرى مع صعاليك العرب يجوب الصحراء ويثير فيها الرعب والفزع والقتل والإغارة والسلب والنهب وقطع طرق التجارة ، ورأى الشنفرى فرصة الانتقام من قبيلته الأزد قد سنحت له فصب عليها نار غيظه وكل غاراته ، فكان يغير عليهم على رجليه فيمن معه من فهم وكان يغير عليهم وحده أكثر ذلك " ويقتل الشنفرى منهم تسعة وتسعين ثم يتربص به أعداؤه ويقتلونه بعد الاحتيال عليه بمساعدة أحد عدائيهم المشهورين (أسد بن جابر) وفصلوا رأسه عن جسده وألقوا به في الصحراء ، ثم يمر رجل به وهو ميت فيضرب رأسه بقدمه فتدخل شظية في رجله فيموت ويتم القتلى مائة وكان قد حلف ألا يتركهم دون أن يقتل منهم مائة فتم له ما أراد .

هذا وقد مات الشنفرى عام ٥١٠ م .

شعره :

وشعره الذى وصل إلينا قليل ويبدو أن أكثره قد ضاع مثلما ضاع معظم شعر شعراء العصر الجاهلى حيث لم يصلنا منه إلا القليل ، ويدور الجزء الأكبر من شعره حول هذا الصراع الذى دار بينه وبين بنى سلامان والجزء الباقى حول تصعلكه وفقره وتشرده وغاراته وتمرده على المجتمع الذى انفصل عنه منذ وقت مبكر من حياته .

ويصور شعره حياته منذ طفولته وأخص ما يميز أسلوبه تلك الخشونة اللفظية التى تمثل اللغة البدوية الجاهلية أتم تمثيل فضلا عن الصلابة التعبيرية التى تجعل أسلوبه محكما قوياً لا رخاوة فيه انعكاساً لقوة شخصيته وقسوة الحياة التى كان يحياها الشاعر وفضلا

عن صدق التعبير والصراحة المطلقة فى النقل عن الحياة التى كان يحياها ويعيش فيها .

ومن أروع ما نسب إليه لاميته المشهورة المعروفة بلامية العرب (وإن كان كثير من الباحثين يشككون فى نسبتها إليه) ، وقد وجهها الشاعر إلى قومه متبرما بهم متبرئا منهم لأنهم لم ينصروه وحقروه عندما تركوه أسيرا فى يد بنى شبابة ثم عبداً عند بنى سلامان وأنهم خذلوه ولم يثأروا لأبيه .

وتحتل تائيته (المفضلية) " ألا أم عمرو أزمعت فاستقلت " المرتبة الثانية بعد لامية العرب ، حيث رسم الشاعر لزوجته الحيية المثالية صورة رائعة ونادرة فى الشعر الجاهلى لا نكاد نجد لها مثيلا .

شرح الأبيات :

(١ - ٥) :

يخاطب الشاعر أهله قائلا : (اصرفوا عنى مطاياكم وارحلوا من هذا المكان إلى مكان آخر فقد انفصلت بينى وبينكم المودة وتقطع بينى وبينكم حبل الوصال والعلاقات ومـــال قلبى إلى أهل غيركم ، فقد تحددت العلاقات بيننا وظهر مقدار حاجتنا بعضنا لبعض ، وقد عزمت أنا على الــرحيل عنكم ، وهذه الأرض واسعة يجد فيها الكريم ما يصـــونه مـــن الذل والمهانة كما يجد فيها الشخص الذى يخشـــى الهجر والقطيعة مكانا رحباً يعتزل فيه عن هؤلاء الذيـــن يـــريدون هجره وقطيعته فعلى الحر الأبى الذى لا يقبل الضيم أن يرحل من مكان الذل والقطيعة إلى أرض أخـــرى ، وإن الأرض واسعة لا تضيق على أحد وآفاقها

رحبة تقبل كل من يلجأ إليها عن رغبة أو عن رهبة وأن الإنسان العاقل حقا هو الذى لا يقيم على الإهانة بأى حال من الأحوال ، وإننى استبدلتكم بأهل آخرين لا يشبهونكم ولكنهم أناس أبطال شجعان يشبهون الأسود والذئاب والنمور والضباع (ويعنى الشاعر بهؤلاء إخوانه من الصعاليك) .

(٦- ٩) :

ثم يتحدث الشاعر عن صفات الأهل الآخرين (الصعاليك) فيقول : إنهم الأهل حقاً حيث المناصرة والوفاء لبعضهم ، ويكتمون أسرارهم ولا يفضحون أحدا منهم متحدون كل الاتحاد متضامنون كل التضامن فيما بينهم ولا يخذلون أحداً منهم بل يناصرونه ويعينونه ضد أعدائهم ، وإن هؤلاء الإخوة من الصعاليك شجعان بواسل

ولكنـــنى أتفـــوق عليهم شجاعة وبطولة وأقودهم لمحاربة الأعداء هجوما ودفاعاً " .

(يصــــف الشاعر نفسه ويفتخر بأنه أشجع الشجعان وأبسل البواسل) .

ثم يفتخر الشاعر – بعد الفخر بالشجاعة والفروسية) يفتخر بأنه عفيف النفس غير دنيئ لا يكون أول المتقدمين إلى الطعـــام حينما يعد بل يضبط نفسه ويبتعد بها عن كل نقيصـــة (أى أنه المتقدم فى الحروب ومواطن الشجاعة المتأخر عند الحاجة والطعام) .

ثـــم يـــنفى عن نفسه شبهة تأخير يده عن الطعام ذلا وإهانـــة فيقول : وإننى أتأخر عن مد اليد إلى الطعام عفة وتكرما وفضلا لا عجزاً ولا ضعفاً .

(١٠ - ١٣) :

وإنــه يكفينى فقد الأبطال الشجعان الأباة : أصدقائى الـثلاث الذيـن يغنوننى عن الأهل والأعوان وهم : قلبى القــوى الثابت وسيفى المستعد دائما للقتال وقوسى المتينة القويـة بنفســها ، أى أنه ليس فى حاجة إلى من يعينه . ويدافــع عنه بل هو وحده يستطيع الدفاع عن نفسه وسط مآسى الحياة .

ثم يصف الشاعر قوسه بأنها تخرج بعض الأصوات أثـناء خروج السهم منها وأنها ناعمة خالية من الخشونة ومزيـنة بالجواهر والحلى ــ وأنها إذا خرج السهم منها أحدثــت صــوتا يشــبه صــوت المرأة التى كثرت عليها المصــائب وصــبت عــليها الرزايا فتصوت أولا بصوت مرتفع ثم تضعف شيئا فشيئاً من كثرة الصوت والبكاء .

(١٤ – ١٨) :

ثم يتحدث الشاعر عن نفسه وهمومه التى يحاول الفكاك منها فتحيط به من كل ناحية فيقول : إذا كنت ترانى أيها المخاطب بارزا كالحية أو كالريح مع رقة حالى وفقرى ، فإننى أيضا رجل الصبر وصاحبه والملتزم به دائما وأتصرف فيه كما أريد بقلب ثابت كقلب السمع فى القوة والثبات ودائما يكون تصرفى بكل حزم .

وأننى أحيانا يصيبنى الفقر وأحيانا أخرى ينالنى الغنى وأن الغنى ينال الشخص الذى يكد ويتعب ولا يصون نفسه بل يهينها فى جمع المال دون كلل أو ملل .

وإذا كان الفقر والغني يتعاوران على فإننى مع ذلك لا أتأثر بذلك ، لأننى أقوى من أن أهتز للفقر أو أتأثر من أجل الفاقة أو أن أفرح للغنى وأختال بطراً وكبراً لوجود

المـــال ، فالفقـــر والغـــنى سيان عندى لا أجزع لذلك ولا أفرح لذلك .

ثـــم يضـــيف الشـــاعر إلى نفسه صفة حميدة أخرى فيقول :

لا تســـتخف الأجهـــال عقـــلى وأتـــرفع عن النميمة والوقيعـــة بيـــن الـــناس ، يصف نفسه بالرزانة والاتزان والـــبعد عـــن النميمة والإفساد بين الناس ، وهى صفات حميدة ومناقب طيبة ، دعا إليها الإسلام ورفع قدرها وهى من أخلاق العرب التى أحبوها وأجمعوا عليها .

(١٩- ٢٥) :

ثـــم يـــتحدث الشاعر عن ناحية أخرى من شجاعته وبطولـــته حديـــثا قصصـــيا يكون قصة قصيرة يضمنها

قصيدته ، قائلا :

إنـــنى وسط ليلة شديدة البرد بلغ من شدتها أن انقلب الليل إلى نحس شديد ، خرجت وأنا فى ظل هذه الظروف القاســية غيــر عابئ بهذا الجو وغير حافل بهذه الظلمة وغير مهتم بشدة الجوع الذى أحر جوفى نيرانه فى إحدى غاراتى الليلية ، فأحدثت أحداثا جسيمة وأعملت سيفى فى رقـــاب الآمـــنين واستلال أرواح النائمين وتركت ورائى نســاء أيمات وأولاداً يتامى وعدت ثانيا إلى مكانى والليل شــديد الظــلام ومع الغنيمة والسلب دون خوف من شيئ (أى أن الشاعر بطل شجاع فارس مقدام لا يعبأ بشئ ولا يحفل به).

وبعد هذا الهجوم الخاطف وما تركه الشاعر من آثار لهذا الهجوم بأرض الغميصاء أنقسم الناس إلى فريقين :

مسئول عنه وسائل عن أخباره وذلك من شدة ما خلفه الشاعر من أعمال أثناء غارته عليهم ، وأننى لما هجمت عليهم هرتنى كلابهم فراح بعضهم يسأل بعضا : هل طاف بنا بالليل ذئب أم فرعل ؟ أى أنهم حسبوه ذئبا أو فرعلاً ولم يعرفوه .

ثم يقول :

إن الكلاب نامت بعد صياحها فتوهم الناس أن قطاة ريعت أو أن صقرا ريع فأحدث ذلك الصوت .

وراح الناس يتحدثون عن ما فاعله وقالوا : إذا كان الفاعل جنا فإنه سيعاود الكرة وسيظل طارقاً لأبوابهم وإذا كان الفاعل من الإنس فإن الفعل الذى فعل أعظم من أن يفعله الإنس (أى أن الفاعل غير إنس فى نظرهم) .

* * *

القصيدة فى ميزان النقد :

١- لقد نهج الشاعر فى قصيدته نهجاً مخالفاً لما عليه نهج القصيدة الجاهلية من الوقوف على الأطلال وبكاء الديار والتغزل بالمحبوبة ... الخ ولكنه بدأها بخطاب قومه موجيا بها إلى صدورهم معلنا تبرمه عليهم ثم جاء بأبيات من الحكمة المناسبة للمقام حيث طلب من كل حر الابتعاد عن مواطن الذلة والمهانة وطالب كل كريم بأن يهاجر إلى موطن آخر غير موطن الخنوع والخضوع فإن الأرض واسعة لا تضيق على إنسان ، ثم أعلن أهله بأنه اتخذ أهلا غيرهم يخالفونهم : فهم أبطال اشاوس ، ثم راح يفخر بنفسه ويضفى عليها من صفات الشجاعة والعفة والصبر والاتزان والحزم والرجولة وما إلى ذلك من صفات ، ثم راح يتحدث عن حالته النفسية وهمومه وأحواله ثم يقدم لنا نموذجاً قصصيا يدل على

شجاعته وقوته يختم به القصيدة .

فالقصيدة فى نهجها مشتقة من حياة الشاعر ونفسيته وموقف أهله معه وخالفت نهج القصيدة الجاهلية وجاءت على نهج غير مألوف فى عصره .

٢- جاءت ألفاظ القصيدة وعباراتها وتراكيبها ملائمة لألفاظ الشعر الجاهلى :من القوة والفحولة والجزالة والخشونة والوعورة فهى ألفاظ موغلة فى جاهليتها بعيدة فى صحراويتها ، وأسلوبها قوى متين جزل ذو نسيج قوى ومعانيها واضحة جالية بعيدة عن الغموض والخفاء والمبالغة والغلو .

٣- تصور القصيدة حياة العرب فى الجاهلية خاصة حياة الصعاليك الذى يعد الشاعر واحداً منهم وعاش حياته كلها معهم يفعل ما يفعلونه ويتصف بكل ما يتصفون به

من صفات ، وقد انتزع خيالها من وحى حياتهم التى عاشوها فى ربوع الصحراء .

وتصور الأبيات حياة الشنفرى : من تبرم وبؤس وفقر .... الخ.

وهى بحق قطعة من حياة الشاعر وصورة صادقة لطباعه وأخلاقه وتسجيل واقعى لعاداته وطباعه وأيامه .

٤- جاءت القصيدة مشتملة على أقصوصة شعرية فى اخرها تثبت ان الشعر الجاهلى لم يكن خاليا من ذلك اللون القصصى .

٥- استمد الشاعر صوره وخياله من حياة الجاهلية وبيئتها وصورها واعتمد فى تصويره وصوره على ألوان البيان .

ومـن صـور البلاغة فى الأبيات : تشبيه إخوانه الصعاليك بالحيوانات المفترسة المعروفة فى الصحراء فى البيت الخامس .

وفى البيت الثامن : كناية عن العفة فى قوله : وإن مدت الأيدى إلى الزاد لم أكن بأعجلهم " ثم يجعل قلبه وسيفه وقوسه أصحابه على سبيل الاستعارة المكنية .

ثم يشبه صوت القوس إذا خُرج عنها السهم بصوت المرأة المرزأة التى ترن وتعول فى البيت الثالث عشر وهو تشبيه مصيب كل الإصابة .

ونرى الكناية عن موصوف فى البيت الرابع عشر حيث يكنى عن الحية أو الريح بقوله : ابنة الرمل "

وقوله : " إنى لمولى الصبر " كناية عن الالتزام به.

ثم يشبه قلبه بقلب السمع فى القوة والثبات فى البيت الخامس عشر .

وفى البيت السادس عشر طباق بين : أعدم وأغنى فهما متضادان .

وفى البيت السابع عشر :

مقابلة بين : الجزع للفقر والفرح للغنى . والبيت كناية عن عدم التأثر بالحوادث .

وفى البيت الثامن عشر :

كناية عن الاتزان والرزانة وكناية عن نفى النميمة عنه.

٦- وقد اشتهرت هذه القصيدة " لامية العرب " منذ القدم وأشاد بها الشراح المحللون واعترفوا بمكانتها

ورفعـتها كما اعترفوا لها بتلك التسمية (لامية العرب) الـتى أصبحت ثمة ملازمة لها بحيث لو أطلق عذا الاسم لعرفت أنها هى .

ويـروى فى حديـث نسب إلى النبى صلى الله عليه وسـلم : " عـلموا أولادكم لامية العرب فإن فيها القناعة والشجاعة " .

وأغـلب الظـن أن الحديث غير صحيح ولم تعرف القصيدة بلامية العرب إلا بعد زمن طويل من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .

ولقد سميت هذه القصيدة بلامية العرب لأنها تشتمل على الأخـلاق العربية وتتحدث عن البطولة التى عرفها العرب فى الجاهلية وسجلت ألوان الحياة ومظاهر البيئة العربية واشتملت على العادات والتقاليد والأخلاق العربية التى سادت حينئذ .

وتقابل هذه اللامية فى العرف الأدبى لامية العجم التى أنشأها "الطغرائى " والتى تبدأ بقوله :

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل

وحلية الفضل زانتنى لدى العطل

وتحتل لامية العرب للشنفرى منزلة عالية تزاحم منزلة المعلقات وأخذت حيزاً كبيراً من الشهرة وعناية العلماء والأدباء والنقاد ولم ترتكز فى شهرتها على مرتكز دينى أو سياسى بل ارتكزت فى شهرتها على ما فيها من جودة الشاعرية وبراعة التعبير ودقة التصوير وما فيها من مادة لغوية زاخرة جذبت العلماء إليها وتناولوها بالشرح والتفصيل ، وقد بلغت اللامية ما لم تبلغه القصائد النادرة فى الشعر العربى القديم وشرحها كثيرون من أمثال : المبرد وثعلب وابن دريد والتبريزى

والزمخشري والعكبرى وعطاء المصرى ويحيى بن عبد الحميد الحلبى وجار الله الفيومى ومحمد بن الحسين التركى وغيرهم .

ولم يقتصر شرح اللامية على علماء وأدباء العرب بل شرحها بعض المستشرقين وترجموها إلى اللغة الإنجلزية والفرنسية والألمانية والبولندية وقد أشاد بها المستشرقون إشادة بالغة .

وعلى الرغم مما أخذته لامية العرب من شهرة ومنزلة فنية وأدبية ولغوية راح البعض يشككون فى نسبتها إلى الشنفرى بالرغم من أن أثار القدماء نسبتها إليه، وراح هؤلاء المشككون يأتون ببعض الأدلة التى يستدلون بها على عدم نسبتها إلى الشنفرى وزعموا أن ناظمها هو خلف الأحمر وأهم ما جاءوا به من أدلة :

١- أن اللامية بالغة الطول حيث بلغت أبياتها ثمانية وستين بيتا وذلك يخالف ما عليه المعهود من شعر الصعاليك حيث جاء شعرهم فى صورة مقطوعات لا قصائد .

٢- أن القدماء من الرواة والباحثين قبل القرن الرابع الهجرى لم يشيروا إلى هذه القصيدة أمثال أبى الفرج الأصبهانى وابن قتيبة وغيرهما) . بالرغم من كثرة الشعر الذى أوردوه للشنفرى .

٣- الرأى الصريح الذى أدلى به العالم أبو بكر بن دريد والذى نقله عنه تلميذه أبو على القالى والذى أثبت فيه اللامية لخلف الأحمر ونفاها عن الشنفرى .

٤- خلو القصيدة من ذكر الأماكن والمواضع والأعلام القديمة التى جاءت فى خلال الشعر الجاهلى .

هـــذه هى أهـــم الأدلة التى راح المشككون يذكرونها وينفون بسببها نسبة القصيدة إلى الشنفرى ولكننا نستطيع الرد على هؤلاء وعلى أدلتهم التى ساقوها :

أولا : إدعـــاؤهم بطـــول القصيدة وأن طولها يخالف المعهود من شعر الصعاليك دليل واه ضعيف لا يثبت نفى القصـــيدة إلى الشـــنفرى فهـــل إذا خالف أحد الصعاليك خاصـــية مـــن شعر الصعاليك المقطوعات وجاء بقصيدة طويـــلة مخالفة نهج هذا الشعر لا تثبت إليه القصيدة بهذه الحجة ؟ كلا وألف كلا .

ولماذا لا يكون الشنفرى قد نظم هذه القصيدة مخالفا مـــا تعـــارف عـــليه الشعراء الصعاليك فى شعرهم وجاء بفـــريدته الـــرائعة هـــذه ليثبت مقدرته الشعرية على أنه يستطيع نظم القصائد الطوال بجوار المقطوعات القصيرة؟ ومـــع العـــلم بـــأن للشنفرى قصيدة أخرى طويلة وليست

بالمقطوعة القصيرة خلاف هذه اللامية وهى تائيته (المفضلية) التى بدأها بقوله :

ألا أم عمرو أزمعت فاستقلت

والتى تبلغ نحو خمسة وثلاثين بيتا .

ثانيا : إذا كان القدماء قد أهملوا الإشارة إلى لامية العرب أمثال : أبى الفرج وابن قتيبة فإنهم أهملوها مثلما أهملوا كثيراً من الشعر العربى الرائع الذى لم يشيروا إليه فى مختاراتهم وكثيراً ما كانوا يشيرون فى كتبهم إلى النكرات من الشعراء ويتركوا أعلاماً بارزة فى تاريخ الشعر العربى بل جاء كتاب الأغانى لأبى الفرج مشتملاً على شعر اللهو والمجون من غزل وخمر وغير ذلك وترك أغراض الشعر العربى الجادة مثل : الزهد والتصوف وما إلى ذلك .

فضلا على أن هناك ما يدل على أن (الأصمعى)

كان على معرفة بهذه اللامية وأنشد منها أبياتا فى مجلس الخليفة (الرشيد) حينما طلب منه أن ينشده شعراً فى البرد فأنشده الأصمعى :

وليلة قر يصطلى القوس ربها

وأقدحه اللاتى بهـا يتنبل

فقال الرشيد :

يا أصمعى ، حسبك ، ما بعد هذا شيئ " (١) .

ثالثا : ما أدلى به أبو بكر بن دريد من أن اللامية من وضع خلف الأحمر وليست للشنفرى مردود أيضا فهل إذا كانت هناك قصيدة بمثل هذه الروعة والفنية والمنزلة أيتنازل عنها خلف الأحمر وينسبها لغيره ؟ أما كان الأجدر به وهو من هو عقلا وذكاء إذا كان هو ناظمها أن ينسبها لنفسه حتى تطير شهرته ويزداد شهرة ومكانة بها ؟

---

(١) ص ١٣٤ نور القبس ، لليغمورى ، عام ١٩٦٤ م – ١٣٨٤هـ .

رابعا: مـا ادعـاه المشككون من القول : بخلو هذه اللاميـة مـن ذكر الأماكن والأسماء المعروفة فى الشعر الجاهـلى ، أهل كان خلف الأحمر أحمقا – وهو من هو عقـلا وذكـاء حتى تفوت عليه هذه الناحية إذا كان يريد نسـبة اللاميـة إلى شاعر جاهلى وهو الذى يحافظ دائما على نهج القصيدة القديمة ؟

اننا بعد ذلك نستطيع أن نبطل هذا الزعم الذى زعمه المشككون حول هذه اللامية ونستطيع القول بأنها للشنفرى حيـث تصور هذه اللامية حياة الشاعر وبيئته أتم تصوير وجاءت اللامية مشتملة على خصائص شعر الصعاليك ولم تفقـد إلا خاصـية واحـدة وهى خاصية القصر ، ولكنها جاءت مشتملة على الخصائص الأخرى لشعر الصعاليك :

١ – حيـث الوحدة الموضوعية فقد جاءت القصيدة فى موضوع واحد ، وهو تصوير حالة الشاعر .

٢- خلت اللامية من المقدمة الطللية ومن الغزل والتشبيب مثلما خلت مقطوعات الصعاليك فكيف يقف على الأطلال ويتغزل من يقضى نهاره مترقبا وليله مترصدا ؟

٣ - جاءت اللامية خالية من التصريع فى مطلعها كشعر الصعاليك .

٤- امتاز أسلوب اللامية بالأسلوب القصصى فى سرد الحوادث وهو ما امتاز به الشعراء الصعاليك فى سرد حوادثهم المثيرة .

٥- امتازت اللامية بالسرعة الفنية وخلت من الصنعة وجاء التشبيه أقوى ألوانه الفنية وهو ماامتاز به شعر الصعاليك .

٦- امتازت اللامية بالصدق والواقعية فهى صورة للواقع

وصدى حقيقى للحقيقة ، وذلك ما تمثل فى شعر الصعاليك .

٧- تحررت اللامية من الشخصية القبلية التى تحرر منها شعر الصعاليك وكيف لا يتحررون وهم الذين طردتهم القبائل وخلعتهم وألجأتهم الجبال والصحراء .

تلك هى أدلة الشك فى نسبة القصيدة إلى الشنفرى وهى أدلة ضعيفة لا تبلغ مبلغ الدليل القاطع ، وتلك هى أدلة بطلان أدلة الشك والتى تثبت نسبة اللامية إلى شاعرها الشنفرى .

* * *

طرفة بن العبد البكرى

ابن العشرين

نشأته وحياته [١] :

هــو طرفة بن العبد البكرى من بكر بن وائل ، ويقال إنه سمى طرفة لبيت من الشعر قاله .

وهو أحد فحول الشعراء الجاهليين ، واسمه عمرو بن العــبد بن سفيان من بنى سعد بن مالك ين ضبيعة من بكر بــن وائل ، ومن المعروف أن قبيلة بكر كانت من القبائل التى اشتهرت بالمجد والسيادة فى الجاهلية ، بل إنها كانت تنافس أختها "تغلب " فى الشرف والسؤدد .

وقــد نــبغ من قبيلة "بكر" شعراء كثيرون منهم على سبيل المثال لا الحصر :

---

(١) انظر الشعر والشعراء ، لابن قتيبة : ١/١٨٥ .

* الحارث بن عباد رأس بكر وشاعرها فى زمانه .

* والحارث بن حلزة .

* والمرقش الأكبر .

* والمرقش الأصغر .

* وعمرو بن العبد ، الملقب بـ " طرفة " .

نشأ طرفة وترعرع فى بيئة شاعرة ، فأبوه شاعر ، وخاله جرير بن عبد المسيح (المتلمس) كان شاعرا ، وعمه ربيعة بن سفيان (المرقش الأصغر) كان شاعرا كذلك ، وأخته الخرنق كانت شاعرة الحيرة ، وخال أبيه (المرقش الأكبر) كان شاعرا كذلك .

وكان قومه ينزلون بالبحرين على شاطئ الخليج العربى ، وكانت البحرين تخضع آنذاك لبلاد الحيرة ولنفوذها السياسى ، ولقد ذكرت كتب التاريخ والأدب أن

جل الشعراء الذين نشأوا على أرضها كانت لهم صلات بملوك الحيرة وأمرائها .

عاش طرفة فى حسب من قومه ، وفى عزة ومنعة من آبائه وأجداده ، ولكن سرعان ما جار عليه الدهر ؛ فلقد مات والده وهو طفل صغير ، وتولى أعمامه تربيته ورعايته ، ويبدو أن أعمامه ظلموه ، وظلموا أمه "ورده " (١) وأكلوا ميراثها ، فأثر هذا فى حياته وسلوكه ، كما أثر فى شاعريته ، فراح شعره من ثم يمتلأ بشكوى الأقارب واحدا تلو الآخر .

ولكن طرفة ما كاد يفتح عينيه للحياة حتى أخذ يسرف على نفسه ، فأخذ يتفنن فى شرب الخمر واقتناص اللذات ، فشرب الكأس وسكر ، وأدى به هذا الأمر إلى فقد كل ماله .

---

(١) هى وردة بنت عبد العزى من بنى ضبيعة بن ربيعة بن نزار .

لقـد حـاول أهله من جهتهم أن ينصحوه ويرشدوه ، لكنه لم يأخذ بنصيحة أحد منهم ، ولم يرتدع ، وأخذ يمعن فى الإسـراف عـلى نفسه حتى اضطر قومه إلى طرده ، ونفـر منه أولياؤه وعشيرته ، الأمر الذى أدى به إلى أن يـركب ناقـته ، ويـأخذ يضرب فى البلاد ، ويتنقل بين الأحيـاء ، ويغـزو تارة ، ويأوى تارة أخرى إلى مغاور الجبال حتى بلغ أطراف الجزيرة العربية .

وبعـد أن ذاق شاعرنا مرارة الحرمان ، وقاسى آلام الغربة والتشرد ، عاوده الحنين مرة أخرى إلى ديار قومه، فرجع إلى أهله وعشيرته ، وفى عزمه أن ينقاد لأوامرهم، ويسـتجيب لنصـائحهم ، ويعيـش آمنا مستقرا بين الأهل والأصحاب .

لكن وأنى لهذه النفس الحائرة أن تستقر وهى بطبيعتها نفـس لا تسـتطيع أن تسـتقر على حال ، ولا تستطيع أن ترضى بوطن ، أو تطمئن إلى صديق ؟!

والحقيقة أن سبل العيش قد ضاقت مذاهبها أمام الشاعر ، فلم يجد في مضارب قومه ما يقوم بحاجته ، أو يشبع نزواته ، فاضطر أن يرعى إبل أخيه (معبد) ، ولكنه شغل عنها بقول الشعر ففقدت ، وأخذ أخوه يطالبه بها ، فلجأ إلى ابن عم له يدعى (مالك) فخذله هو الآخر ، ولامه على تقصيره .

لكن الشاعر لجأ إلى سيدين من بني قومه ، وطلب منهما النصرة والعون ، فوقفا إلى جواره ، وأخذا يعيناه حتى استطاع أن يرد إبل أخيه .

عز على طرفه أن يكون أجيرا لغيره ، فعاد إلى سيرته الأولى ، وفرغ لنفسه ولملذاته ، وعكف على شرب الخمر إلى أن اضطرب أمره وتشتت فكره .

ولما نفد ماله عاد من جديد يفكر في الرحلة إلى بلاد الحيرة ؛ لعله يجد فيها ما تطمح إليه نفسه ، وما يرضى هواه ، فقصد ملك الحيرة عمرو بن المنذر المعروف بابن

هند ، وصار من جلسائه هو وخاله المتلمس .

وتذكر كتب التاريخ والأدب أن خاله المتلمس هو الذى أغراه بالذهاب إلى بلاد الحيرة ، وشجعه على ذلك ، لدرجة أنه صحبه إلى هذه البلاد .

ولكن الوشاة سعوا بالوشاية بينهما وبين الملك ، وزعموا أن طرفة هجا الملك بأبيات مقذعة كان منها :

فليت لنا مكان الملك عمرٍو
شياهاً حول خيمتنا تخور
لعمرك إن قابوس بن هند
يخالط ملكه حمق كثير

فما كان إلا أن استدعى الملك طرفة وخاله وأعطى كلا منهما كتابا فى صورة رسالة ، وزعم أنه أوصى لهما بجائزتين عند أمير البحرين ، وذهب طرفة وخاله بالرسالتين صوب البحرين .

لكن المتلمس كان قد فتح الكتاب وأقرأه أحد الناس ، فوجد الملك يأمر بقطع رأسه ، فرماه فى البحر وجد فى الهرب ، وأما طرفة فيقال إنه سلم كتابه إلى العامل ، فقتله وهو شاب فى السادسة والعشرين من عمره [١] ، لتنتهى بذلك حياة هذا الشاعر المستهتر المسرف على نفسه.

ويقال [٢] " إنه اشترك فى حرب البسوس ، وكان معاهدا للمنذر الثالث (٥١٤ – ٥٤٤) ولابنه عمرو بن هند ، وكذلك كان صديقا لعمرو بن مامة ، أخى عمرو بن هند لأبيه ، فلما تولى عمرو بن هند ملك الحيرة ، ولم يكن قد بقى بينه وبين طرفة مودة ، سافر طرفة وعمرو بن مامة بتجارة إلى اليمن ، ومكثا هنا لك بضع سنوات ، ثم إنهما قتلاه فى أثناء رجوعهما نحو عام ٦٢ ق.هـ (٥٦٠م) ،وطرفة فى نحو الثلاثين من عمره ".

---

(١) وقيل فى نحو الثلاثين من عمره .

(٢) شرح المعلقات السبع ، الزوزنى ، مكتبة المعارف ، بيروت ص ٦٢.



أخلاقه وصفاته :

كـــان طـــرفة شاعرا مستهترا ، مسرفا على نفسه فى شـــرب الخمـــر ، والتهاب الملذات ، لدرجة أنه بدد أمواله كـــلها، وفقـــد الطـــارف والتليد ، وأصبح يخالط الشعراء الصعاليك وقطاع الطرق ، وكان من جهته شاعرا عنيدا يعيش أيامه بكل ما فيها من لهو وعبث .

وطـــرفة شـــاعر صاحب فلسفة فى الحياة ، وفلسفته كـــانت وليـــدة عقله وتفكيره ؛ لقد اختار لنفسه نمطا من الحياة ، ولونا من السلوك أعجبه واستهواه .

ومع ذلك فليست الحياة عنده لهوا خالصا ، وإنما هى مـــزيج مـــن اللهو والجد ، فإذا ما جد الجد ، واشتد الأمر بقومـــه ، وطلـــبوه وجدوه كان أسرع من الريح ، وإذا ما فرغ لنفسه وغريزته أطلق لنفسه العنان ، فشرب وسكر ، واســـتعجل الـــلذة قبل أن يفارق الحياة ؛ إذ المنية لا تفرق بين الكريم والفاحش المتشدد .

شاعريته ومنزلته الشعرية :

كان طرفة أحدث الشعراء سنا ، وأقلهم عمرا ، فقد قتل وهو صغير السن ؛ ولذلك كان يقال له " ابن العشرين " [١] .

وقد ظهرت ملامح شخصيته فى سن مبكرة ، شأنه فى ذلك شأن الشعراء الموهوبين ، الذين يثير شاعريتهم ما يمر بهم من أزمات وأحداث .

لقد قال طرفة الشعر وهو شاب ، وتعرض به مدحا وهجاء ، وكان أكثر تعرضه لبلاط الحيرة ، ويقال [٢] إنه " كان يرعى إبلا له ولأخيه ، وكان كثيرا ما يلهو عنها بنظم الشعر ، فقال له أخوه : " لم لا تستريح بإبلك (ترجع بها فى الليل إلى معاطنها) ؟ .

– ترى أنها إن أخذت منك تردها بشعرك هذا ؟ " .

---

(١) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة : ١٨٨/١ .

(٢) شرح المعلقات السبع ، الزوزنى ، مكتبة المعارف ، بيروت ص ٦١ ، ٦٢ .

قـال طـرفة : فـإنى لا أخرج بها أبدا حتى تعلم أن شعرى سيردها إن أخذت .

فتركها (طرفة) فأخذها أناس من مصر .

فـادعى (طـرفة) جـوار عمرو وقابوس ابنى المنذر الثالث ملك الحيرة ، وكانا لا يزالان أميرين .

وقال يخاطبهما :

أعمرو بن هند ما ترى رأى حرمة

لها سبب ترعى به المـاء والشجر

وكان لها جاران ، قابوس منهما

وعمرو، ولم استرعيهما الشمس والقمر

فعوضه هذان ، فيما قيل ، إبلا مكانها " .

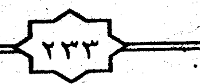
وطرفة من الشعراء المقلين ، وهو مع قلة شعره يبلغ من جودة الشعر بحداثة سنه ما بلغه شعراء آخرون كثرت

أشعارهم وطالت أعمارهم .

ولـــه ديـــوان شعرى ، أشهر ما فيه المعلقة ، وهى الـــثانية بيـــن المعـــلقات ، وقد أعجب النقاد بشعره ؛ لأنه استطاع أن يجارى الفحول ، ويشترك معهم فى الخصائص العامة ، من روعة الوصف ، وجمال السبك وقوة العبارة، وجزالة الألفاظ .

وشعر طرفة بدوى خالص ، كثير الغريب متين التراكيب مـــع شـــىء من الإبهام أحيانا ، ومع ذلك فقد جعله ابن سلام رأس الطبقة الرابعة من فحول الجاهليين ، وهم عنده .

* طرفة بن العبد .
* وعبيد بن الأبرص .
* وعلقمة الفحل .
* وعدى بن ثابت .



فلهؤلاء عند ابن سلام موضعهم مع الأوائل ، وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدى الرواة ، وقال: أما طرفة فأشعر الناس واحدة ، وأسبقهم إلى الإجادة فى الفن الشعرى.

وطرفة من أصحاب المعلقات المقدمين بإجماع الآراء وقد برع فى الحماسة والفخر والهجاء ، كما برع فى الحكمة خاصة ، وأكثر حكمه إنما قيلت فى الحياة والموت ولعل الذى يزيد من قيمة هذه الحكم في شعره أنها مستمدة من حياته هو ، وهى خلاصة معاملاته مع أهله .

وخلاصة الآراء التى قيلت عن طرفة تفيد بأننا أمام شاعر مبكر النبوغ ، شاعر شغل زمانه ومكانه وهو صغير السن ، شاعر طارت شهرته فى الآفاق حتى شغلت بلاط الحيرة .

ويعتبره النقاد من متقدمى الفحول ، ولا يفضلون عليه فى ذلك إلا شيخ الشعراء " امرأ القيس " .

وطرفة صاحب نظرة بعيدة فى نظم الشعر ، إنه يرى أن الحياة فرصة سانحة يجدر بالإنسان أن يستفيد منها ، إذ

ليس بعد الموت – عنده – من حياة أخرى ، ثم إنه كان كثير اللوم للأغنياء الذين لا يتمتعون فى حياتهم بأموالهم .

لقد قال عنه ابن قتيبة : إنه أجودهم طويلة ، وله بعدها شعر حسن .

ويروى أن أبا عبيدة قال : طرفة أجودهم واحدة " يقصد أن معلقته تفضل كل قصيدة أخرى إذا نحن قارنا معلقته بأية قصيدة واحدة لغيره من الشعراء .

ومعلقة طرفة على هذا الأساس لا يمكن أن تكون أفضل من عدد من القصائد لشاعر آخر ، ومع ذلك ففيها وصف فى الناقة هو أوفى ما وصل إلينا من الجاهلية فى بابه .

كما أن لطرفة قدرة على تمييز الجيد من الردئ فى الشعر ، والاهتداء إلى مواضع الإصابة ومواضع الضعف.

ومصداق ذلك ما رواه المزربانى عن أبى عبيدة قال:

مر المسيب بن على بمجلس بنى قيس بن ثعلبة

فاستشهدوه فأنشدهم :

ألا أنعم صباحا أيها الربع وأسلم

نحييك عن شحط وإن لم تكلم

فلما بلغ قوله :

وقد أتناسى الهم عند ادكاره

بناج عليه الصيعرية مكدم

كميت كناز لحمها حميرية

مواشكه قدمى الحصى بمثلهم

فقال طرفة وهو صبى يلعب مع الصبيان :

استنوق الجمل .

فذهبت مثلا للقوى يصير إلى الضعف والذلة .

واعــترض طرفة أن الصيعرية سمة من سمات النوق فى أعناقها ، وليست للبعير ، ومعنى استنوق الجمل : أى صار وتحول إلى ناقة .

من معلقة طرفة

فخر وحكمة

النص

أولا : وصف الديار والفراق

لِخولةَ أطلالٌ ببرقةِ ثهمدِ
تلوحُ كباقِي الوَشْم فى ظاهر اليدِ (١)
وُقوفًا بها صَحْبى على مِطيِّهمْ
يقولون لا تَهْلِكْ أسىً وتجلَّدِ (٢)

---

(١) خولة : اسم امرأة كلبية .
الطلل : ما شخص من رسوم الدار .
وبرقة ثهمد : اسم موضع لتميم بنجد ، والبرقة هى الأرض الغليظة ذات الحجارة. والوشم : نقش أخضر يتم بغرز إبرة فى اليد ويظل ثابتا .
(٢) المطى : المراكب ، واحدتها مطية . والتجلد : تكلف الجلادة ، وهو التصبر .

كأن حُدُوجَ المالكيـــة غُـــدْوَةً

خَلايا سَفين بالنواصِف من دَدِ[٣]

عَدوليَّةٌ أو من سَفينِ ابنِ يامنٍ

يَجُورُ بها الملّاح طوراً وَيَهْتدى [٤]

يَشُقّ حَبَاب الماءِ حَيْزُومُها بها

كما قَسَمَ التُّرْبَ المُفَايِلُ باليدِ [٥]

---

(٣) الحدج : مركب من مراكب النساء ، والجمع: حدوج وأحداج. والخلايا: جمع الخلية ، وهى السفينة العظيمة ، والسفين : جمع سفينة ، والنواصف : جمـــع الناصفة ، وهى أماكن تتسع من نواحى الأودية . ودد : قيل هو اسم واد فى هـــذا البيت ، وقيل دد مثل يد ، وددا مثل عصا ، وددن مثل بدن ، وكلها بمعنى اللعب واللهو.

(٤)عـــدولى : قبيـــلة من البحرين . وابن يامن : رجل من أهل البحرين ، وقيـــل: بـــل هو رجل آخر منها . والجور : الظلم والعدول عن الطريق. والطور: التارة ، والجمع الأطوار .

(٥) حـــبــــــــاب المـــاء : الحيازيم . والترب والتراب واحد . والفيال : ضـــرب مـــن اللعب، وهو أن يجمع التراب فيدفن فيه شئ ثم يقسم التراب نصفيـن ـــ ويبحث عن الدفين فى أيهما هو.

وفى الحىّ أَحْوَى ينفُضُ المرْدَ شادِنٌ
مُظاهِرُ سِمْطَىْ لُؤلؤٍ وزبرجـــدِ (٦)

خَذُولٌ تُراعـــى رَبْربــاً بخميلــةٍ
تَنَاول أطرافَ البريــر وترتدى (٧)

وتبسِمُ عن أَلْمى كأن مُنَـــوَّراً
تَخَلَّلَ حرَّ الرمل دِعْصٍ لهُ نــدِ (٨)

---

(٦) الأحوى : الذى فى شفتيه سمرة ، وهو أيضا الظبى الذى فى لونه حوة . والشادن أحوى لشدة سواد أجفانه ومقلتيه . وقيل : الحوة : حمرة تضرب إلى الســواد ، وعــلى هذا فشادن صفة أحوى . والشادن : الغزال إذا قوى واســتغنى عــن أمه . والمظاهر : الذى لبس ثوبا فوق ثوب أو درعا فوق درع . والسمط : الخيط الذى نظمت فيه الجواهر ، والجمع سموط .

(٧) خــذول : تخذل أولادها . تراعى : ترعى معه . الربرب : القطيع من الظــباء وبقــر الوحــش . والخميــلة : رمــلة منبتة ، والجمع الخمائل . والبرير :ثمر الأراك المدرك البالغ . وترتدى : تلبس الرداء .

(٨) الألمى : الذى يضرب لون شفتيه إلى السواد ، والأنثى لمياء ، والجمع لمى. كأن منورا: يعنى أقحوانا منورا ، فحذف الموصوف لدلالة الصفة عليه ، وحر الرمل: خالصه ، والدعص : الكثيب من الرمل . والندى :دون الابتلال .

سَقَتْهُ إِيـاةُ الشمس إلا لِثَاتِـهِ

أُسِفَّ ولم تَكْدِم عليـــه بِإِثمِدِ (٩)

ووجهٌ كأن الشمس ألقت رِداءها

عليه نقيّ اللون لـــم يتخدَّدِ (١٠)

---

(٩) إياة الشمس : شعاعها .

واللثة : مغرز الأسنان ، والجمع اللثات ، والكدم : العنف ، والإثمد: الكحل.

(١٠) التخدد : التشنج والتغضن .

(ثانيا : وصف الناقة)

وإنى لأُمضى الهم عند احتضاره

بعَوْجاء مِرْقال تروحُ وتغتدى (١١)

لها فخذان أُكْمِلَ النَّحْضُ فيهما

كأنهما بابا مُنيف مُمَرَّدِ (١٢)

لها مِرْفَقَان أفتلان كأنها

تمرُّ بسلمى دالِجٍ مُتَشدِّدِ (١٣)

---

(١١) احتضاره: حضوره ، فالاحتضار والحضور واحد . عوجاء : ناقة ضامرة لا تستقيم فى سيرها لفرط نشاطها .
مرقال : سريعة ، والمرقال مبالغة مرقل من الإرقال : وهو بين السير والعدو .

(١٢)النحض: اللحم. منيف ممرد : قصر عال ثقيل ، فحذف الموصوف وهو القصر . الممرد: المملس من قولهم : وجه أمرد ، وغلام أمرد لا شعر عليه ، وشجرة مرداء لا ورق لها .

(١٣) الأفتل : القوى الشديد ، والمؤنث فتلاء . والسلم : الدلو لها عروة واحدة مثل دلاء السقائين . الدالج : الذى يأخذ الدلو من البئر فيفرغها فى الحوض . التشدد والاشتداد والشدة واحد .

كقنطرة الرومى أقسم ربّهـــا

لتُكتنفن حتى تُشَـــادَ بقَرمد (١٤)

صُهابية العُثْنُون مُوجَـدَة القَرا

بعيدةُ وَخْد الرِّجْل موّارة اليد (١٥)

أُمِرَّتْ يداها فَتْلَ شَزْرٍ وأُجْنِحت

لها عضُداها فى سَقيفٍ مُسنَّدِ (١٦)

على مثلها أُمضى إذا قال صاحبى

ألا ليتنى أفديكَ منها وأفتدى (١٧)

---

(١٤) الاكتناف من أكناف الشئ : أى نواحيه . والقرمد : الآجر ، الواحدة قرمدة .

(١٥)صهابية : بيضاء اللحية أو حمراؤها . والعثنون : شعرات تحت لحييها الأسفل . الموجدة : المقواة . القرا : الظهر . الوخد : السير السريع . المور : الذهاب والمجئ ، وموارة : شديدة الحركة.

(١٦) الإمرار : إحكام الفتل . الشزر : ما أدير عن الصدر ، والنظر الشزر والطعن الشزر ما كان فى أحد الشقين . الإجناح : الإمالة ، والجنوح : الميل . والسقف والسقيف واحد والجمع السقوف . المسند: الذى أسند بعضه إلى بعض .

(١٧) على مثلها : على مثل هذه الناقة. أمضى:أى فى أسفارى .

ثالثا : الفخر والتمدح بالبطولة

إذا القومُ قالوا من فتًى خِلتُ أننى

عُنيتُ فلم أكسل ولـــم أتبلَّـــــد [١٨]

ولستُ بحلَّال التِّـــلاع مخافـــةً

ولكن متى يسترفِدِ القـــومُ أرفِـدِ [١٩]

فإن تبغِنى فى حلقة القوم تلقَنى

وإن تلتمسنى فى الحوانيتِ تصْطَدِ [٢٠]

---

(١٨) فتى : بطل . وعنيت من قولهم عنى يعنى عنيا بمعنى أراد .

(١٩) الحلال: مبالغة الحال من الحلول .

والتلاع : مسايل الماء ، والتلعة : ما ارتفع من مسيل الماء وانخفض عن الجبال أو قرار الأرض ، والجمع التلعات والتلاع .

يسترفد : يطلب العطاء ، والرفد والإرفاد : الإعانة . والاسترفاد: الاستعانة . أرفد : أعطى .

(٢٠) تبغنى : تُطلبنى .

حلقة القوم : مجلسهم . الحوانيت : جمع حانوت وهو بيت الخمار .

وإن يلتقِ الحـيُّ الجميعُ تُلاقنى

إلى ذِروة البيت الشريف المُصَمَّدِ (٢١)

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغى

وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى(٢٢)

فإن كنت لا تستطِيعُ دفع منيتى

فدعْنى أبادرْها بما ملكت يدى (٢٣)

ولولا ثلاثٌ هنَّ من عيشة الفتى

وجدِّكَ لم أحفِلْ متى قام عُـودى (٢٤)

---

(٢١) الصـمد : القصـد ، والفعل صمد يصمد ، والتصميد مبالغة الصمد . والمصمد: العظيم الذى يقصده الناس .

(٢٢) الـوغى: أصـله صوت الأبطال فى الحرب ، ثم جعل اسما للحرب ، مخلدى: من الخلود وهو البقاء ، والإخلاد والتخليد : الإبقاء .

(٢٣) اسطاع يستطيع : لغة فى استطاع .

(٢٤) الجـد : الحـظ والـبخت والجمع الجدود . وجد الرجل يجد جدا فهو مجـدود إذا كـان ذا جـد ، وقد أجده الله إجدادا : جعله ذا جد. وقوله : " وجدك " : قسم . لم أحفل : لم أبال . والعود : جمع عائد من العيادة .

كريمٌ يروِّى نفسه فـــــى حياته

ستعلمُ إن مُتْناغدا أَيّنا الصدى (٢٥)

أرى قبر نحّامٍ بخيـــلٍ بمالـــه

كقبر غوِيّ فى البطالة مُفسد (٢٦)

أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلةٍ

وما تَنْقص الأيام والدهرُ ينفَدِ (٢٧)

لَعَمرُك إن الموت ما أخطأ الفتى

لكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْيَاه باليد (٢٨)

---

(٢٥) الصدى: الظمآن .

(٢٦) النحام: البخيل شديد البخل ، الغوى : المسرف الغاوى الضال ، والغى والغواية الضلالة . مفسد : متلف للمال .

(٢٧) النفاد والنفود : الفناء ، والفعل نفد ينفد ، والإنفاد الإفناء .

(٢٨) العمـــر بفـــتح العيـــن وضمها بمعنى ، ولا تستعمل فى القسم إلا بفتح العين. والطول : الحبل الذى يطول للدابة فترعى فيه .
الإرخاء : الإسدال . ثناياه : طرفاه ، والجمع الأثناء .

رابعا : شكوى الأقارب

فما لى أرانى وابن عمى مالكـــًا

متى أدنُ منه ينأَ عنى ويبعُـد (٢٩)

يلومُ وما أدرى عـــلامَ يلومُنى

كما لا منى فى الحىّ قُرْطُ بنُ مَعبد (٣٠)

وأيأسنى من كـــل خيرٍ طلبتُهُ

كأنّا وضعناه إلى رَمْسٍ مُلْحَدِ (٣١)

---

(٢٩) الــنأى والبعد واحد ، وإنما جمع الشاعر بينهما للتأكيد وإثبات القافية / كقول الشاعر :

(وهند اتى من دونها النأى والبعد)

(٣٠)علام يلومنى : ما السبب الداعى إلى لومه إياى .

(٣١) الرمس : القبر وأصله الدفن ، ملحد : ألحدت الرجل جعلت له لحدا .

على غير شيءٍ قلته غيــرَ أننى

نَشَدْتُ فلم أُغْفِل حَمولةَ مَعْبَــد (٣٢)

وظلمُ ذوى القربى أشدُّ مضاضَةً

على المرء من وقع الحُسام المُهَنَّد (٣٣)

---

(٣٢) النشدان : طلب المفقود .

الإغفال : الترك . الحمولة : الإبل التى تطيق أن يحمل عليها .

معبد: أخوه. وحمولة معبد : إبل أخى معبد .

(٣٣) مضاضة : ألم . يقال : مضنى الأمر وأمضنى : بلغ من قلبى ، وأثر فى نفسى تهييج الحزن والغضب .

خامسا : الفخر والحكمة

فذرني وخُلْقي إنني لك شاكـــرٌ

ولو حلّ بيتي نائباً عند ضَرْغَد [٣٤]

فلو شاء ربي كنتُ قيس بن خالدٍ

ولو شاء ربي كنت عمرو بنَ مَرْثَد [٣٥]

فأصبحتُ ذا مال كثير وزارنـــي

بنونٌ كرامٌ ســـادةٌ لِمُسَـــوّد [٣٦]

أنا الرجلُ الضَّرب الذي تعرفونه

خَشاشٌ كرأس الحية المتوقّـد [٣٧]

---

(٣٤) ضرغد: الجبل ، وبينهم وبينه مسافة بعيدة .

(٣٥) قيس بن خالد ، وعمرو بن مرثد: سيدان من سادات العرب ، مذكوران بوفور المال ونجابة الأولاد ، وشرف النسب وعظم الحسب .

(٣٦) سادة لمسود : يعني به نفسه .

(٣٧) الضرب: الرجل القوي الخفيف اللحم .

خشاش : خفيف سريع .

فإن مِتُّ فانعينى بما أنـــــا أهله

وشُقِّى على الجَيْب يا ابنة مَعْبَد (٣٨)

ولا تجعلينى كامــرئٍ ليس همُّهُ

كهمى ولا يُغْنى غَنائى ومَشْهدى (٣٩)

فلو كنتُ وَغْــلاً فى الرجال لضرَّنى

عداوةُ ذى الأصحاب والمتوَحِّد (٤٠)

ولكن نفى عنى الرجالَ جراءتى

عليهم وإقدامى وصدقى ومَحْتَدى (٤١)

---

(٣٨) النعى: إشاعة خبر الموت .

شــقى على الجبيب : المقصود اذكرينى يا ابنة أخى معبد بما أنا أهله ، أى أنه يوصيها بالبكاء والثناء عليه .

(٣٩) لا تجعلينى كامرئ : لا تساوى بينى وبينه .

(٤٠) الوغل : أصله الضعيف ثم يستعار للئيم .

(٤١) الجــراءة والجــرأة واحد ، والفعل جرؤ يجرؤ ، والنعت جرئ . وقد جرأه على كذا أى شجعه ، المحتد : الأصل .

لَعَمْرُكَ ماأمرى علـــــى بغُمَّةٍ

نهارى ولا ليلى علىَّ بسَرْمَد (٤٢)

ستُبْدى لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً

ويأتيك بالأخبارِ من لم تُزَوِّدِ (٤٣)

ويأتيك بالأخبار من لم تَبِعْ لهُ

بَتَاتاً ولم تَضْرِبْ له وقتَ مَوْعد (٤٤)

---

(٤٢) الغمة والغم واحد ، وأصل الغم التغطية ، والفعل غم يغم، ومنه الغمام لأنه يغم السماء أى يغطيها. .

(٤٣) ستبدى لك : ستطلعك .

(٤٤) بـاع : قـد تكون بمعنى اشترى . البتات : كساء المسافر وأداته ، لم تضـرب له : أى لـم تبين له ، كقوله تعالى : " ضرب الله مثلا " أى بين وأوضح .

التعليق والشرح

المناسبة :

يبدو أن شاعرنا نظم هذه المعلقة فى فترات مختلفة ، وقد ساقنا إلى الحكم بذلك أن أبيات المعلقة متباعدة الأفكار ، ففيها وصف للديار والفراق ، ثم وصف للناقة ، ثم الفخر ، فالدفاع عن الكرم . ثم أبيات الحكمة (١) .

أولا : وصف الديار والفراق

* وقد وصف الشاعر أطلال خولة التى اندثرت فقال : إن لهذه المرأة أطلال ديار بالموضع الذى يخالط أرضه حجارة وحصى من ثهمد ، وإن هذه الأطلال تلمع لمعان بقايا الوشم فى ظاهر الكف ، بمعنى أنه لم يبق منها إلا مثل النقش على اليد . وهنا تشبيه ، المشبه هو لمعان آثار ديارها ووضوحها . والمشبه به هو آثار الوشم فى ظاهر الكف .

---

(١) وصف الشاعر الديار والفراق فى عشرة أبيات ، ثم وصف الناقة فى واحد وثلاثين بيتا ، ثم ختم بالفخر ، والحكم الجميلة فى اثنين وستين بيتا ، فجاء مجموع أبيات المعلقة أكثر من مائة بيت .

* ثـــم يقـــول : لقـــد وقفوا على (أى لأجلى ، أو على رأســـى) يقولـــون لى : لا تهـــلك من شدة الحزن ومن فرط الجـــزع، ومعـــنى هذا أنهم يأمرونه أن يتجمل بالصبر ، وان يبتعد عن الجزع .

* ثـــم يشـــبه الشـــاعر فى البيت الثالث مراكب المالكية وعليها الهوادج بالسفن العظام ، ونحن إذا صرفنا (ددا) على الـــلهو يكـــون المعـــنى أنه حسبها سفنا عظاما من فرط لهوه وولهـــه. أمـــا إذا حملـــنا كلمة (دد) على أنه واد بعينه فيكون المراد أن مراكب العشيقة المالكية غدوة فراقها بنواحى وادى دد تشبه السفن العظام .

* وهذه السفن الملاح يقودها مرة على استواء واهتداء ، ومرة أخرى يعدل بها فيخرجها عن سنن الاستواء ، وهذا هو شـــأن الحـــداة ، إنهم تارة يسوقون هذه الإبل على الطريق ، وتارة أخرى يميلونها عنها بغية اختصار الطريق والمسافة .

وفى البيت تشبيه، شبه فيه سوق الإبل تارة على الطريق ،و تارة خارج الطريق بإجراء الملاح السفينة مرة على سمت الطريق ومرة أخرى معدولا بها عن ذلك السمت .

* وفى البيت الخامس يشبه الشاعر شق السفن للماء بهذا الشق الذى يحدثه المفايل فى التراب المجموع بيده .

* وفى البيت التالى يذكر الشاعر أن فى الحى حبيبا يشبه ظبيا أحوى فى كحل العينين ، وسمرة الشفتين فى حال نفض الظبى ثمر الأراك ، لأنه يمد عنقه فى تلك الحال ، لكنه صرح بأنــه يــريد إنسانا لبس عقدين أحدهما من اللؤلؤ والآخر من الزبرجد ، وجعلهما حلية يتحلى بها .

وعلى هذا فهو يشبه الحبيب بالظبى فى ثلاثة أشياء : –

– فى كحل العينين .

– وحوة الشفتين .

– وحسن الجيد .

* وهذه الظبية من صفاتها أنها خذلت أولادها ، وتركتهم لتذهب مع صواحبها فى قطيع من الظباء فى رحلة رعى من أرض ذات شجر ، أو ذات رملة منبتة تتناول أطراف الأراك وترتدى بأغصانه ، وعلى هذا فالشاعر شبه طول عنق الحبيب وحسنه بعنق الظبية حين تمده إلى ثمر الشجرة .

* إن الحبيــبة تبسم عن ثغر ألمى الشفتين ، حتى لكأنه أقحــوان خـــرج نوره فى دعص ند ، ولقد جعل الدعص نديا ليكون الأقحوان غضا ناضرا ، شبه به ثغرها ، ولمى الشفتين أبلغ فى بريق الثغر .

* ثـــم يصف ثغر الحبيبة فيقول لقد سقاه شعاع الشمس ، وهـــذا معـــناه أن الشمس أعارته ضوءها ، واستثنى من ذلك اللـــثات ؛ ذلـــك لأن بريقها مما لايستحب ، ثم يقول إنه أسف عليه الاثمد ، أى ذر الإثمد على اللثة ، ولم تكدم بأسنانها على شئ يؤثر فيها .

وتقديـــر الكـــلام : أســـف بإثمد ولم تكدم عليه بشىء ، ونســـاء العرب تذر الإثمد على الشفاه واللثات فيكون ذلك أشد للمعان الأسنان .

* ثـــم يـــأتى فى البيت الأخير من حديثه عن الديار والفراق فيصـــف وجه المحبوبة بأن الشمس كسته ضياءها وجمالها ، وهذا على سبيل الاستعارة ، أى أنه استعار لضياء الشمس اسم الرداء ، ويذكر كذلك أن وجهها نقى اللون غير متشنج ولا متغضن ، ومعنى هذا أن وجهها موصوف بكمال الضياء والنقاء والنضارة .

ثانيا : وصف الناقة

* وينتقل الشاعر إلى وصف ناقته فيقول إنه يسلى همومه ، ويمضى إرادته عند حضورها بالأسفار على ناقة ضامرة نشيطة فى سيرها ، حتى لكأنها تصل سير الليل بسير النهار .

* ويستطرد فى وصف الناقة فيقول إن لها فخذين اكتمل عضلهما وأكمل لحمهما ، كأنهما بابان لقصر عال منيف صقيل .

* وهذه الناقة لها مرفقان قويان شديدان بارزان وبائنان عن جنبيها ، فكأنها تمر مع دلوين من دلاء الدالجين الأقوياء، شبهها بسقاء حمل دلوين أحدهما بيمناه والأخرى بيسراه ، فبانت يداه عن جنبيه ، كما شبه بعد مرفقيها عن جنبيها ببعد هاتين الدلوين عن جنبى حاملهما القوى الشديد .

* شبه الناقة فى تراضف عظامها وتداخل أعضائها بقنطرة تبنى لرجل رومى قد حلف صاحبها ليطاحن بها حتى ترفع أو تجصص بالصاروج أو الآجر .

* وهـــذه الناقة بيضاء اللحية ، شامخة الظهر ، سريعة حـــركة اليـــد . ويجوز رفع (صهابية) على أنها خبر لمبتدأ محـــذوف تقديره : هى صهابية العثنون ، ويجوز كذلك جرها عـــلى أنهـــا صفة (لعوجاء) التى وردت فى البيت الحادى عشر .

* ولهـــذه الناقة يدان أفتلتا فتلا بعدتا به عن كركرتها ، و أميلت عضداها تحت جنبين كأنهما سقف أسند بعض لبنه إلى بعض .

* ثـــم يســـتطرد الشـــاعر فيقول : على مثل هذه الناقة امضى فى أسفارى حين بلغ الأمر غايته ، يقول صاحبى : ألا ليتنى أفديك من مشقة هذه الشقة فأخلصك منها و أنجى نفسى .

* * *

ثالثا : الفخر والتمدح بالبطولة

(الأبيات : ١٨- ٢١) :

وبستطرد الشاعر إلى الفخر بنفسه متمدحا بالبطولة والنجدة فيقول : إذا القوم قالوا من فتى يكفى مهما أو يدفع شرا ؟ خلت أننى المراد بقولهم فلم أكسل فى كفاية المهم ودفع الشر ولم أتبلد .

ويدافع عن كرمه فيذكر أنه لا يحل التلاع مخافة حلول الأضياف عنده ، أو حذرا من غزو للأعداء ، لأنه يعطى قومه كلما سألوه ، ويعينهم إذا استعانوا به إما فى قرى الأضياف وإما فى قتال الأعداء والحساد .

وهو يجلس فى مجالس القوم للمشورة ، فمن يطلبه فى محفل القوم يجده هناك ، ومع ذلك فهو يرود الحانات للهو ، ومن يطلبه فى بيت الخمارين يجده هناك ، ومعنى هذا كله أنه رجل يجمع بين الجد والهزل .

وفضلا عن ذلك كله فهو فى مجالس المفاخرة ينتمى إلى أشرف البيوتات ، وإذا حدث واجتمع بنو الحى للافتخار كان

هــو الــذى ينتمى إلى ذروة البيت الشريف أى إلى أعلى نسب ، ومعنى ذلك أنه أوفى الجميع حظا من الحسب ، وأعلاهم سهما من النسب .

(الأبيات من ٢٢ – ٢٤) .

ثــم يخــاطب الإنسان الذى يلومه على حضور الحرب وحضــور اللذات فيقول له : هل تخلدنى إن كففت عنها ، فإن كنت لا تستطيع أن تدفع المنية عنى فدعنى أبادر الموت بإنفاق أمــلاكى ، وكأن الشاعر يدافع عن الكرم والإقدام مادام المال سـيفنى والعمــر سينقضـــى ، ومادام مصير البخيل كمصير المســرف ، فالحـــال يقضى بأن الموت لابد منه فلا معنى إذا للبخل بالمال وترك اللذات .

ثــم يختم هذه الأبيات بقوله إنه لولا حبى لثلاث خصال هــن مــن لذة الفتى الكريم لم أبال متى أقام عودى من عندى آيسين من حياتى ، أى لم أبال متى مت :

الخصلة الأولى : سبقه العواذل بشربه من الخمر .

الخصلة الثانية : إغاثته المستغيث وإعانته اللاجئ إليه .

والخصلة الثالثة : استمتاعه بأوقات اللهو والطرب ، فهذه الأوقات هى أفضل الأوقات عنده (انظر أبيات المعلقة) .

(الأبيات من ٢٥ – ٢٨)

ثم يستطرد فيقول أنا كريم يروى نفسه أيام حياته بالخمر ، فهو يموت ريان بينما يموت عازله عطشان .

ولا فرق بين البخيل والجواد بعد انقضاء الحياة ، ولذلك يرى قبر البخيل والحريص بماله كقبر الضال فى بطالته المفسد بماله .

ثـــم يشبه العيش بكنز ينقص كل ليلة ، وما تنقصه الأيام والدهر ينفد لا محالة ، فكذلك العيش صائر إلى النفاد .

ويخـــتم هذه المجموعة من الأبيات بأن يقسم بحياتك أن الموت فى وقت إخطائه الفتى إنما هو بمنزلة حبل طول للدابة ترعى فيه وطرفاه بيد صاحبه ، ومعنى هذا أنه لا يتخلص منه كمـــا لا تفلت الدابة من صاحبها الآخذ بطرفى طولها ، فمتى شاء الموت قاد الفتى لهلاكه .

رابعا : شكوى الأقارب

(الأبيات من ٢٩- ٣٣) .

والشاعر متألم أشد الألم من مقاطعة ابن عمه مالك له ، وبشكو من سلبيته فمتى تقرب منه تباعد عنه ، ثم يستغرب هجرانه إياه مع تقربه هو منه .

وفى الوقت نفسه يلومه وهو لا يدرى ما السبب الداعى إلى لومه له كما لامه رجل القبيلة قرط بن معبد ، إن لوم كل منهما لهو ظلم صراح .

لقد أيأسه مالك من كل خير رجاه وطلبه دونما ذنب جناه سوى أنه طالب بإبل أخيه معبد التى نهبت منه .

.. ويختتم الأبيات بهذه الحكمة الرائعة التى تعكس تألم الشاعر من ظلم ابن عمه ؛ فظلم الأقارب أشد تأثيرا فى تهييج نار الحزن والغضب ، وهو عظيم الوقع على النفس كوقع السيف القاطع المحدد ، أو المطبوع فى الهند .

خامسا : الفخر والحكمة

(الأبيات من ٣٤ – ٤٤) .

ثم يقول : خل بيني وبين خلقي ، وكلني إلى سجيتي فإني شاكر لك وإن بعدت غاية البعد حتى ينزل بيتي عند هذا الجبل الـذي سـمي بضـرغد ، ولو شاء ربي بلغني منزلة ومكانة الأسـياد أمـثال : قيـس بن خالد ، وعمرو بن مرثد ، آنذاك سأصـبح صـاحب مـال كثير ويصير بيتي مقصدا للكرماء والسادة .

ثـم يفتخر بقوته وعدم مبالاته بعداوة الرجال ؛ لما يتمتع بـه مـن جرأة في دفع الملمات ، ولما له من حسب وشرف نسب ؛ ولعل هذا هو السبب الذي جعله بعد أن فرغ من نعداد مفاخـره يوصي ابنة أخيه قائلا : إذا مت فأشيعي خبر وفاتي بالثناء على بما أستحق وبما أنا أهله ، وبما أستحقه وأستوجبه، وألا تساوي بينه وبين رجل لا يكون همه طلب المعالي مثله ، ولا يكفي الملمات كفايته ، ولا يشهد الوقائع مشهده .

ثـم يقـول إنني قوي منيع لا تضرني معاداة ذي الأتباع –

والمنفرد ، ولو حدث وكنت رجلا ضعيفا لكان الحال أن مثل هذه المعاداة تضر بى ، ولكن نفى عنى مباراة الرجال ومجاراتهم ما أتمتع به من جرأة وشجاعة فى الملمات ، وما أنا عليه من صدق صريمة وكرم أصل ؛ حيث إننى رجل لا تغمنى النوائب .

ثم يختم أبياته بحكمتين رائعتين فيقول إن الأيام ستطلعك على ما تغفل عنه ، وستأتيك بالعجائب ، فيحمل لك الأخبار وينقلها من لم تزوده ولا تمده بزاده ، وسينقل إليك الأخبار من لم تشتر له متاع المسافر ، ولم تبين له وقتا لنقل الأخبار إليك.

ويروى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتمثل بشطر البيت الثالث والأربعين : " ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا" .

* * *

الدراسة الفنية

ومــن نظرتــنا فى أبيــات طــرفة يتضح لنا عدد من الخصائص الفنية ، على رأسها :

١- القصــيدة تمــثل حيــاة شباب العصر الجاهلى ممن ينتمون إلى البيوت العريقة ، ويرثون عن ذويهم أموالا طائلة، فيجــرون وراء الكــرم والــلهو ، لكن لهوهم هذا سرعان ما يــتحول ساعة النجدة وفى أوقات الملمات إلى بطولات نادرة وشجاعة فائقة .

٢- ألفاظ المعلقة ، وإذا أردت الدقة فقل ألفاظ طرفة فى مجموعهــا خشنة ، ولعل السبب فى ذلك إنما يعود إلى طبيعة الموضوعات التى طرقها: من وصف للناقة ، وفخر وتمدح ، وحماسة . وما إلى ذلك .

٣- لقــد توفر لطرفة من الشعر الممتاز الكثير ، وجمع مــن مميــزات هذا الشعر : الألفاظ القوية الجزلة ، والمعانى الجليــلة الــرائعة ، والحكمة العميقة الصادقة ، ولعل هذا هو السبب فى الشهرة العظيمة التى للمعلقة ، وهو السبب نفسه فى

تمـــثل كثير من الناس لكثير من أبياتها وعلى وجه الخصوص الأبيات : (١٨ ، ٢٠ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٤٣ ، ٤٤) .

٤- إن الشـــاعر عـــلى صغر سنه كان عميق التجربة ، تجـــرى على لسانه روائع الحكم ، وفى رأينا أنه لو قدر لهذا الشـــاعر أن يطول عمره ولا يقتل وهو صغير السن لكان له شأن كبير ولكان من أعظم الشعراء .

٥- تعـــد هـــذه المعـــلقة من أروع المعلقات غزارة فى المعـــنى ، وبـــراعة فى الوصف ، وهى فى نظرنا تعد من عيون الشعر الجاهلى ، بل إن أردت الدقة فقل إنها من أروع ما جادت به قرائح الشعراء ، وذلك لما انطوت عليه من معان طريفة ، ومن أوليات مبتكرة .

٦- ليـــس مـــن اليســـير تحديـــد موضوع معلقة طرفة الرئيســـى؛ وذلك لأن الشاعر تناول فيها عدة موضوعات كما ســـبق القول ، وهذه الموضوعات تقع فى مائة وخمسة أبيات تتوزع على النحو التالى :

- أبيات فى الأطلال .

- أبيات فى الفراق والرحيل .
- أبيات فى وصف الحبيبة .
- أبيات فى وصف الناقة .
- أبيات فى الفخر .
- أبيات فى المسرف والممسك .
- أبيات فى الأيام والموت .
- أبيات فى علاقته بابن عمه .
- أبيات فى الحكم والتأملات الحياتية .

وقد عنينا فى دراستنا هذه بخمسة موضوعات من الموضوعات التى طرقها طرفة فى معلقته ، وهى :

أولا: وصف الديار والفراق .

ثانيا : وصف الناقة .

ثالثا : الفخر والتمدح بالبطوبة .

رابعا : الشكوى من الأقارب .

خامسا : الحكمة .

لقد بدأ طرفة معلقته كما فعل الشاعر الجاهلى امرؤ القيس بالوقوف على الأطلال والدمن ، وتذكر أهلها الظاعنين يقول :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد

تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

ويتفق مع امرئ القيس – لولا القافية – فى هذا البيت :

وُقُوفاً بِهَا صَحْبى عَلَىَّ مَطِيَّهُمْ

يقُولُونَ لاَ تَهلِكْ أَسىً وَتَجَمَّلِ

لكنه له طريقته الخاصة فى ذكر الهودج ، وفى تشبيه مراكب المحبوبة بالسفن العظام ، وتشبيه حيازيم السفن بيد المفايل الذى يشق التراب .

ثم ينتقل انتقالة سريعة إلى التشبيب بفتاة تشبيبا أجاد فيه

وإن لم يطل ، وانتقل بعد ذلك إلى ما يريد وهو وصف الناقة .

أما وصف الناقة فقد بلغ فيه الغاية ، لقد رصد له أكثر من ثلاثين بيتا ، وهذه الأبيات تتميز بإحاطة الوصف وشموله ودقته ؛ إذ لم يترك شيئا من أوصافها الحسية إلا وجاء به ووفاه بدقة وحسن أداء ، بل إنه لم يترك ضربا من ضروب سيرها إلا وأتى به في نغم موسيقى ورصف كلام .

ويكفى هذه الناقة أنها أداة نجدته للمستصرخين وإن لم يقصدوه ، يقول :

على مثلها أمضى إذا قال صاحبى

ألا ليتنى أفديك منها وأفتدى

إن طرفة فى وصفه للناقة ليظهر بمظهر المحب المتيم ، ولقد بلغ من حبه للناقة أن جعلها مسلية لهمومه ـ يقول :

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره

بهوجاء مرقال تروح وتغتدى

ويمكن القول بأن مما انفرد به طرفة دون سائر الشعراء أنه من وصاف الإبل المبرزين ، وسيظل وصفه هذا أنموذجا فريدا في شعر الوصف منذ العصر الجاهلى حتى عصرنا الحاضر .

وقد وصل طرفة أبيات الناقة بأبيات أخرى فى الفخر تنبئ عن صفاته وأحواله ، والحقيقة أن موضوع الفخر من موضوعات الشعر الجاهلى التى طرقها جل شعراء هذا العصر لصلته الوثيقة بموضوع الحماسة .

إنه يتحدث عن نفسه حديث المفتون المعجب ويفرط فى الثقة بنفسه فيقول إنه المراد عند تساؤل القوم فى الشدة عمن يفزعون إليه ، يقول ذلك دون كسل أو تقاعس :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أننى

عنيت فلم أجزع ولم أتبلد

ويستمر الشاعر فى الفخر بنفسه بعد ذلك ، فيصور منزلته ومكانته بين قومه تصويرا إن هو إلا مقياس رفيع لخلق الكرام فى البيئة العربية .

إنه – فضلا عن نجدته وطيب أرومته – كريم لا يتخفى عــن الناس بل إن كل من يطلب عونه يعرف مكانه ، يلقونه فى حــلقة السادة حين تكون المقامة والمفاخرة ، وحيث الرأى والمشــورة والفصل فى عظائم الأمور والملمات ، ويلقونه فى حوانيت اللاهين حين اللهو :

ونست بحلال التلاع مخافــة

ولكــن متى يسترفد القوم أرفد

فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى

وإن تلتمسنى فى الحوانيت تصطد

وهنا أمر لا محيد من الإشارة إليه وهو أن فخر الشاعر الجاهــلى طــرفة فى معلقته هذه لم يكن فخرا كما هو العادة يرتــبط بقبيلته ، وهذا هو ما تفرد به دون شعراء الجاهلية ، وإنمــا هــو فخــر فردى تغنى فيه بنفسه وبصفاته وأحواله ، وبســجاياه الكــريمة المحمــودة فى حــدود المفهوم والتقاليد الاجتماعية والأخلاقية التى تعارف عليها الجاهليون وصارت من عادات المجتمع الجاهلى .

ومــع ذلــك كلــه له فخــر قبلى يعكس تعلقه بقبيلته وتمسكه بعشيرته، ويعكس كذلك تغنيه بأمجاد قومه وصفاتهم ، وبطولاتهم ، وأخلاقهم الكريمة ، ومجدهم التليد ، وعزهم الخالد.

لقــد تحامــته عشــيرته حين ذهب فى اللهو واللعب كل مذهب ، يقول :

ومازال تشرابى الخمور ولذتى

وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى

إلى أن تحامتنى العشيرة كلهــا

وأفردت إفــراد البعير المعبــد

ويعــبر طــرفة عــن نظرته إلى الحياة فى أبيات لبست ثوب الحكمة ، ولخصت بشكل أو بآخر نظرته إلى الحياة والأحياء والموت.

يقول :

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغــى

وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

فإن كنت لا تسطيع دفع منيتى

فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

فطـرفة الفـارس المعـارك اللاهى هو فى الوقت نفسه الإنسـان الـذى له تأملاتـه وله نظراته وفلسفته التى تعكس شخصـيته القـلقة المتشـائمة الـتى تدفعه إلى التمتع بالحياة ولذائذها قبل أن يدركه أجله المحتوم .

ويأتى طرفة بأبيات تعكس لنا نفسية شاعر لاه تمسك فى حياتـه بـثلاث مـتع فيها قوام حياته ، ولم لا يمتع نفسه بما يشتهى وهو يائس كل اليأس من حياته هذه التى سيضع الموت حدا أبديا لها ! .

يقول :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى

وجدك لم أحفل متى قام عودى

فمنهن سبقى العاذلات بشربة

كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وكرى إذا نادى المضاف محنبا

كسيد الغضا نبهتـه المتـورد

فيهــا، حــتى أخرج لنا قصائد تعد فى بابها من أروع ما خلفه لنا العصر الجاهلى .

ولعل هذا هو الذى جعل عمر بن الخطاب رضى الله عــنه يعجب بشعره لما فيه من إشارات دينيةً وأخلاقية ، وقــد أعجــب ببيــتين قالهما النابغة من قصيدة اعتذر بها للنعمان .

وهذان البيتان هما :

أتيتُك عارياً خَلَقًا ثيابــــى

على خوفٍ تظنُّ بى الظنونُ

فألفيتُ الأمانةَ لـــم تَخُنْها

كذلك كان نوحٌ لا يخــونُ

* * *

ويتبين من المعلقة أن هناك صلة قوية بين حكم طرفة ونظراته في الحياة واتجاهاته ، والذى يمكن قوله هنا إن حكم طرفة تختلف عن حكم الشاعر الجاهلى زهير بن أبى سلمى ، فهى حكم فتى لم ير الحياة إلا مجالا لانتهاب المتع والملذات ، وليست حكم شيخ محنك عركته الحياة بأنيابها :

أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة
وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى
لكا لطول المرخى وثنياه باليد
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند

وهذه الحكم التى جاء بها طرفة ، لها – بصرف النظر عما قيل فيها – قيمتها فى تصوير نفسيته المضطربة البائسة ، كما أن لها دورها فى تصوير البيئة التى كان يعيش فيها ، وهى وإن كانت وليدة تجارب الحياة وأحداثها ، فكذلك كانت

حكـــم العصر الجاهلى بصفة عامة ، إنها مرآة صادقة لطبيعة النفس الجاهلية وما جبلت عليه من عادات وطباع .

عـــلى أن طرفة لم يلبث أن سرى عن نفسه ، فأخذ يفخر بقوته وشجاعته ، وفتكه وإغارته .

يقول :

أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه

خشاش كرأس الحية المتوقـــــد

هـــذا هو فخره بنفسه ، ومن كان هذا شأنه فأجدر به إذا مامات أن يبكى عليه :

فإن مت فانعينى بما أنـــا أهله

وشقى على الجيب يا ابنة معبد

* * *

السمات الفنية والجمالية

يعد طرفة واحدا من شعراء الطبع فى العصر الجاهلى ، وهؤلاء الشعراء هم جماعة تمارس عملها الفنى دون تكلف أو تصنع ، ودون أدنى عناء أو جهد أو تفكير .

وقد سلك طرفة فى معلقته مسلكا صور فيه حياته ، وعبر عنها تعبيرا مباشرا ينقل فيه أحاسيسه ، ويصور فيه مشاعره ، ويرسل عباراته كما يخطر على ذهنه ، فأرانا كيف كان يعيش صارما جادا ، كما أرانا كيف كان يعيش لاهيا لاعبا .

ومعنى ذلك كله أن طرفة كان شاعرا لا يبذل جهدا فى شعره ، فهو يعبر عن معانيه كما تصدر عن نفسه ، ونتيجة ذلك كله أن تعبيره جاء طبيعيا لا تكلف فيه ولا معاناة ، وجاءت صوره الفنية قريبة المنال .

إن شعر طرفة شعر تسيطر عليه المعانى المباشرة التى تقل فيها الصورة الخيالية التى تحتاج إلى شىء من بذل الجهد والفكر ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل التشبيه ينتشر فى

شعره انتشارا بعيدا ؛ لأن التشبيه يقوم على عملية فنية يسيرة الى حد ما ، وهو المرحلة الأولى من مراحل التصوير الفنى .

ففى مطلع المعلقة نراه يعتمد على التشبيه :

(لخولة أطلال ....) .

ومادة التشبيه عنده حسية تستمد من مظاهر الطبيعة والحياة : (كأن حدوج المالكية ....) .

وقوله : (يشق حباب الماء حيزومها ....) .

وقوله : (وتبسم عن ألمى .....)

وقوله : (ووجه كأن الشمس ...)

وقوله عن الناقة : (لها فخذان .....) .

وقوله : (لها مرفقان أفتلان ....) .

ونحن لم نعدم الاستعارة فى معلقة طرفة ، ومع قلتها نحن نراها تأتى دون تكلف ، ومثال ذلك قوله :

(ووجه كأن الشمس ألقت رداءها ...) .

لقـــد استعار لضياء الشمس اسم الرداء ، والرداء إنما هو للإنسان .

أمـــا الكناية فإن الحق يقتضينا أن نقول إن لها على شعر طرفة سلطانا كما هو الحال مع التشبيه .

وهى تـــترجم عن رغبته فى عدم التصريح واللجوء إلى المباشرة ، وإلى عدم تسمية الأشياء بمسمياتها على العكس مما هو شائع ومعروف عند مؤرخى الأدب العربى .

ومن الكناية التى جاءت فى أبياته قوله :

(على مثلها أمضى إذا قال صاحبى ....) .

وقوله :

(وجدك لم أحفل متى قام عودى) .

وقوله :

(ويأتيك بالأخبار من لم تزود) .

وقوله :

(ويأتيك بالأخبار من لم تبع له) .

والملاحظ أن الشاعر كان يأتى للمعنى الواحد بأكثر من صـــورة واحدة مما يدل على خياله الخصب ، كما يلاحظ أن هذه الصور حسية تنتزع من البيئة ، وحاله فى هذا كحال كل شعراء العصر الجاهلى .

وألفاظ طرفة على سهولة فهمها ، نجده يحسن اختيارها ، ويختارها ملائمة للغرض الذى يتحدث فيه ، ففى أبيات الفخر مثلا تجدها جزلة المبنى من ناحية ، كما نجدها تعكس العظمة والشـــعور بالكـــبرياء والـــتعالى ، وهذا الحال نفسه نجده فى تراكيبه .

وعن أسلوبه يقول الدكتور محمد عبد القادر أحمد [1] :

" وأســلوب طرفة فى المعلقة أسلوب سهل ، ومرد هذه السـهولة إلى أن الألفـاظ التى اختارها جاءت بينة المعنى ، انـتقاها من الألفاظ الشائعة المألوفة فى الاستعمال الأدبى فى العصـــر الجاهلى ، وكلها ألفاظ لاتزال مستعملة فى الأسلوب

---

(١) دراســات فى نصــوص وأدب العصــر الجاهلى . ص ٣٦٣ . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

الأدبى إلى عصرنا الحاضر .

ومن المعلوم أن الألفاظ تبع للأفكار ، وهذه الأفكار التى جـاء بها طرفة لاتحتاج إلى العويص والحوشى من الألفاظ ، ونستثنى من هذا الكلام الجزء الأول فى المعلقة الذى وصف فيه ناقته فقد أكثر طرفة فى هذا الجزء من الألفاظ الحوشية والغريبة ، وتأتى غرابة هذه الألفاظ بسبب عدم استعمالها فى الوقت الحاضر ... " .

وعلى الجملة فإن طرفة قد احتل منزلة فنية رفيعة بين شعراء العصر الجاهلى ، لقد كان من مقدمى الشعراء فى عصره ، لما امتاز به من دقة الملاحظة ، ورقة الشعور ، وصدق العاطفة ، وروعة الخيال ، وقوة التعبير ، وجمال التصوير ، وسهولة الأسلوب .

وطرفة على الرغم من قصر المدة التى عاشها فإن الحق يقتضينا أن نقول إن فيضه الفنى كان غزيرا ، حتى لقد ملأت شهرته الآفاق ، وقد عده كثير من القدماء من الفحول المعدودين .

سئل لبيد : من أشعر الناس ؟ فقال : الملك الضليل (يقصد امـرأ القيـس) قيل : ثم من ؟ قال : الغلام (يقصد طرفة) قيل: ثم من ؟ قال : الشيخ أبو عقيل (يقصد نفسه) .

وقال عنه الجمحى :

" فاما طرفة فأشعر الناس واحدة " يقصد بذلك المعلقة .

هذه هى معلقة طرفة ، وهى على ما رأيت تعد من أجود المعـلقات . وفى رأينا أنه لو كان لطرفة من الشعر ما يقارب فى الكـثرة شعر الأربعة المقدمين (امرئ القيس ، وزهير ، والـنابغة ، والأعشى) لوضع معهم ، أو لفضلهم جميعا ، وإنما لم يصل الينا من شعره إلا القليل بالقياس إلى ماضاع منه ، وهذا هو السبب فى وضعه فى الطبقة الرابعة كما فعل ابن سلام .

* * *

قصيدة عروة بن الورد
فى الصعلكة

أولا :

نشأته وحياته : [١]

هـو :عروة بن الورد بن زيد ، وقيل ابن عمرو بن زيد ابن عبد الله بن هريم بن لديم بن عوذ بن غالب بن قطيعة بن عبس . أى من قبيلة عبس .

كان أبوه واحدا من شجعان قبيلته ، وفارسا من فرسانها، كما كان شريفا من أشراف قومه . لذا كان له دور لا ينكر فى حرب (داحس والغبراء) إلا أن العرب كانوا يتشاءمون به ، لأنه كان السبب المباشر فى وقوع الحرب بين عبس وفزازة .

أمـا أمـه فكـانت من نهد من قضاعة ، ولقد قيل عن عشيرتها إنها كانت ضعيفة لم تنل حظا من الشرف أو الخطر؛ الأمر الذى جعل عروة يحس بعار لا يمحى .

---

(١) انظر الأغانى : ٣ /٩١٩ ومابعدها . طبعة الشعب ، تحقيق الإبيارى .

وقد عبر هو بنفسه عن ذلك فقال [١] :

وما بى من عار أخال علمته

سوى أن أخوالى – إذا نسبوا – نهد

إن نسبه من جهة اخواله هو العار الذى لحق به ، وهو البلية التى حلت عليه ، تلك التى دفعته إلى أن يرفض المجتمع، ويثور على الأغنياء ثورة عارمة .

والذى يذكر لثورته هذه أنها لم تتسبب فى خلع قبيلته له ، ولم تكن منطلقا لسفك الدماء ، أو إلى التشرد فى مجاهل الصحراء ، الأمر الذى جعل عروة يظل مرموق الجانب فى بنى قومه بأسلوب كان مصدر إعجاب لكل معاصريه ومن جاءوا بعده .

ولذلك ظل مصدر فخر واعتزاز لقبيلته ، فأخذت تأتم به

---

(١) تاريخ الأدب العربى ، د/ شوقى ضيف (العصر الجاهلى) ص ٣٨٣ .

فى خلاله وخصاله ، لدرجة أن معاوية قال [١]:

" لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم"

وقال عبد الملك بن مروان : ما يسرنى أن أحدا من العرب ولدنى ممن لم يدنى إلا عروة بن الورد لقوله [٢]:

إنى امرؤ عافى إنائى شركة

وأنت امرؤ عافى إنائك واحد

أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى

بجسمى شحوب الحق والحق جاهد

أفرق جسمى فى جسوم كثيرة

وأحسو قراح الماء والماء بارد

وقد حكم عليه عبد الملك أيضا بأنه أجود من حاتم ،

---

(١) الأغانى : ٣ / ٩١٩ .

(٢) المصدر نفسه .

يقــول[١]: من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة ابن الورد " .

وتذكــر جميــع التراجم التي تحدثت عن حياته أنه شعر بالظــلم والأسى منذ صغره ، فأبوه من جهته يؤثر ابنه الأكبر عــلى عــروة في كل شيء ، وعروة من جهة أخرى لا يؤثر نفسه بأدنى شيء على من يرعاهم ! وهذا هو سبب ثورته .

لقد جمع حوله الصعاليك ، وأخذ يقوم بأمرهم إذا أخفقوا في غــزواتهم ولــم يكن لهم معاش ولا مغزى ، ومن ثم لقب بعروة الصعاليك .

وقيل لقب عروة الصعاليك لقوله [٢]:

لحى الله صعلوكا إذا جــن ليله

مصافي المشاش آمنا كــل مجزر

(١) المصدر نفسه : ٩٢٠/٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٩١٩/٣ .

يعد الغنى من دهره كـــل ليلـــة

أصاب قراها من صديـــق ميسر

و لله صعلوك صحيفة وجهــــة

كضوء شهـــاب القابس المتنـــور

لقـــد أعلن عروة الثورة على الأغنياء ، وأخذ يعلن تعاطفه مـــع الناس ، فإذا ما أصاب الناس جدب نجده يجمعهم ويحفر لهم الأسراب ، ويكنف عليهم الكنف ، ويتولى هو بنفسه أمور كسبهم ، ومن قوى منهم خرج معه فأغار به .

لكن الذى يذكر له أن ثورته كانت مهذبة ، لم تتحول إلى نهب وسلب ، ولم يتحول هو إلى قاطع طريق أو سافك دماء ، وإنمـــا كـــان كـــل هدفه أن يعين المحتاجين والفقراء من بنى قومه، وفى المقابل كان لا يغير على الغنى الكريم الجواد الذى يـــبذل مـــن كرمه للفقراء والمحتاجين وإنما يتخير لغارته هذا الصنف من الأغنياء الذين يعرفون بالشح والبخل ولا يقدمون يد المساعدة للمحتاجين والفقراء .

لذلــك يمكـــن القــول إن صعلكة عروة كانت ضربا من ضـــروب التضـــامن الاجتماعى ، لقد كانت تهدف فى المقام الأول إلى أن تســود المروءة ، ويسود البر ، ويعم الخير كل الناس .

يقـــول صـــاحب الأغـــانى : " كان عروة بن الورد إذا أصـــابت الناس سنة شديدة تركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة بن الورد يجمع أشباه هؤلاء من دون الـــناس من عشيرته فى الشدة ثم يحفر لهم الأسراب ، ويكنف عليهم الكنف ، ويكسبهم ، ومن قوى منهم – إما مريض يبرأ مـــن مرضه ، أو ضعيف تثوب قوته – خرج به معه فأغار ، وجعـــل لأصـــحابه الباقين فى ذلك نصيبا ، حتى إذا أخصب الـــناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى ، فلذلك سمى عروة "الصعاليك" .

هذه هى فلسفة عروة الاجتماعية والاقتصادية ، تلك التى آمـــن بهـــا ونصب نفسه للدفاع والذود عنها ، بل لقد خرج

حاملا سلاحه لتنفيذها وتطبيقها ، ولعل هذا على رأس الأسباب التي جعلت قبيلته (عبس) تأتم به فى خلاله وصفاته ، ولم لا وقد استطاع بشكل أو بآخر أن يجعل الصعلكة ضربا من ضروب السيادة والمروءة .

يقول الدكتور شوقى ضيف (١) :

" الحق أن عروة كان صعلوكا شريفا ، وأنه استطاع أن يرفع الصعلكة ، وأن يجعلها ضربا من ضروب السيادة والمروءة ، إذ كان يستشعر فى قوة فكرة التضامن الاجتماعى، ومايطوى فيها من إيثار وبر بالفقراء ، فهو لا يسعى لنفسه فحسب ، وإنما يسعى قبل كل شئ للمعوزين من عشيرته ، حتى يدفع عنهم كل مايجدون من بؤس وشقاء " .

ويحكى أنه خرج للإغارة مرة ليسد حاجة المعوزين فمنعته امرأته فما كان منه إلا أن عصاها وقال فى ذلك .

---

(١) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) ص ٣٨٧.

يقول صاحب الأغانى [١]:

" قـــال ابـــن الأعرابى : أجدب ناس من عبس فى سنة أصـــابتهم فأهـــلكت أموالهم ، وأصابهم جوع شديد وبؤس ، فـــأتوا عـــروة بـــن الورد فجلسوا أمام بيته ، فلما بصروا به صرخوا وقالوا :

يـــا أبـــا الصـــعاليك أغثنا ، فرق لهم وخرج ليغزو بهم ويصـــيب معاشا ، فنهته امرأته عن ذلك لما تخوفت عليه من الهـــلاك ، فعصـــاها وخـــرج غازيـــا ، فمر بمالك بن حمار الفـــزارى ، ثـــم الشمخى ، فسأله أين يريد ؟ ، فأمر بجزور فـــنحرها فأكـــلوا مـــنها ؛ وأشار عليه مالك أن يرجع فعصاه ومضـــى حـــتى انتهى إلى بلاد القين ، فأغار عليهم فأصاب هجمة عاد بها على نفسه وأصحابه .

وقال فى ذلك :

أرى أم حنـــــان الغداة تلومنى

تخوفنى الأعداء والنفس أخوف

---

(١)الأغانى :٣/ ٩٢٧ ، ٩٢٨ .

تقول سليمى لـــو أقمت لسرنا

ولم تدر أنى للمقام أطـــــوف

لعل الذى خوفتنا من أمامنــــا

يصادفه فـــى أهلـــه المتخوف

وهى طويلة :

وقال فى ذلك أيضا :

أليس ورائى أن أدب على العصا

فيشمت أعدائى ويسأمنى أهلى

رهينة قعر البيت كـــــل عشية

يطيف بى الولدان أهـــدج كالرأل

أقيموا بنى لبنى صدور ركابكــم

فكل منايا النفس خير من الهزل

فإنكم لن تبلغوا كـــــل همتى

ولا أربى حتـــى تروا منبت الأثـــل

لعل ارتيادى فى البلاد وحيلتى

وشدى حيازيم المطيـــة بالرحــل

سيدفعنى يوما إلى رب هجمة

يدافع عنها بالعقوق وبالبخــل

ومروءة عروة هى المروءة الجاهلية الأصلية ، فهو وإن كان يغزو ويتصعلق فإنما ليحقق للمحتاجين سبل الحياة الكريمة .

يقول صاحب الأغانى (١) :

" .... فلذلك سمى عروة الصعاليك ، فقال فى ذلك بعض السنين وقد ضاقت حاله .

لعل ارتيادى فى البلاد وبغيتى

وشدى حيازيم المطية بالرحل

سيدفعنى يوما إلى رب هجمة

يدافع عنها بالعقوق وبالبخــل

---

(١) الأغانى : ٣/٩٢٥ ، ٩٢٦ .

فزعموا أن الله عز وجل قيض له وهو مع قوم من هلاك عشيرته فى شتاء شديد ناقتين دهماوين ، فنحر لهم إحداهما ، وحمل متاعهم وضعفاءهم على الأخرى ، وجعل ينتقل بهم من مكـــان إلى مكان ، وكان بين النقرة والزبدة فنزل بهم مابينهما بموضع يقال له : ماوان .

ثم إن الله عز وجل قيض له رجلا صاحب مائة من الإبل قد فر بها من حقوق قومه -- وذلك أول ما ألبن الناس -- فقتله وأخـــذ إبلــــه وامرأته ، وكانت من أحسن النساء ، فأتى بالإبل أصحاب الكنيف فحلبها لهم وحملهم عليها ، حتى إذا دنوا من عشيرتهم أقبل يقسمها بينهم وأخذ مثل نصيب أحدهم ، فقالوا : لا والـــلات والعزى لا نرضى حتى تجعل المرأة نصيبا فمن شاء أخذها ، فجعل يهم بأن يحمل عليهم فيقتلهم وينتزع الإبل مـــنهم ، ثم يذكر أنهم صنيعته وأنه إن فعل ذلك أفسد ما كان يصـــنع ، فأفكر طويلا ثم أجابهم إلى أن يرد عليهم الإبل إلا راحلة يحمل عليها المرأة حتى يلحق بأهله ، فأبوا ذلك عليه ، حـــتى انـــتدب رجل منهم فجعل له راحلة من نصيبه ، فقال عروة فى ذلك قصيدته التى أولها :

ألا إن أصحاب الكنيف وجدتهم

كما الناس لما أمرعوا وتمولوا

وانى لمدفوع إلــــى ولاؤهــم

بماوان إذ نمشى وإذ نتملمــل

وإنى وإياهم كذى الأم أرهنت

له ماء عينيها تفدى وتحمــل

فباتت بحــد المرفقين كليهما

توحوح مما نالها وتولــــول

تخير من أمرين ليسا بغبطة

هو الثكل إلا أنها قد تجــمل

..... "

لقــد انعكســت ظروف الفقراء والمساكين على نفس عــروة قوة وصرامة وجلدا ، ولذلك عظمت قوى الصعلكة فى نفســه ، حــتى صار من أوفر الناس احتمالا ، وصار يفرح بالغزو لما فيه من راحة لكل المحتاجين .

أبيـــات القصيدة

أقِلّى علىّ اللـــومَ بابنـــة مُنـــذِرِ

ونامى فإن لم تشتهى النوم فاسهَرى(١)

ذرينى ونفسى أُمّ حسّـــان إننـــى

بها قبل ألا أملكَ البيع مُشترى(٢)

---

(١) ابـــنة مـــنذر : هى سلمى زوجة عروة ، وتكنى" أم وهب " ، وكان قد سباها من كنانة حين أغار على مزينة ، واستقاها ورجع بها وهو يقول :

تبَغَّ عديا حين حلّت ديارهـــا .. وأبناء عوف فى القرون الأوائل

فإلا أنلْ أوساً فإنّـــىَ حسبها .. بمنبطح الأدغال من ذى الشلائل

ثم أقبل سائرا حتى نزل ببنى النضير ، فلما رأوها أعجبتهم فسقوه الخمر ، ثم استوهبوها منه فوهبها لهم ، فلما أصبح وصحا ندم فقال :

* سقونى الخمر ثم تكنفونى *

الأبيـــات . وجلاها النبى صلى الله عليه وسلم مع من جلا من بنى النضير (الأغانى : ٩٢١/٣) . ويقال إن عروة أعتقها وصارت أم أولاده .

(٢) ذرينى اتركينى وشأنى . أم حسان : كنية لامرأته سلمى . البيع : بمعنى الشراء .

أحاديثَ تبقى والفتى غيرُ خالدٍ

إذا هو أمسى هامةً تحتَ صُيَّر(٣)

تُجاوِبَ أحجارَ الكِناسِ وتشتكى

إلى كلِّ معروفٍ تراه ومُنكَر(٤)

ذَرينى أُطوِّف فى البلادِ لعلنى

أُخليك أوأُغنيك عن سوء مْحضرِ(٥)

فإن فاز سهمٌ للمنية أكن

جَزوعاً وهل عن ذاك من متأخر؟(٦)

---

(٣) أحاديث : يجوز فيها النصب على أنها مفعول (لمشترى) فى البيت السابق . ويجوز فيها الرفع على الاستئناف . الهامة : المقصود بها روح القتيل الذى لم يثأر له ، وكانت العرب تزعم أنها تصيح عند قبر المقتول وتقول : (اسقونى ، اسقونى) فإذا أخذ بثأره طارت . الصبر : القبر.

(٤) تجاوب : أجابتها وردت عليها . الكناس : اسم لموضع من المواضع ، يريد أن يقول إن الهامة إذا صوتت أجابتها أحجار الكناس فلكأنها صدى لصوتها.

(٥) أخليك : أتخلى عنك ، بمعنى أقتل عنك.

(٦) فاز سهم : أى خرج أو لا ، أى أنه جعل من سهام الميسر مثلا له فى مقارعته الموت .

وإن فاز سهمى كَفَّكم عن مقاعِدٍ

لكم خلفَ أدبارالبيوتِ ومنظر (٧)

تقولُ: لكَ الويلاتُ هل أنت تاركٌ

ضبُوءًا برجْلٍ تــارةً وبمنسَر (٨)

ومُستثبتٌ فى مالِكَ العــامَ أننى

أراكَ على أقتاد صَرماء مُذكِر (٩)

---

(٧) فــاز سهمى ، المراد بها ما قلناه فى البيت السادس ، وأدبار البيوت : معناها أن الضيف كان إذا نزل بقوم ينزل بأدبار البيوت حتى يعد له مكانا.

(٨) الضبوء : الغزو ، وافتراش الأرض والاستتار ليختل الصيد . والرجل: جمع راجل ضد راكب ، والرجل بفتح الراء وسكون الجيم بمعنى الرجالة ، والمنسر : الجماعة من الخيل بين الثلاثين والأربعين .

(٩) مســتثبت : ثــابت مستقر . أقتاد صرماء مذكر : أى أراك على خطر عظيم .

والصــرماء : الناقة التى انقطع لبنها فيقوى ويشتد لحمها ، والمذكر : التى تلد الذكور ، على أنه عند العرب من أفظع النتاج وأبغضه.

فجوعٌ بهـــا للصالحين مَزَلَّــةٌ

مَخوفٌ رَداها أن تصيدك فاحذر (١٠)

أبَى الخفضَ مَن يغشاكِ من ذى قرابة

ومن كل سوداءِ المعاصمِ تَعتَرى (١١)

ومستهنيٍ زيدٌ أبــوه فــــلا أرى

له مَدفَعاً فاقْنَىْ حياءَكِ واصْبرى (١٢)

---

(١٠) فجــوع : تفجع الناس ، أى يتفجع الناس بالصرماء .الصالحون : أهل المعروف . مزلة : تزل بأصحابها .

مخوف : يخاف الهلاك من قبلها .

(١١) الخفــض : الدعــة ولين العيش . يقال: هم قوم خافضو العيش ، إذا كانوا فى رغد من العيش مقيمين على الماء .

وسوداء المعاصم : المراد بها تلك التى أجهدها الجوع والهزال .

وتعترى : بمعنى تغشى .

(١٢) مســتهنئ : طالب للعطاء ، وهو معطوف على ذى قرابة .زيد أبوه : زيد من أجداد عروة ، يريد أنه قريبه .

أقنى حياءك : احفظيه وصونيه .

لحى اللهُ صعلوكاً إذا جَــنّ ليلُهُ

مُصافى المُشاش آلفاً كل مَجزر[١٣]

يَعُدّ الغنى من دهره كـــلّ ليلــة

أصابَ قِراها من صديقٍ ميسّر[١٤]

قليلُ التماسِ المـــالِ إلا لنفسه

إذا هو أضحى كالعريشِ المجـوّر[١٥]

---

(١٣) لحى : قبح ولعن . ولحى الله : كلمة تستعمل فى السب .
والصـــعلوك : المراد بها هنا الصعلوك الفقير . والمشاش : رؤوس العظام اللينة ، وكل عظم هش دسم . والواحد مشاشة .
والمجـــزر : موضـــع الجزر الذى هو النحر . وقوله : مصافى المشاش " نكرة، وانتصب على أنه صفة لقوله صعلوكا .

(١٤) قراها : طعامها . ميسر : الغنى الموسر الذى كثرت إبله .
وبسر الرجل : سهلت ولادة إبله وغنمه ، ولم يعطب منها فى الولادة شيء.

(١٥) العريش : خيمة من الخشب أو الجريد .
المجور : الساقط .

ينام عِشاءً ثم يصبحُ قاعــــدًا

يَحُتّ الحَصى عن جنبه المتعفِّر (١٦)

يُعينُ نساء الحــــى مايَستعِنَّه

فيضحى طليحـــاً كالبعير المحسَّر (١٧)

و لله صعلـــوك صفيحــــةُ وجهِـــه

كضوء شِهابِ القابس المتنوِّر (١٨)

---

(١٦) يحـــت : يحرك ، و هذا يدل على أن هناك ما يشغله . وقوله : " يحت الحصى " أى يسقطه ، فهو قريب من يحط .

و العفر : التراب .

(١٧) الطليح : المعيى . و المحسر : مثله ، يقال : حسرت الدابة إذا أصابها الكلل و الاعياء ، حتى حسرها السير .

(١٨) صفيحة الوجه : بشرته ، أى بشرة الجلد أو عرض وجهه .

و الشـــهاب : شعلة من نار ساطعة . و القابس : الذى يقبس النار و يأخذها . و القـــبس : الـــنار ، ويكون القابس : الطالب و المتنور : المتفعل مع النار و المضئ .

مُطِلاًّ على أعدائه يَزجـــرونه

بساحتِهم زَجرَ المَنيـــح المشهَّر (١٩)

إذا بَعُدوا لا يأمنـــون اقترابـــه

تشوُّفَ أهـــل الغائـــب المتنظَّر (٢٠)

فذلك إن يلقَ المنيّـــةَ يلْقَهـــا

حميدا وإن يستغنِ يوماً فأجدرِ (٢١)

---

(١٩) مطلا: مشرفا ، أى له على أعدائه سطوة يهجم عليهم ويغزوهم أبدا .
يزجرونه : يصيحون به كما يزجر القدح إذا ضرب .
المنيح : قدح سريع الخروج . المشهر : المشهور .

(٢٠) بعدوا : أى بعد الأعداء ، لا يأمنون اقترابه : أى لا يأمنون غزوه ، فهم ينتظرونه فى كل حين كما يتشوق أهل كل غائب عودته.
تشوف : تطلع . المنتظر : المنتظر قدومه .

(٢١) المنية : المـوت . أجدر : أى أجدر به من رجل همام أدرك غايته ومناه .

أيهلكُ مُعتم وزيـدٌ ولـــم أقُـمْ

على نُدَب يوما ولى نفس مُخطر(٢٢)

سيفزع بعد اليأس من لا يخافُنا

كواسع فى أُخرى السّوام المنفَّر(٢٣)

نطاعن عنها أول القوم بالقنـــا

وبيضٍ خفافٍ وقعهــن مشهَّـــر(٢٤)

فيوما على غارات نجــــد وأهله

ويوما بأرض ذات شَثٍّ وعرعر(٢٥)

---

(٢٢) معتم وزيد : بطنان من بطون عبس ، وهما أجداده.

الندب : الخطر .

(٢٣) كواسع : خيل تطرد الإبل وتكسعها .

السوام : الإبل السائمة . أخرى السوام : آخرها . المنفر : المذعور .

(٢٤) البيض : السيوف :يقول الدكتور شوقى ضيف : " وفى البيت إقواء . وروايــة الديوان : ذات لون مشهر ، ولو صحت لم يكن فى البيت إقواء " (تاريخ الأدب العربى – العصر الجاهلى ص ٣٨٧) .

(٢٥) الشث والعرعر: نوعان من أنواع الأشجار المنتشرة فى البادية.

يناقلن بالشُّمطِ الكِرام أُولى النُّهى

نقابَ الحجازِ فى السريح المسَّير(٢٦)

يُريح علىّ الليلُ أضيافَ ماجـدٍ

كريمٍ ومالى سارحًا مـالُ مُقتر (٢٧)

* * *

(٢٦) يناقلن : يتنقلن بسرعة . الشمط : جمع أشمط ، وهو الذى خالط سواد شعره بياض . والنقاب : الطرق الضيقة .

والسريح : السيور تشد بها النعال. المسير : الذى جعل سيورا .

(٢٧) يـريح : يـرد . والمقصود بالماجد الكريم الشاعر ، كما أن المقصود بماله إبله . سارحا : سائما فى المراعى . مقتر : فقير مقل.

التعليق والشرح

أولا : المناسبة :

يتـــناول عـــروة فى أبياته السابقة عدة توجهات قوية الصلة ببعضها ، وكلها لها قيمتها فى تصوير نفسيته المضطربة ، كما أن لها أهميتها فى تصوير البيئة التى كان يعيش فيها .

إنه – وهو المدفوع إلى الثورة بحكم شجاعته وشرف نسـبه – يـتوجه إلى امـرأته سلمى ابنة منذر ، تلك التى كانت تلومه على كثرة مخاطراته ومغامراته ، فيخبرها أنه إنما يفعل ذلك من أجلها ، وأنه إنما يلجأ إلى ذلك لما عليه مـن واجـبات وحقوق لطلاب العطايا من الضعفاء ، من فقراء ، ونساء ومحتاجين يطلبون العطاء .

ثـم ينـتهزها فرصة يوضح فيها صور الصعاليك ، ويرسم من خلال ذلك كله سياسته ووجهة نظره ، وأنه إنما يغـزو لا ليـنال من فضلات الموسرين ، وإنما يغزو من أجـل الوفاء بحقوق الطبقات الاجتماعية المطحونة ، فمثل هـذا الـلون من ألوان الصعلكة فى نظر عروة هو الجدير بكل ثناء وتشجيع من الزوجة وغير الزوجة .

السمات والخصائص الفنية :

تعد أبيات عروة بن الورد من أروع الأبيات التي تعكس مذهب شاعر في الحياة ، وهي لما انطوت عليه من فكر ومذهب تعد من أمتع ماجادت به قريحة الشاعر .

ولعل هذا هو السبب الذى جعل الشعراء يأتمون بشعر عروة ، يقول الأصفهاني[1] :

" أخبرني أحمد بن عبد العزيز قال حدثني عمر بن شبه قال :

بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للحطيئة : كيف كنتم في حربكم ؟

قال : كنا ألف حازم .

---

(١) الأغاني : ٣ / ٩٢٠ .

قال : وكيف ؟

قال : كان فينا قيس بن زهر ، وكان حازما ، وكنا لا نعصـــيه ، وكـــنا نقدم إقدام عنترة ، ونأتم بشعر عروة بن الورد ، وننقاد لأمر الربيع بن زياد " .

والشـــاعر يســـتهل أبياته بتوجيه الخطاب إلى زوجته ســـلمى ، تـــلك الـــتى استمرأت توجيه اللوم له على كثرة مخاطراته ومغامراته فى الحروب والغزوات .

وقد رد عليها طالبا إياها أن تتركه ليحقق لنفسه المجد الذى يرجو ، والذكر الذى يأمل ، قبل أن يأتى وقت يحال فيه بينه وبين ذلك كله ، حتى تبقى ذكراه خالدة ، وأنشودة ترددها الأجيال من بعده .

إنـــه إنســـان لا يهـــاب الموت ، فلتتركه هذه الزوجة يطـــوف فى البلاد ، فلعل ذلك يحقق ما يصبو إليه ، الذى مـــن بيـــنه أنه يريد أن يغنيها عن ذل السؤال ، حتى لا

تشعر بالحاجة من بعده .

لكنها تخاطبه مشفقة عليه قائلة إنك لن تنتهى عن هذه الغارات وتلك الفروسية بالصعاليك من الراجلين تارة ، ومن الفرسان تارة أخرى ، وجدير بك أن تكف عن ذلك وتتأبى عليه حتى لا تلقى حتفك .

لكنه يرد عليها بأنه لا يستطيع القعود عن الغزو كما تريد : لأن عليه واجبات متعددة ، وحقوقا خصها لأقربائه المحتاجين من قبيلته ، ونسائها المعوزات ، وغير هذا وذاك من العفاة طلاب العطاء من الضعفاء ؛ إنه يصنع غاراته ، ويقوم بغزواته من أجل الوفاء بحقوق هؤلاء جميعا ، وإلا فماذا تصنعين لمن يطرق بابك من أقارب ، أو ضيوف ؟ .

ثم ينتهزها فرصة ويأخذ يعرض على زوجته صورتين من صور الصعلكة ، صورة رديئة لا يتفاخر بها، وصورة أخرى جيدة يمكن للمرء أن يتباهى بها ويتفاخر .

وأخذ يفسر هذه الصورة الأولى ، وهى صورة الصعلوك الخامل الذى يقنع بأن ينال أكلة من فتات الموائد، لا يهمه أهله ولا عياله ، ولا يشغله بحال من الأحوال قوتهم ، فمثل هذا اللون من الصعاليك إنما هو صعلوك ضعيف الهمة ، ينام ملء جفونه ذليلا خاملا .

والشاعر يصرح بذلك على سبيل الإنكار ، إنه يقول : إن ذلك الصنف من الصعاليك ، الذى يرضى من عيشه بأن يطوف فى المجازر يلتقط الفتات ، كأنه يصافيها ويلازمها حبا لعل الله يزيده فقرا !!.

ينام هذا الصعلوك لفرحه بما يناله من كسبه الدنىء ، فهمته فى راحته ونومه ، وحرصه على مايسد به جوعه ومثل هذا الصنف يحيا حياة وضيعة لا أمل فيها ، ولا فائدة ترتجى منها .

أما الصعلوك الشريف الذى يعجب به عروة فهو صعلوك مشرق الوجه بما قام به من أعمال مجيدة ،

لايتخشع لفقره ، ولا يتذلل إذا أثر الدهر فيه ، لايزال يخافه أعداؤه ويهابونه ، لأنه يظفر منهم بكل ما يريد ، لذا ينتظرونه انتظار أهل الغائب له .

مثل هذا الصعلوك المغامر الجرئ إن أدركه الأجل قبل نيل الأمل لقيه محمودا ؛ لأنه قد فعل ما وجب عليه .

ثم يحدد عروة أسباب مغامراته وغزواته . وهو أنه خلق لرعاية الضعفاء ، فلابد أن يغزو من أجلهم ، ولابد وأن يقتحم مع رفاقه من الصعاليك الفرسان حمى بعض القبائل ليغنم معهم مايقدمه للضيفان ، تلك الغنائم التى لا يبقى منها على شىء فى يده .

وقد قدرته قبيلة عبس ، فرأت أنه أشعر الشعراء .

يؤكد بروكلمان ذلك فيقول (١) :

---

(١) تاريخ الأدب العربى : ١ /١٠٩ ط ٣ .

" عـروة بـن الـورد بن حابس العبسى – كاد يدرك الإسـلام ، وهو شاعر بدوى قح ، ورويت له أشعار أكثر ممـا روى لـتأبط شـرا والشنفرى ، وإن كان دونهما فى تصوير حياة الجاهلية ، وكان لأبيه مقام محمود فى حرب داحس ، ومن أجل ذلك مدحه عنترة .

وكـانت أمـه من بنى أسد ، وهم ليسوا من أشراف القـبائل ، فغض ذلك من منزلته ، وكان بنو عبس يقدرون عنـترة حق قدره بطلا أكثر منه شاعرا ، على حين كانوا يرون عروة أشعر الشعراء ".

ومـن الملاحـظ أن أبيات عروة قد خلت من المقدمة الطلـلية ، ومـن وصـف الناقة وسيرها ، ولعله – وهو الشـاعر الجاهـلى – قـد خلا شعره من طريقة الشعراء الجاهليين ومن كل تلك المقدمات التقليدية التى نعرفها فى الشعر القديم .

وشـعر عـروة الذى بين أيدينا يتسم بسهولة اللفظ ،

وجـــلاء المعـــنى ، والـــبعد عن الغرابة اللفظية ، ويرجع السـبب فى ذلـــك إلى أنه لم يتوجه بشعره للتكسب وطلب المـــال أو الاعتذار ، وإنما نحن نراه قد سخر شعره للقيام بـــدور اجتماعى ينشد حياة جديدة كلية ، يطلب من الناس مساعدته فى تأسيسها .

لقد كان من الطبيعى أن يتسم أسلوب عروة بالبساطة لــكى ترســـخ أشـــعاره فى عقـــول الجمهور الذى يخاطبه ويحـــرص على مخاطبته ، ولن يتحقق له ذلك إلا بسهولة الـــلفظ والـــلغة ، وحسن الجرس ، وجلاء المعنى ، والبعد عن التكلف والإغراب بكل صوره وأشكاله .

لـــم يكن عروة صعلوكا فارسا جوادا فحسب ، وإنما كان من شعراء العرب الموهوبين الذين يترجمون عن كل ما يعن لهم فى حياتهم ، فهو شاعر يعيش فى الواقع ، ويعبر عن نفسه من خلال تعبيره عن هذا الواقع ، كل ذلك فى ترجمة صادقة ، وأمانة بعيدة عن الخيال ، وعن كل ألوان الأوهام .

يقول ابن الأعرابى[١] :

" كان عروة قد سبى امرأة من بنى هلال بن عامر بن صعصعة يقال لها : ليلى بنت شعواء ، فمكثت عنده زمانا وهى معجبة له تريه أنها تحبه .

ثم استزارته أهلها فحملها حتى أتاهم بها ، فلما أراد الرجوع أبت أن ترجع معه ، وتوعده قومها بالقتل فانصرف عنهم ، واقبل عليها فقال لها : ياليلى ، خبرى صواحبك عنى كيف أنا ، فقالت ما أرى لك عقلا ! أترانى قد اخترت عليك وتقول : خبرى عنى !

فقال فى ذلك :

تحن إلى ليلى بجو بلادها

وأنت عليها بالملا كنت أقدرا

---

(١) الأغانى : ٣/ ٩٢٦ ، ٩٢٧ .

وكيف ترجيها وقد حيل دونها

وقد جاوزت حيا بتيماء منكرا

لعلك يوما أن تسـرى دامة

على بما حشمتنى يوم غضـورا

قال :

ثم إن بنى عامر أخذوا امرأة من بنى عبس ثم من بنى سحين يقال لها أسماء ، فما لبثت عندهم إلا يوما حتى استنقذها قومها ، فبلغ عروة أن عامر بن الطفيل فخر بذلك وذكر أخذه إياها ، فقال عروة يعيرهم بأخذه ليلى بنت شعواء الهلالية :

إن تأخذوا أسماء موقف ساعة

فمأخذ ليلى وهى عذراء أعجب

لبسنا زمانا حسنها وشبابها

وردت إلى شعواء والرأس أشيب

كمأخذنا حسناء كرهـــا ودمعها

غداة اللوى معصوبـــة يتصبب

ومـــثل هـــذه المواقـــف التى قال فيها عروة الشعر – كثيرة جدا ، ومن ينظر كتاب " الأغانى " يرى بعض هذه الاستشـــهادات الـــتى تعيـــن على التدليل لهذا الحكم الذى حكمنا به على عروة .

وعـــروة شاعر صعلوك مثالى ، تفيض أشعاره بأحاديث القوة والشجاعة ، تلك التى كان يتمتع بحظ وافر منها .

يـــنقل لـــنا صورة رائعة له ولأصحابه وهم يقتحمون حـــمى بعـــض القـــبائل ليسوقوا منها مايشاءون من الإبل الســـائمة ، فيهجمـــون تارة فى نجد ، وتارة فى الحجاز ، ويدفعون عن هذه الإبل أصحابها الذين خرجوا خلفها .

لنستمع إليه يقول :

أيهلك معتم وزيد ولـــم أقـــم

على ندب يوما ولى نفس مخطر

سنفزع بعد اليأس من لا يخافنـــا

كواسع فى أخرى السوام المنفر

نطاعن عنها أول القــوم بالقنـــا

وبيض خفاف وقعــن مشهـــــر

ويوما على غارات نجد وأهلــه

ويوما بأرض ذات شث وعرعر

يريح على الليل أضياف ماجــد

كريم ومالى سارحا مـــال مقتـــر

هـــذا هو عروة بن الورد ، الصعلوك الشريف ، وهذا هـــو مـــنهجه كصــــعلوك ، لقد استطاع وبكل المقاييس أن يجعل الصعلكة ضربا من ضروب السيادة والمرءوة .

ولعـــروة مقطعـــات شـــعرية تفيض بما يملأ نفسه ، ويـــثيرها إلى الإقدام ، إنه كواحد من كرماء العرب يدور

محـــور تفكيـــره حول إكرام المحتاجين ، فهم يأنسون به ، وهـــو مـــن جهـــته يفـــند تـــلك الشدائد التى دفعت به إلى التصـــعلك فى صراحة تقنعه ذاته ، ولا تقنع غيره ممن لم يمارس المهنة :

قلت لقوم فى الكنيف تروحـــوا

عشية بتنا عند ماوان رزح

تنالوا الغنى أو تبلغوا بنفوسكـــم

إلى مستراح من حمام مبرح

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا

من المال يطرح نفسه كـــل مطرح

ليبلغ عذرا أو يصيب رغيبة

ومبلغ نفس عذرها مثل منجـــح

لعلكم أن تصلحوا بعد ما أرى

نبات العضـــاة الثائـــب المتـــروح

ينوءون بالأيدى وأفضـــل زادهـــم

بقية لحم من جزور ملمـــح

ومـــن يـــنظر مقطعاته الشعرية يجد أنها تجمع شتات الجمال وأفنانه ، فمع أنه يميل فى كل أشعاره إلى التحليل والتعليل ، والتقرير ، نحن نجده يخرج عن هذا الإطار فى مثل قوله الذى خاطب فيه سلمة بن الخرشب الإنمارى .

يقول :

أخذت معاقلها اللقاح لمجلس

حول ابن أكثم من بنى أنمار

ولقد أتيتكم بليـــــل دامـــس

ولقد أتيت سراتكـــم بنهـــار

فوجدتكم لقحـــا حبسن نجله

وحبسن إذ صرين غيرغزار

منعوا البكارة والإفال كليهما

ولهم أضن بأم كل حوار

انه لا يصف ضخامة أجسادهم ولا بطانة بطونهم وإنما يأخذ فى وصف الإبل اللقاح تلك التى ثقلت بأجنتها فهى ضخمة بطيئة الحركة .

وفى البيت الثانى الذى يقول فيه :

ولقد أتيتكم بليل دامس

ولقد أتيت سراتكم بنهار

نجده لا يتعرض لكرمهم وجودهم وبخلهم عن طريق التقرير والواقعية وإنما راح يصور ذلك كله عن طريق الإيحاء والكناية .

فأين معنى هذه الأبيات من هذه المقطوعة التى جاءت معانيها مباشرة تقوم على التقريرية .

لنستمع إليه يقول : -

إذا المرء لم يطلب معاشا لنفسه

شكا الفقرأو لام الصديق فأكثرا

وصار على الأدنين كــلا وأوشكت

صلات ذوى القربى لــه أن تنكرا

وما طالب الحاجات من كل وجهــة

من الناس إلا من أجــد وشمرا

فسر فى بــلاد الله والتمس الغنى

تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا

وقــد يجمـــع عروة فى أبياته بين التقريرية و الإيحاء وتكثيف المعنى و اللمح كما فى قوله :

دعينى للغنى أسعى فإنى رأيت الناس شرهم الفقير

وأبعدهم وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسـب وخير

ويقصيه الندى وتزدريه حليلته وينهـــره الصغير

ويلقى ذو الغنى وله جلال يكاد فؤاد صاحبــــه يطير

قليل ذنبه والذنــــب جـــم ولكـــن للغنى رب غفـــور

وقوله :

إذا ما هبطنا منهلا فى مخوفـــة

بعثنا ربيئا فى المرابئ كالجدل

يقلب فى الأرض الفضاء بطرفه

وهن مناخات ومرجلنـــا يغلـــى

هكـــذا كان عروة فى شعره ، يتحدث عن مشاكله ، وعن معاناتــــه من القهر والحرمان ، ويدفعه ذلك كله إلى أن يصور كـــرمه فى واقعيـــة مستمدة من البيئة التى ينشأ ويتربى فيها ، بما ينبئ عن مسئوليته التى يستشعرها تجاه الآخرين .

قصيدة لبيد

المعلقة

أولا : وصف الأطلال والدمن

عَفَتِ الديار مَحَلُّها فمقامُها
بمِنًى تأبَّدَ غَوْلُها فرِجَامُهَـــا (١)
فمدافِعُ الريّان عُرِّيَ رسْمُها
خَلَقاً كما ضَمِنَ الوحِيَّ سِلامُهَا (٢)

---

(١) عفـــت الديار : انمحت . والفعل (عفا) يستخدم لازما ومتعديا وهو في البيت لازم . المحل من الديار : ما حل فيه لأيام معدودة ، أما المقام منها: فهو ما طابت الإقامة به . منى : موضع غير منى الحرم .
تـــأبد : توحش . والغول والرجام : جبلان معروفان ، والمقصود تأبد ديار غولها ورجامها ، فحذف المضاف .

(٢) المدافع : أماكن يندفع عنها الماء . الريان : واد ، أو جبل معروف .
الوحي : الكتابة ، والفعل وحى يحى ، والوحى الكتاب .
السلام : الحجارة ، والواحد سلمة بكسر اللام .

دِمَنٌ تَجَرَّمَ بعد عهدِ أَنيسهـــا
حِجَجٌ خَلَوْنَ حَلالُهَا وحرامها (٣)

رُزِقَتْ مرابيعَ النجوم وصَابَهَا
وَدْقُ الرواعِدِ جَوْدُهَا فَرِهَامُهَا (٤)

مِنْ كل ساريةٍ وغادٍ مُدْجِـــنٍ
وعشيَّةٍ مُتجاوِب إرزامُهـــا (٥)

---

(٣) التجرم : التكمل والانقطاع ، يقال : تجرمت السنة ، وسنة مجرمة أى مكملة . العهد : اللقاء . الحجج : جمع حجة وهى السنة . وأراد بالحلال أشهر الحل ، وبالحرام الأشهر الحرم .

(٤) مرابيع النجوم : الأنوار الربيعية ، وهى المنازل التى تحلها الشمس فصل الربيع وأمطار السحب . الصوب : الإصابة . الودق : المطر وودق الرواعد مطر السحب الراعدة . الجود : المطر التام العام .

الرواعد : ذوات الرعد من السحاب . الرهام : جمع رهمة وهى المطرة التى فيها لين .

(٥)السارية : السحابة الممطرة ليلا . المدجن : الملبس آفاق السماء بظلامه لفرط كثافته ، والدجن إلباس الغيم آفاق السماء . الإرزام : التصويت ، ويقال : أرزمت الناقة إذا رغت .

فَعَلا فُروعُ الأَيْهقَانِ وأَطْفَلت
بالجَلْهتين ظِباؤُها وَنعامهـــا (٦)
والعينُ ساكنةٌ على أطلائها
عُوَذاً تَأَجَّلُ بالفضاء بِهامُها (٧)
وجَلا السيولَ عن الطّولِ كأنها
زُبرٌ تُجِدُّ مُتونَها أقْلامُهـــا (٨)

---

(٦) الأيهقان : ضرب من النبت ، والعشب يطول .

أطفلت : أى صار لها أطفال . الجلهتان : جانبا الوادى .

(٧) العيـــن : واسعات العيون . الطلا : ولد الوحش حين يولد إلى أن يأتى عليه شهر ، جمعه أطلاء .العوذ : الحديثات النتاج ، الواحدة عائذ .

الإجل : القطيع من بقر الوحش .

والتأجيل : صيرورتها أجلا أجلا. البهام : أولاد الضأن إذا انفردت .

(٨) جلا: كشف . السيول : جمع سيل . الطلول : جمع طلل .الزبر : جمع زبور وهو الكتاب . تجد : من الإجداد والتجديد . والمتون: السطور.

أو رَجْعُ واشمة أُسِفَّ نَؤورُها

كِفَفاً تعرَّضَ فوقهن وشامُها [٩]

فوقفتُ أسألُها وكيف سؤالنا

صُمّاً خوالدَ ما يَبينُ كلامُها [١٠]

عَرِيَتْ وكان بها الجميعُ فأبكَروا

منها وغُودرَ نُؤْيُها وثُمامُها[١١]

---

(٩) الرجع : التردد . الوشم : غرز ظاهر اليد وغيره بإبرة وحشو المغارز بالكحل ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " لعن الله الواشمة والمستوشمة " الاسفاف : الذر . النؤور : ما يتخذ من دخان السراج والنار ، أى المداد. الكنف : كل شيء مستدير ، والدارة .

(١٠) خوالد : بواق . يبين : من بان يبين بيانا .

(١١) أبكروا : ساروا منه بكرة . النؤى : نهير يحفر حول البيت لينصب إليه الماء من البيت .
الثمام : ضرب من الشجر رخو يسد به خلل البيوت .

ثانيا وصف الظعائن

شاقَتكَ ظُعْنُ الحيِّ حين تحمّلوا

فتكنّسوا قُطُناً تَصِرُّ خِيامُهـــا (١٢)

من كل مَحفوفٍ يُظِلُّ عِصِيَّهُ

زَوجٌ عليه كِلةٌ وقِرامُهـــــا (١٣)

---

(١٢) الظعــن : النساء فى الهودج جمع ظعينة ، وقد يكون الظعن جمع الظعـــون : وهو البعير الذى عليه هودج وفيه امرأة . وتكنسوا قطنا : [illegible] أغطية الهوادج من القطن كما تدخل الظبية الكناس . تصر خيامهـــا : تصـــفر مـــن الســـرعة ، أو مـــن جـــذب الـــريح إياها ، والصرير:صوت الباب والرحل وغير ذلك .

(١٣) حف الهودج : وغيره بالثياب : إذا غطى بها ، وحف الناس حول الشـــىء أحاطوا به .أظل الجدار الشىء : إذا كان فى ظل الجدار . العصـــى هـــنا : عيدان الهودح . الزوج : النمط من الثياب . الكلة : الستر الرقيق . القرام : الستر .

زُجُلا كأن نعاجَ تُوضِحَ فوقها

وظِباءَ وَجْرَةَ عُطّفاً أَرْآمها (١٤)

حُفِزَتْ وزايلَها السرابُ كأنها

أجزاعُ بيشةَ أَثْلُها ورِضَامُها (١٥)

بل ما تَذَكّرُ من نَوَارَ وقد نأت

واقطعت أسبابها ورِمَامُها (١٦)

مُرِّيةٌ حَلّتْ بفيدَ وَجَاورتْ

أهلَ الحجاز فأين منك مرامُها (١٧)

---

(١٤) الزجل : الجماعات . النعاج : إناث بقر الوحش .
العطف : جمع العاطف الذى هو التزاحم ، أو من العطف الذى هو الثنى .
الأرآم : جم الرئم وهو الظبى الخالص البياض .

(١٥) الحفز : الدفع ، والفعل حفز يحفز . الأجزاع : جمع جزع وهو منعطف الوادى . بيشة : واد بعينه . الأثل : شجر يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منها . الرضام: الحجارة العظام ، والواحدة رضمة .

(١٦) نوار : اسم امرأة يشبب بها . النأى : البعد .الأسباب : الحبال .
الرمام: جمع الرمة وهى الحبال الخلقة الضعيفة .

(١٧) مرية : نسبة إلى مرة . فيد : بلدة معروفة . المرام : الطلب .

بمشارِق الجبلين أو بمَحَجَّرٍ

فتضمَّنتها فَرْدَةٌ فرُخَامُها (١٨)

فصوائِقٌ إن أيمنت فمِظَنَّةٌ

فبها وَحَافُ القهرِ أو طِلْخَامُها (١٩)

فاقطع لُبانةَ من تعرَّض وصلُهُ

ولشَرُّ واصِلِ خُلّةٍ صَرامُها(٢٠)

---

(١٨)الجبلين : جبلا طى (أجأ وسلمى) . المحجر : جبل آخر . فردة : جبل أخرى منفردة عن سائر الجبال ، وسمى بذلك لانفراده . رخام : أرض متصلة بفردة ؛ ولعله لذلك أضافها إليها.

(١٩) صوائق : موضع . أيمن الرجل : إذا أتى اليمن . مظنة الشيء: حيث يظن كونه فيه . وحاف القهر : موضع معروف . وطلخام : موضع معروف أيضا .

(٢٠)اللبانة : الحاجة . تعرض : تغير . الخلة: المودة المتناهية .وصرامها: قطاعها . أى قطعها أبقى للخلة ، والفعل صرم يصرم.

واحبُ المجاملَ بالجزيل وصَرْمُهُ

باقٍ إذا ظلَعَتْ وزاغَ قوامُهــا [٢١]

بطليحِ أسفارٍ تركْــنَ بقيةً

منها فأخنَقَ صُلْبُهَا وسَنَامُهَا [٢٢]

---

(٢١) حــبوته : بكــذا أحبوه حباء : إذا أعطيته إياه . المجامل : المصانع . ويمكن أن تكون (المحامل) : أى الذى يتحملك ويتحمل أذاك .

بالجــزيل : أى بــالود الجــزيل ، الفعل جزل يجزل ، والنعت جزل وجــزيل ، وقــد أجزل عطيته : وفرها وكثرها .الصرم : القطيعة . الظــلع : غمــز من الدواب . الزيغ : الميل ، والإزاغة هى الإمالة . قوام الشىء : ما يقوم به .

(٢٢) الطــليح : المــعيى ، وطليح فعيل بمعنى مفعول .أسفار:جمع سفر . الإخناق : الضمر .

ثالثا : وصف الناقة

وإذا تغالى لحمُهَا وتحسَّرتْ

وتقطعت بعد الكَلاَل خِدَامُهَا (٢٣)

فَلَها هِبَابٌ فى الزِّمام كأنها

صهباءُ خَفَّ مع الجَنوب جِهَامُهَا (٢٤)

أو مُلْمِعٌ وَسَقَتْ لأحقبَ لاحَهُ

طردُ الفحُول وضربُها وكِدامُهَـــا (٢٥)

---

(٢٣) تغـــالى : لحمها : ذهب وارتفع شحمه إلى رؤوس العظام . تحسرت : عيينــ أى صـــارت كالة عارية من اللحم . والخدام : جمع خدم ، والخدم جمع خدمة وهى السير من الجلد تشد بها النعال إلى أرصاغ الإبل .

(٢٤) الهـــباب : النشاط . والصهباء : هى السحابة الحمراء لما يصحبها من بـــرق ، مـــن حـــذف الموصوف : خف : يخف خفوفا : أسرع . الجهام : السحاب الذى أراق ماؤه .

(٢٥) الملمع : ألمعت الأتان فهى ملمع أى أشرق أطباؤها باللبن .
وسقت : حملت . والأحقب : العير الذى فى وركيه بياض . لاحه ، ولوحه: غيره .

يعلو بها حَدَبَ الإِكَام مُسَحَّجاً
قد رابه عصيانُها ووِحَامُها (٢٦)
حتى إذا سَلَخَا جُمَادى سِتة
جَزَآ فطال صيامُهُ وصيامُهـا (٢٧)
رجعا بأمرها إلى ذى مِرَّةٍ
حَصِدٍ ونُجْحُ صريمةٍ إبرامُها (٢٨)
ورمى دوابرَها السَّفا وتهيجتْ
ريحُ المصايِف سَوْمُها وسِهَامها (٢٩)
فتنازعا سَبِطاً يطيرُ ظلالُـهُ
كدُخانِ مُشْعَلةٍ يُشَبُّ ضِرامُها (٣٠)

---

(٢٦) حدبها : ما احدودب منها . الإكام : جمع أكم ، وكذلك الآكام والآكم جمع أكمة ، ويجمع الإكام على الأكم . السحج : القشر والخدش العنيف من العض ، والتسحيج مبالغة السحج . الوحام والوحم : اشتهاء الحبلى للشيء ، ومن أجله كان العصيان.

(٢٧) سلخ الشهر : مر عليه . جمادى : اسم للشتاء . الصيام الإمساك.

(٢٨) المرة : القوة . الحصد:المحكم .النجح: حصول المراد.الصريمة : العزيمة . الإبرام : الإحكام .

(٢٩) الدوابر مآخير الحوافر. السفا : ضرب من الشوك .تهيج : تحرك . المصايف جمع المصيف وهو الصيف.السوم:المرور.السهام : شدة الحر .

(٣٠) التنازع : كالتجاوب . السبط : الممتد الطويل . كدخان مشعلة : أي نار مشتعلة . الضرام : دقائق الحطب . سبطا : غبارا سبطا ، فحذف الموصوف .

مشمولةٍ غُلِثَتْ بنابت عرفَجٍ

كدُخَانِ نار ساطعٍ أسنامُهـــا[٣١]

فمضى وقدَّمها وكانت عادة

منه إذا هى عَرَّدت إقدامُها [٣٢]

فتوسطا عُرْضَ السّرِىِّ وصدَّعا

مسجورةً متُجاورا أقلامها [٣٣]

مخفوفةً وسْط اليراع يُظِلُّها

منه مُصَرَّعُ غابةٍ وقيامُها [٣٤]

---

(٣١) مشمولة : هبت عليها ريح الشمال . الغلث : الخلط .النابت : الغض . العرفج : ضرب من الشجر . الاسنام : جمع سنام .

(٣٢) التعريد: التأخر والجبن . الإقدام : بمعنى التقدمة .

(٣٣) العـــرض : الناحية : السرى : النهر الصغير التصديع : التشقيق .السجر : المـــلء ، أى أعينا مسجورة فحذف الموصوف لدلالة الصفة عليه.القلام :ضرب من النبت .

(٣٤) اليراع : القصب . الغابة : الأجمة . المصرع : مبالغة المصروع . القيام : جمع قائم.

رابعا : وصف البقرة الوحشية

أفتلكَ أمْ وحشيةٌ مَسبوعــةٌ

خَذَلتْ وهاديةُ الصوارِ قِوامُهــا(٣٥)

خنساءَ ضَيَّعت الفَرير فلم يَرِمْ

عُرْضَ الشقائق طوفُها وبُغَامها (٣٦)

علِهَتْ تَرَدَّدُ فى نِهاء صَعَائد

سَبْعاً تُؤاماً كاملًا أيامهــا (٣٧)

---

(٣٥) مسبوعة : أى أصابها السبع بافتراس ولدها الذى خذلته بتركه .
الهادية : المتقدمة والمتقدم أيضا فتكون التاء إذن للمبالغة .
الصوار والصيار : القطيع من بقر الوحش : قوام الشىء: ما يقوم به .

(٣٦)الخنس : تأخر فى الأرنبة . الفرير : ولد البقرة الوحشية .الريم : الفرار ، ولم يرم: لم يبرح . العرض : الناحية . والشقائق : جمع شقيقة وهى الأرض الصلبة بين رملتين . والبغام : صوت رقيق .

(٣٧) علهت : انهمكت . النهاء : جمع نهى بفتح النون وكسرها وهو الغدير . الصعائد: موضع بعينه ، ونهاؤه غدرانه واحدها نهى. والتؤام : جمع التوأم .

حتى إذا يئست وأسحقَ خالِقٌ

لم يُبْلِهِ إرضاعُها وفِطامُهـــا (٣٨)

فتوجست رِزَّ الأنيس فَراغَها

عن ظهر غيبٍ والأنيسُ سقامُها (٣٩)

فغدت كلا الفَرْجين تحسبُ أنه

مولى المَخَافة خلفُهَا وأمامُهـــا (٤٠)

---

(٣٨) الاسحاق : الإخلاق ، وأسحق : ذهب لبنه بجفافه .
الخالق : الضرع الممتلئ لبناً .

(٣٩) الــرز : الصـــوت الخـــفى . والأنيس : الواحد من الناس ، والأنيس ، الأنيس والأنس والأناس والناس واحد .
فراعها أفزعها . السقام والسقم واحد ، والفعل سقم يسقم ، والنعت سقيم .

(٤٠) الفرج : موضع المخافة ، والفرج : ما بين قوائم الدواب ، وهو الواسع مـــن الأرض والطـــريق ، والجمـــع فروج ، وثناه ليشمل الأمام والخلف . والمـــولى هـــنا الصـــاحب ، وقال ثعلب : إن المولى فى هذا البيت بمعنى الأولى بالشـــىء ، كقوله تعالى : " مأواكم النار هى مولاكم" أى هى أولى بكـــم. وقـــال الأصمعى : أراد بالمخافة الكلاب ، وبمولاها صاحبها ، أى غدت وهى لا تعرف أن الكلاب والكلاّب خلفها أو أمامها .

خامسا : الفخر بالنفس

فبِتلكَ إذ رَقَصَ اللَّوامعُ بالضُّحى

واجتابَ أرديةَ السراب إكامُهَا (٤١)

أَقْضِى اللُّبانــــة لا أُفرِّطُ رِيبةً

أو أنْ يلُومَ بحاجــــةٍ لوَّامُهـــا (٤٢)

أو لَمْ تكُن تدرى نَوَارُ بأنَّنى

وصَّالُ عقدِ حبائلٍ جَذَّامُهــــا(٤٣)

---

(٤١) فبتلك : الإشارة للناقة . ويقصد باللوامع : لوامع السراب . واجتياب الآكام أردية السراب : لبسها إياها كناية عن احتدام الهواجر

(٤٢) اللبانة : الحاجـة . التفريط : التضييع وتقدمة العجز . الريبة : التيمة . واللوام : مبالغة اللائم ، واللوام جمه لائم .

(٤٣)الحبائل : جمع الحبالة ، وهى مستعارة للعهد والمودة هنا . الجذم : القطع ، والفعل جذم يجذم ، والجذام مبالغة الجاذم .

تراك أمكنةٍ إذا لم أرضَها

أو يعتلِقْ بعضَ النفوس حمامُها (٤٤)

بل أنت لا تَدرين كم من ليلة

طلْقٍ لذيذ لهوُها ونِدامُها (٤٥)

قد بتُّ سامرَها وغايةَ تاجرٍ

وافيْتُ إذ رُفِعَتْ وعزَّ مُدامُها(٤٦)

---

(٤٤) بعض النفوس : نفسه : ومن جعل بعض النفوس بمعنى كل النفوس فقد احطأ : لان بعضا لا يفيد العموم و الاستيعاب .

(٤٥) ليلة طلق وطلقة : ساكنة لا حر فيها و لا قر .

الندام : جمع نديم مثل الكرام فى جمع كريم ، و الندام أيضا المنادمة مثل الجدال و المجادلة .

(٤٦) الغاية : راية ينصبها الخمار ليعرف مكانه . و أراد بالتاجر : الخمار .

و افيت المكان : أتيته .

المدام و المدامة : الخمر ، وسميت بذلك لأنها قد أديمت فى دنها .

أُغْلِى السِّباء بكل أدْكَنَ عاتقٍ

أو جَوْنَةٍ قُدِحَتْ وفُضَّ خِتامُها [٤٧]

وغداةَ ريحٍ قد وَزَعْتُ وقِرَّةٍ

قد أصبحت بيد الشَّمال زمامُها [٤٨]

ولقد حمَيْتُ الحى تحمِلُ شكَّتى

فُرْطٌ وِشاحى إذ غَدَوْت لجامُها [٤٩]

فعلوت مرتَقَباً على ذى هَبْوَةٍ

حَرْجٍ إلى إعلامِهِنَّ قَتامُها [٥٠]

---

(٤٧) سبأت الخمر سبأ وسباء : اشتريتها . وأغليت الشىء: اشتريته غاليا ، وصيرته غاليا ، ووجدته غاليا . الأدكن : الذى فيه دكنة والأدكن والعاتق وصفان للزق . والجونة : السوداء ، أراد أو خابية سوداء . القدح : الغرف . وقدحت ملأت منها القداح .

(٤٨) وزعت : دفعت بالطعام والكسوة . والقرة والقر : البرد .

(٤٩) الشكة : السلاح . والفرط : الفرس المتقدمة السريعة الخفيفة . والوشاح والإشاح بمعنى . والجمع الوشح .

(٥٠) المرتقب: المكان المرتفع الذى يقوم عليه الرقيب . الهبوة : الغبرة . والحرج: الضيق جدا. والأعلام : الجبال والرايات . والقتام: الغبار .

وكثيرةٍ غرباؤُهـــا مجهولـــةٍ

تُرْجَى نوافلُها ويُخشى ذَامُهـــا(٥١)

غُلْبٍ تشذَّر بالدخُول كأنهـــا

جِنُّ البَدِيِّ رواسيًا أقدامُهـــا (٥٢)

أنكرتُ باطلَها وبُؤْتَ بحقها

عندى ولم يفخر عليَّ كِرامُها(٥٣)

(٥١) كثيـــــرة غرباؤها : يقصد الدرا تكثر غرباؤها .

والذيم والـــــذام : العيب .

(٥٢) الغلب : الغلاظ الأعناق . والتشذر : التهدد .

الذحول : الأحقاد ، الواحد ذحل . البدى : موضع الرواسى .

(٥٣) باء بكذا : أقر ، ومنه القول فى الدعاء : " أبوء لك بالنعمة " أى أقر .

وهـــذا البيت كناية عن أن داره تقوم فيها المقامة للقضاء والفصل ، فيحق الحق ويبطل الباطل .

وجَزورِ أيسارٍ دعوتُ لحتْفها
بمغالِقٍ مُتشابهٍ أجسامُهـــا (٥٤)

أدعو بهنّ لعاقرٍ أو مطفِـلٍ
بُذِلَتْ لجيران الجميع لحامُهـا (٥٥)

فالضيف والجار الجنيب كأنما
هبطا تَبَالَةَ مُخْصِباً أَهْضَامُها (٥٦)

---

(٥٤)الأيسار : هنا أصحاب الميسر ، جمع يسر . والمغالق : سهام الميسر واحدها مغلاق . وسميت بذلك لأن بها يغلق الخطر .
قولهم : غلق الرهن يغلق غلقا : إذا لم يوجد له تخلص وفكاك . وجزورهم الناقة تجزر من أجل مقامرتهم .

(٥٥)الضمير في (بهن) للمغالق .
والعاقر : التي لا تلد . ومطفل معطوفة على جزور ، وهي الناقة ذات الولد، ومع ذلك لا يبقى عليها . واللحام : جمع لحم .

(٥٦) الجنيب : الغريب . تبالة : واد في اليمن كثير الخصب .
والأهضام جمع الهضيم بالكسر والفتح بطن الوادي ، يريد المطمئن من الأرض .

سادسا : الفخر والقوم

إنا إذا التقت المجامعُ لم يزل
منا لِزازُ عظيمةٍ جَشَّامُهــا (٥٧)
ومُقسّمٌ يُعطى العشيرةَ حقَّها
ومُغَذْمِرٌ لحقوقها هَضَّامُهــا (٥٨)
فضلا وذو كرم يُعينُ على الندى
سَمْحٌ كسوبُ رغائبٍ غَنَّامُهَا (٥٩)
من معشر سنّت لهم آباؤُهم
ولكل قوم سُنــة وإمامهــا (٦٠)

---

(٥٧) لـــزاز العظيمة قرينها ، ورجل لزاز الخصوم : يصلح لأن يلز بهم ، أى يقرن بهم ليقهرهم .

(٥٨) المغذمر : التغضب : أى الذى لا يعصى أمره . والهضام : الذى يزيد وينقص

(٥٩) الـــندى : الجـــود والكرم ، والفعل ندى يندى ندى . والرغائب : جمع الرغيـــبة ، وهى ما رغب من شىء نفيس ، أو خصلة شريفة ، أو غيرها والغنام . والغنام : مبالغة الغانم .

(٦٠) بقصد بابائهم : أسلافهم .

لا يَطبعون ولا يبور فَعالُهُم

إذ لا يميل مع الهوى أحلامُها (٦١)

فاقنع بما قسم المليك فإنما

قسم الخلائق بيننا علّامُها (٦٢)

وإذا الأمانة قُسِّمت فى معشر

أوفَى بأوفَر حَظنا قَسَّامُها (٦٣)

فبنى لنا بيتا رفيعا سَمْكُهُ

فسما إليه كَهْلُها وغُلامُها (٦٤)

---

(٦١) لا يطبعون : لا يلومون . والطبع : تدنس العرض ، والفعل طبع يطبع. والبوار : الفساد . والهلاك : والفعال : فعل الواحد جميلا كان أو غير جميل ، ولعل المقام يرشح أن المراد بها الفعل الحسن .

(٦٢) القسم والقسمة اسمان يريد أن الله سبحانه وتعالى قسم لكل ما استحقه.

(٦٣) معشر : قوم . قسم وقسم بالتشديد والتخفيف واحد . أوفى : أوفر . وأوفر حظنا : اى بأكثره .

(٦٤) بيتا رفيعا : بيت شرف ومجد . كهلها وغلامها : يعنى الكهول والشباب .

وهم السعاةُ إذا العشيرة أُفْظِعَتْ

وهُمُ فوارسُها وهُمْ حكامُها (٦٥)

وهم ربيعٌ للمجاور فيهم

والمُرْمِلات إذا تطاول عامُها (٦٦)

وهم العشيرة أن يبطِّئَ حاسدٌ

أو أن يميل مع العدو لئامُها (٦٧)

---

(٦٥) السعاة : جمع الساعى . أفظعت : نزل بها الفظيع من الأمر .

(٦٦) أرمل القوم : إذا نفدت أزواجهم .

والمرملات : اللاتى مات أزواجهن وكن يمكثن بلا زوج حولا كما قال الله تعالى : " والذين يتوفون منكم ويذرون أزوجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج " (البقرة ٢٤٠) .

ولكنه نسخ بقوله تعالى : " والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا " [البقرة ٢٣٤] .

(٦٧) هم العشيرة : أي هم العشيرة المحمية من أن يبطئهم حاسد أو يلومهم لائم .

دراسة وتعليق

تعد معلقة لبيد بن أبى ربيعة العامرى من أكثر الشعر الجاهلى شهرة وشيوعا ، وهى قطعة صادقة فى تصوير البادية أصدق تصوير من النواحى التى قصد إليها وأرادها .

وهذه المعلقة من المعلقات الطوال ، ومن الصعب تحديد غرضها الرئيسى ، فمن يقرأ أبياتها يجد الشاعر قد تناول فيها عدة موضوعات على النحو التالى : -

* ذكر الأطلال والدمن .
* وصف الظعائن .
* وصف الناقة .
* الفخر بالنفس .
* الفخر بقومه .

أولا : وصف الأطلال والدمن

(الأبيات من ١ : ١١)

لقد بدأ الشاعر معلقته بذكر الدمن فى عفائها فقال إن هذه الديار (ديار الأحباب) قد انمحت وتوحشت ، لارتحال الأحباب منها ، واحتمال الجيران عنها ، وقد تغيرت رسومها، وعرتها السيول ، وتحولت إلى مراعى عشب ونبات ، ومراتع ظباء ونعام ، وظلت هذه الديار على هذه الحال وبعد ارتحال الأحباب عنها سنين بكمالها .

ومع ذلك فقد كشفت السيول عن أطلال الديار فأظهرتها بعد ستر التراب إياها ، فوقف يسألها عن قطانها وساكنيها . لكنها لا تجيب السائل ، فهى حجارة صلاب لا جدوى من سؤالها .

وفى البيت الثانى تشبيه جيد ، شبه بقاء الآثار لعدة أيام ببقاء الكتاب فى الحجر . كما أن فى البيت الثامن

تشـــبيها آخر، شبه فيه الشاعر كشف السيول عن الأطلال بعد دروسها بظهور السطور بعد دروسها .

هذه التشبيهات التى ذكرنا وغيرها مما لم نذكر مما هـــو شائع ومنتشر فى شعر لبيد تقوم مادتها على الحس ، وتشتق كل مفرداتها من مظاهر البيئة والحياة الصحراوية المحيطة بـــه .

والحـــق يقتضـــينا أن نقول إنه يطول بنا الحديث إذا حاولنا استقصاء التشبيهات التى جاء بها لبيد فى معلقته ، ولعلـــه قـــد استعان بها فى كثير من أبيات المعلقة ليحدث الأثر الذى يرجوه فى نفوس سامعيه .

ومن جميل التشبيه قوله

وجلا السيول على الطلول كأنها

زبر تجد متونهـــا أقلامهـــا

إلى آخر الأبيات ....

ثانيا : وصف الظعائن

(الأبيات من ١٢ – ٢٢)

إن الشاعر يأخذ على نوار إيغالها فى رحلتها ، ويعلن عزمه على قطع لبانتها بهذه الأبيات التالية :

لقد دعاه إلى الاشتياق نساء القبيلة حين دخلن هوادجهن جماعات فى حال صرير خيامهم المحمولة ، وكانت هذه الخيام تصر لجدتها ، بينما الهوادج محفوفة بالثياب ، فعيدانها تحت ظلال ثيابها .

ويشبه الشاعر النساء ببقر الوحش فى كحل أعينها وحسنها ، ثم يشبه الظعن وهو مندفع يصر الركاب جادا فى السير قاطعا السراب بأنه منعطفات وادى بيشة أثلها وحجارتها العظام .

ويعود ليخاطب نفسه قائلا : أى شئ تتذكرين من

نوار فى حال بعدها وتقطع أسباب وصولها ما قوى منها وما ضعف ، وكيف يتيسر لك طلبها والوصول إليها وبينها وبين موطنك مسافة بعيدة ؟!

وسرعان ما يضرب الشاعر عن ذكر نوار ويقبل على نفسه مرة أخرى وفى حالة جديدة قائلا لها ينبغى صرف النظر عمن وصله معرض للزوال والانتقاض والانشغال بالمجامل بالود الكامل الوافر .

***

ثالثا : وصف الناقة

(الأبيات من ٢٣ – ٣٤)

ثم أعقب ذلك بوصف الناقة فشبهها فى سرعتها تارة بالسحاب الجهاد تطردها ريح الجنوب ، وشبهها تارة أخرى بأتان ملمع حملت من أحقب غيور وامتنعت عليه . فرابه أمرها ، وعلا بـ[illegible] حنـ[illegible] الأكام ابعادا لها عن الفحول .

حتى إذا سلخا الشتاء بعيدين عن الماء ، وهبت ريح الصيف اشتد بهما الظمأ ، ففزعا إلى الورود ، وانحدرا إلى النهر انحدارا كان له غبار ممتد طويل ، هذا الغبار كدخان أوقدت فى اليابس والرطب من النبات .

لقد جعل الغبار الساطع بينهما يعدوهما كثوب يتجاذبانه، ثم شبهه فى كثافته وظلمته بدخان نار موقدة ، وشبه أيضا الغبار الساطع من قوائم العير والأوثان بالنار التى أوقدت بحطب يابس تسرع فيه النار وتمتد ، وإنما جعلها كذلك ليكون دخانها أكثف فيشبه الغبار الكثيف ، ثم جعل هذا الدخان الذى شبهه بالغبار كدخان نار قد سطع أعاليها فى الاضطرام والالتهاب ليكون دخانه أكثر .

رابعا : وصف البقرة الوحشية

(الأبيات من ٣٥ – ٤٠)

وبعد الإطالة فى وصف الناقة وسيرها أخذ الشاعر يصف البقرة الوحشية فصنع موازنة بين ناقته وبينها وقال: أناقتى تشبه تلك الأتان ، أو هذه البقرة الوحشية التى خذلت ولدها وذهبت ترعى مع صواحبها وجعلت هادية الصوار قوام أمرها ، فكان أن افترست السباع ولدها ، الأم الذى جعلها تجد وتسرع فى السير طالبة ولدها وهى صائحة ما بين الرمال .

لكن هذه البقرة قد أمعنت فى الجزع ، وأخذت تتردد فى طلب ولدها سبع ليال بأيامها ، حتى إذا مايئست من الولد ، وصار ضرعها الممتلئ لبنا خلقا لانقطاع لبنها لم يبل ضرعها إرضاعها ولدها ولا فطامها إياه وإنما فقدها إياه.

وأخذت هذه البقرة تسمع صوت الناس ، ولم تر صاحب هذا الصوت ، الأمر الذى أفزعها وجعلها مذعورة لا تعرف منجاها من مهلكها .

خامسا : الفخر بالنفس

(الأبيات من ٤١ – ٥٦)

وبعد هذه الإطالة فى وصف الناقة وسيرها ، وبعد أن خلص الشاعر من وصف البقرة الوحشية نراه يلجأ إلى النوار . ويأخذ يفخر عليها بأنه يقضى حوائجه فى الهواجر بتلك الناقة التى تشبه البقرة والأتان ، وبركوبها وإتعابها فى حر الهواجر أيضا يقضى بغيته وحاجاته .

ثم رجع إلى التشبيه بالحبيبة فخاطب النوار قائلا : أو لم تكن تعلم نوار أنى وصال عقد العهود والمودات ، قطاع بعاف ما لا يرضى من الديار ، يريد أن يقول إنه يصل من يستحق الصلة ، ويقطع من يستحق القطيعة .

والنوار تجهل أيضا أنه سهار الليالى الغلاء التى طابت له ، واستلذت لهوه ، وأنه وزاع لغداوت الشمال ، يحمى الحى فيرتقى بفرسه المرتفعات فى منبلج الصباح ، فإذا ما أمسى أسهل وفرسه لايزال منتصبا للحراسة فى البيات .

وهو مع ذلك كله حلال المشكلات فى المحافل .

والمجامع والمقامات ، نحار بالقداح لجزر الأيسار ، يدعو بهن لذوى الحاجات والضيفان ، ممن يأوون إلى أطنابه فيجدون الخصب والثراء .

وهذه الأبيات فى الحقيقة لون من الفخر الفردى الذى شاع فى العصر الجاهلى ، وفرضته طبيعة الحياة البدوية التى كانت تقوم على الصراع والتنافس والغلبة .

وتعكس هذه الأبيات فضيلة الشجاعة عند العرب ، تلك التى أصبحت مضرب الأمثال ، إذ كان العربى فى الجاهلية يسترخص أغلى ما يملك فى سبيل الحفاظ على كرامته .

كما تعكس وتصور فضيلة الكرم التى تخلق بها العربى فى الجاهلية ؛ إذ كان ينفق الأموال ، ويطعم الطعام .

وليس يخفى على أحد أن الشاعر فى كل هذه المواقف التى تحدث فيها عن كرمه وشجاعته لم ينس أن يخلطها بنسيبه فى النوار كما هو دأب كثير من شعراء العصر الجاهلى .

سادسا : الفخر بالقوم

(الأبيات من ٥٧ – ٦٧)

ذاك الـــذى مر كان فخره بنفسه ، وقد أعقبه فخره بقومه ينســـبهم إلى سيادة المحافل ، وحسن سياسة العشيرة، وأن تلك الصـــفات والسجايا فيهم يجدر بالحاسد ألا يطمع فيها ، لأنها قسمة لهم من المليك لما جبلوا عليه من معالى الأمور .

ثـــم الـــتفت يخـــاطب العدو الطامع فى مثل مكانتهم ناصـــحا إيـــاه أن يقنع بما قسم الله تعالى ، فالله سبحانه قد قسم لكل ما استحقه من رفعة أو ضعة وهوان .

إلى أن خـــتم هذه المعلقة بهذه الأبيات التى تحمل ما عرف به قومه من مكارم الأخلاق .

يقول :

وهم السعاة إذا العشيرة أفظعت
وهم فوارسها وهم حكامها
وهم ربيع للمجاور فيهـــم
والمرملات إذا تطاول عامهـــا
وهم العشيرة أن يبطـــئ حاسد
أو أن يميل مع العدو لئامهـــا

السمات والخصائص الفنية :

والحقيقة أننا عندما نستعرض شعر لبيد فى معلقته نجد كثيرا من الخصائص فى الأسلوب والمعنى قد تشترك فى بعضها أشعار شاعر أو أكثر من شعراء العصر الجاهلى ، وهذا لا يمنع من وجود خصائص ومقومات وملامح محددة لكل شاعر ، يتميز بها شعره .

لقد سئل لبيد : " من أشعر الناس ؟ فقال : الملك الضليل (يقصد امرأ القيس) قيل : ثم من ؟ قال : الغلام (يقصد طرفة) قيل : ثم من ؟ قال : الشيخ أبو عقيل (يقصد نفسه)[1] .

والحقيقة أن الأبيات التى وردت إنما هى مرآة انعكست عليها مظاهر الحياة الجاهلية ، لقد ظهر فيها كثير من الأماكن من جبال وهضاب وسحب وأمطار ، كما أن فيها كذلك ذكرا لكثير من أسماء الحيوانات والنباتات .

---

(١) دراسات فى أدب ونصوص العصر الجاهلى ، د/ محمد عبد القادر أحمد ص ٣٦٥.

كمـــا صـــورت الأبيـــات عـــادات المجتمع الجاهلى وتقـــاليده، الأمر الذى يجعلنا نقول إنها تغيض بوصف كل مـــا وقعـــت عـــليه عيـــن الشاعر من مظاهر الطبيعة فى الجاهلية .

ونحن إذا ما وضعنا هذه القصيدة بجانب القصائد الجاهلية الأخرى ، وعلى وجه الخصوص المعلقات يمكننا أن نقول إن الشعر الجاهلى متشابه فى أسلوبه ، فكل قصيدة جاهلية كانت تـــبدأ بذكر الدمن والوقوف على الأطلال ، وذكر الأحبة ، ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى وصف الطرق التى يقطعها ، وهو لا يغفل ما فى هذه الطرق من وحوش ، ثم يصف الناقة التى يمـــتطيها فى هـــذه الطـــرق ، ثم بعد ذلك يصل إلى غرضه الأساســـى الـــذى نظمـــت من أجله القصيدة ، سواء أكان هذا الغرض مدحا أم غيره .

هـــذه هى طـــريقة شاعرنا لبيد ، وهى فى الواقع طريقة معظم شعراء الجاهلية فى قصائدهم ، وهذا هو منهجه الغالب عـــليه ، وقد لا يشذ عن هذه الطريقة وهذا الأسلوب إلا القليل النادر من الشعر .

ولعـل أوضح ما توصف به معانى الشعر عند لبيد أنها معـان حسية ، تلتصق بالأشياء المحسوسة ، وتبعد عن الجدل العقـلى الذى ظهر فيما بعد العصر الجاهلى عند كل من أبى تمـام والمتنـبى وأبى العلاء المعرى ، لقد كانت هذه المعانى خالية إلى حد ما من الخيال لدرجة تجعلها على صورة حقائق تسرد .

يقول عن ذلك الدكتور شوقى ضيف [١] :

" وهـذه الـنزعة فى الشـعر الجاهـلى جعلته لا يحلل خواطـره ولا عواطفـه إزاء ما يتحدث فيه من حب أو غير حـب، فهو لا يعرف التغلغل فى خفايا النفس الإنسانية ولا فى أعمـاق الأشـياء الحسية وتتضح هذه النزعة فى نفس خياله وتشبيهاته ، فهو ينتزعها من عالمه المادى ... " .

* * *

---

(١) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) ص ٢٢٠ .

قصيدة المسيب بن علس

في المدح

حياة الشاعر [١]:

المسيب شاعر جاهلي لم يدرك الإسلام ، واسمه زهير بن علس بن مالك بن عمرو بن قمامة بن عمرو بن زيد بن ثعلبة بن عدى بن ربيعة بن جشم بن بلال بن جماعة بن جبلى بن أحمس بن ضبيعة بن ربيعة بن نزار.

وإذا كنا لا نعرف شيئا واضحا عن نشأته وحياته فإنه يتبين لنا من أخباره أن " المسيب " لقب لقب به لبيت قاله وهو [٢].

فإن سركم ألا تؤوب لقاحكم

غزارا فقولوا للمسيب يلحق

على أن المسيب خال الشاعر الأعشى ميمون بن

---

(١) انظر الخزانة ، والشعر والشعراء ، وشرح المفضليات .

(٢) انظر الشعر والشعراء ، تحقيق شاكر ص ١٢٧ .

قيـــس، وكـــان أستاذه فى الشعر ، وعلى وجه الخصوص الشـــعر القصصـــى ، ولشـــدة العلاقة بين الشاعر الأعشى وخالـــه المسيب تشابه شعر كل منهما لدرجة جعلت بعض الأدبـــاء والنقاد يرى أن من الصعب التمييز بين شعر كل مـــنهما على حدة ، ولاشك أن الأعشى قد اهتم كثيرا بشعر خاله ، وعنى أيما عناية بروايته ، ينقل عنه ويسجل له .

وتـــدل أخـــباره وأشـــعاره على أنه أسوة الأعشى فى مدرسة المديح ، يمدح السادة والأشراف ويأخذ نوالهم ، بل لقد اتصل بالأعاجم ، ومدحهم بالقصائد الطوال ، واستمطر نداهم .

وقد ذكر الأدباء والنقاد أن مدائح المسيب البالغة التى خـــص بها الأعاجم قد ألبت عليه خصومه ، وأثارت عليه أعـــداءه وشـــانئيه ، الأمر الذى جعلهم يشهرون فى وجهه ســـيف الحقد والكراهية والعداء ، إلى أن ذهب إليه بعض أعداء ممدوحيه ودس له السم فى الشراب . فكانت نهايته.

***

مناسبة القصيدة :

ليس من اليسير التحدث عن مناسبة هذه القصيدة قبل الإشارة إلى أغراضها المختلفة التى تطرق إليها الشاعر ، والتى تنحصر فيما يأتى :

* التحدث عن المحبوبة
* وصف الناقة
* الفخر بالقصيدة
* المدح

والحقيقـــة أن الممـــدوح بهذه القصيدة هو القعقاع بن معـــبد بن زرارة التميمى وهو علم من أعلام تميم وعظيم من عظماء العرب اشتهر بالجود والكرم والسخاء .

وقد أدرك القعقاع الإسلام وكان ضمن وفد تميم الذى جاء الى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فنال شرف

الدخـــول فى الإسلام كما نال شرف الصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه القصيدة التى مدح بها المسيب القعقاع تعد على رأس قصائد المديح بل إنها لتعد من أقدم شعر المديح الذى استمنح بــه العطـــاء ولذلك تعد منارة على طريق شعر المديـــح ، تمهـــد الطـــريق لعظماء هذا الفن الشعرى كى يدخلوا حلبة هذا الفن لاستنداء العطايا والمنح .

****

قصيدة المسيب بن علس

فى المدح

أرحلْتَ من سلمى بغير متاعِ

قبل العُطاس ورُعْتها بوَداع؟![1]

عن غير مَقْلِيَةٍ وإنّ حِبالهـــا

ليست بـــأرْمامٍ ولا أَقْطــــاع [2]

---

(١) الــرحيل الانـــتقال مـــن مكان إلى مكان آخر . والهمزة فى (أرحلت) للاستفهام الإنكارى . من : على معنى عن ، وقد يكون بمعنى السبب .
وسلمى : محبوبته . والمتاع : ما يمتع النفس ويزودها . والعطاس : انفلاق الصـــبح وظهـــوره . ورعتها : أفزعتها وأشفتها ، والوداع : مايحدث بين المتحابين عند الافتراق من تحية وعناق وتبادل آهات .

(٢) مقلية : مصدر قلى يقلى أى أبغضه وكرهه غاية الكره .
والحـــبال : هـــو العهد والوصـــال ، وهو جمع حبل ، والمراد حبال المودة والمحبة . والأرام : يقال : حبل أرام أى بال . والأقطاع : المقطوع .

إذ تَسْتبيك بأصْلَتِيِّ ناعمٍ

قامت لتقتله بغير قِناع [٣]

ومَهاً يرفّ كأنه إذ ذُقته

عانية شُجَّت بماء يَراعِ [٤]

(٣) إذ : للدلالة على ما مضى من الزمان (ظرف زمان) ويلزم إضافتها إلى الجمل فعلية كانت أم إسمية ، وإذا أفردت عن الإضافة نونت .

وتستبيك : تجعلك سبيا لها وتأسرك ، بمعنى أن تكون أسيرا لحبها .

والأصلتي : الجبين الواضح . وتقتله : مضارع فتنته : إذا ولهته وأذهبت عقله ، ومثله : فتنته ، أي جعلته فاتنا حين كشفت عنه ، وقد يعود الضمير للشاعر على طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة .

والقناع : ما تستر به المرأة رأسها .

(٤)المهاة : البلورة ، والجمع : مها ، والمراد الثغر .

يرف : يتلألأ ويلمع . وإذ : بمعنى حين .

وعانية : نوع من الخمر منسوبة إلى بلدة في العراق .

وشجت : بمعنى كسرت . وماء اليراع : عصير القصب ، أو ماء جدول ينبت حوله القصب .

أو صوبُ غاديةٍ أدرَّتهُ الصَّبا

ببزيلِ أزهرَ مُدْمَجٍ بسَيَاعِ (٥)

فرأيت أن الحكمَ مُجتنِبُ الصِّبا

وصحوتُ بعد تشوّقٍ ورَوَاعِ (٦)

---

(٥) الصوب : نزول المطر وانصبابه . والمراد هنا : المطر نفسه .
والغادية : السحابة . وأدرته : أنزلته واستخرجته .
والصبا : ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار . أي في الربيع . وهذه الريح تحمل دائما أشواق المحبين ، وتذكر بأحداث العاشقين.
وقد اشتهر أمرها في نجد حيث الربيع الخصيب . والمراد به الدن الذي تخزن فيه الخمور . ومدمج : أي ملصق.
والسياع : الطين. والمراد أن الدن الأبيض ملصق ومثبت بالطين من حوله.
(٦) الحكم : الحكمة . قال تعالى : " وما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله " [آل عمران ٧٩] وقال تعالى : " وآتيناه الحكم صبيا " [مريم ١٢] .
والصبا : الطيش والجهالة والصبوة .
وصحوت : أفقت . والرواع : الرجوع إلى العقل ، والتذكر البعيد عن الصبوة ، مصدر راع يروع .

فتسلَّ حاجتَها إذا هى أعرضت

بخميصَةٍ سُرُحِ اليدين وَسَّــاع (٧)

صَكَّاءُ ذِعْلِبَةٍ إذا استدبرتهــا

حَرَجٌ إذا استقبلتَها هِلْــواع (٨)

---

(٧) فتسل حاجتها : بمعنى اسل عن حاجتك إليها وإلى العودة نحوها . وأعرضت : ظهرت ، من قولنا : عرض الشيء فأعرض ، أى أظهره فظهر . والخميصة : الناقة الضامرة البطن ، وسرح : بمعنى سريعة ومثلها منسرحة . والوساع : السريعة الخطو والذرع .

(٨) صكاء : مضطربة الركبتين ، وهذا من صفات ذكر النعام .

وذعلبة : سريعة جادة فى انطلاقها . واستدبرتها : جعلتها خلفك .

وحرج : خفيفة الخلف طويلة ، أى أنها ناقة ضامرة ، أى مطية خفيفة سريعة .

واستقبلتها : جعلتها أمامك قادمة عليك ، وهلواع : خفيفة نشطة متحركة كأنها مفزعة.

وكأن قَنطرةً بموضع كُوْرِها
ملساءُ بين غوامِضِ الأنْسَاع (٩)

وإذا تعاورتِ الحصَى أخفافُها
دوَّى نوادِيهِ بظهر القَـــاع (١٠)

وكأن غاربَها رُباوةُ مخْـــرِمٍ
وتمُدُّ ثِنْىَ جَديلهـــا بشِــراع (١١)

---

(٩)القــنطرة : البنيان المرتفع . والكور : الرحل بأدواته ، والجمع: أكوار وكيــران ، وموضـــع الكـــور : الســـنام وما حواليه . وملساء : ناعمة . والأنساع: جمع نسع ، وهو السير الذى يشد به الرحل . والغوامض : جمع غامض. أى مختف فى طيات الجلد .

(١٠).تعـــاورت : تـــبادلت قذفها ، وذلك نتيجة السير السريع ، والأخفاف : جمـــع مخـــف ، وهـــو القـــدم . ودوت : صوتت . ونواديه : أى نوادى الحصـــى، وهـــو ما يتطاير منه عند قذفه بالأخفاف . والقاع: المستوى من الأرض.

(١١) الغارب : ما بين السنام والعنق . والرباوة : الربوة العالية .
والمخرم : طرف أنف الجبل . والجديل : الزمام .
وثـــنيه : ما ثنى منه باليد . والشراع : عنق الناقة الطويل الذى يشبه شراع السفينة .

وإذا أَطفتَ بها أطفت بكَلكل

نَبِضِ الفرائصِ مُجفَرِ الأضلاع (١٢)

مَرِحَتْ يداها للنِّجاء كأنمـــا

تكرو بكَفَّىْ لاعِبٍ فى صَاع (١٣)

فِعْلَ السريعة بادرت جُدَّادَها

قبل المساء تَهُمُّ بالإســـراع (١٤)

---

(١٢) أطفت : من الطواف وهو الدوران حول الشيء . والكلكل : الصدر . ونـــبض : دائـــم الـــتحرك . والفرائص : أوداج العنق ، ولحمة بين الجنب والكـــتف . ومجفر : واسع ، مأخوذ من الجفر وهى البئر العظيمة التى لم تطـــو . والأضـــلاع : جمـــع ضلع ، والجمع أيضا ضلوع ، وهى العظام المقوسة المحيطة بالصدر .

(١٣)مـــرحت : خفت ونشطت . والنجاء : السرعة والخلوص . يقال : ناقة ناجية ونجية : أى سريعة .

وتكـــرو : تلعب بالكرة . والصـــاع : المطمئن من الأرض ، أو هو الموضع الذى يكنس ثم يلعب فيه .

(١٤) بـــادرت : عاجـــلت . والجداد : خلقان الثياب ، وكل متعقد بعضه فى بعض من خيوط أو أغصان ، والمراد أسرعت لتخيطه أو لتحل عقده .

فلأَهدينَّ مع الرياح قصيدةً

منى مُغَلغلة إلى " القَعْقَاع " (١٥)

تردُ المياهَ فما تزال غريبةً

فى القوم بين تمثُّلٍ وسَماع (١٦)

وإذا الملوكُ تدافعت أركانُها

أَفْضَلْتَ فوق أكُفهم بذراع(١٧)

---

(١٥) الإهداء : إعطاء الشيء بلا مقابل بدافع من المحبة والمودة .ومع الرياح: أى مرسلة فى كل اتجاه ، ومنشورة فى كل مكان ، ومذاعة فى كل صقع ، وقصيدة : المراد بها قصيدته التى معنا . ومغلغلة : متداخلة فى أذهان الناس منتشرة بينهم لما فيها من فصاحة وبلاغة .والقعقاع : هو ابن زرارة الذى يمدحه فى هذه القصيدة .

(١٦) ترد المياه : المراد تصل إلى الأقوام والجماعات المتواجدين حول المياه للاستقاء . ومن المعروف أنه كان من عادة المهتمين بالشعر من رواة وشعَراء أن ينشدوا الأشعار فى تلك المجتمعات .

وغريبة : أى أجنبية عن الشعراء . وقد تكون غريبة لأنها بليغة فصيحة .

(١٧)المراد بالملوك: الأعيان والمشاهير ، والرُؤساء والزعماء . وتدافعت: تزاحمت وتسابقت. وأركانها: جمع ركن وهو الجانب القوى المتين فى البناء، والمقصود أقدارها وأعمارها . وأفضلت: كان لك فضل عليهم ، أى فى الخير والبر والقدر . وأكفهم : أى أيديهم .

وإذا تـهِيجُ الريح من صُرَّادها
ثَلْجاً يُنيخُ النِّيبَ بالجَعجاع (١٨)
أحللتَ بيتك بالجميع وبعضُهم
متفرِّقٌ ليَحِلَّ بالأوزاع (١٩)
ولأنت أجودُ من خليجٍ مُفعمٍ
متراكِمِ الآذيِّ ذي دُفَّاع (٢٠)

---

(١٨) تهيج من هاج بمعنى : ثار . والصراد : الغيم الرقيق .
وينيخ النيب: يقهرها على ألا تبرح مباركها . والنيب: جمع ناب وهي الناقة المسنة .
والجعجاع : المناخ الذي لا يليق ولا يصلح لإقامة الإبل فيه.

(١٩) أحللت بيتك بالجميع : أي أنزلت الجميع بيتك ، وعلى هذا فالباء في (بالجميع) زائدة .
والجميع : ضد المتفرق . والأوزاع : الجماعات .

(٢٠) الخليج : النهر . ومفعم : مملوء . والآذي : الموج .
والدفاع : دفعة الموج والسيل .

وكأن بُلْقَ الخيل فى حافاتــه

يرْمِى بهم دواليــىَ الزَّرَّاع (٢١)

ولأنت أشجع فى الأعادى كلها

من مُخْدِرٍ ليثٍ مُعِيدٍ وِقَــاع (٢٢)

يأتى على القوم الكثيرِ سلاحُهُم

فيبيت منه القوم فى وَعْــواع (٢٣)

---

(٢١) بلق الخيل : جمع أبلق : وهو الفرس الذى فى لونه بياض وسواد . والحافات : جمع حافة : أى شاطئ الخليج . والدوالى : جمع دالية وهى الساقية . أو الأرض تسقى بدلو وتكون هذه الأرض غالبا على شواطئ الخلجان .

(٢٢) فى الأعادى أى فى ملاقاة الأعادى وحربهم . والمخدر : الأسد ، على أن أصل الكلام من ليث مخدر أى شجاع .

والوقاع : المواقعة . وهى اللقاء فى وقائع الحروب ، ومعيد : أى مدرب ومتمرس .

(٢٣) وعواع : كالوعوعة ، وهى الأصوات الصادرة عن خوف وذعر . والمراد الأصوات الصادرة من أعدائه وشانئيه الخائفين المذعورين .

أنت الوفى فما تَذَمَّ وبعضهم

تُودى بذمته عُقَابُ مُــلاع (٢٤)

وإذا رماه الكاشحون رماهُمُ

بِمَعابِلٍ مَذْروبة وقِطَــاع (٢٥)

ولذاكُمُ زَعَمَت تميمٌ أنَّــه

أهل السماحة والندى والباع (٢٦)

---

(٢٤) فما تذم : فما تخون عهدك ، ولا تخفر ذمامك . وتودى : تذهب . وذمته : عهده وجواره . والعقاب : الذى يصيد الجرذان ، والملاع: المفازة لا نبات فيها .

(٢٥) الكاشحون : جمع كاشح ، وهو الذى يضمر بك العداوة ، والمعابل : جمع معبلة ، يقال : عبل السهم : أى جعل فيه معبلة ، أى نصلا طويلا عريضا ، ومذروبة : محددة . والقطاع : جمع قطع ، وهو نصل صغير عريض .

(٢٦) لذاكم : خطاب موجه لكل جماعة تصلح للخطاب ، أو لأعدائه وخصومه . والزعم : يستعمل كثيرا فيما فيه شك ، وليس هذا المراد هنا ، وإنما المراد : أقرت . والباع : قدر مد اليدين ، والمراد به هنا القدر العظيم فى الكرم والحلم .

التعليق والشرح

(الأبيات من ١ : ٦)

– يبدأ الشاعر ترنيماته العذبة ، فيأسى على فراق محبوبته ، وينوح على انتقالها ، ويصف مشاعره نحوها بأنه يهواها ولن يقلاها ، ولذلك يخاطب نفسه قائلا : ما كان لك أن تفارق سلمى دون أن تتمتع النفس بالوقوف معها والحديث إليها ، وياللحسرة لقد رحلت عنها قبل بزوغ الفجر ووقت انفلاق الصبح ، فأفزعت وهلعت لهذا الوداع الذى كان فى وقت هدوء الناس واستسلامهم للنوم العميق .

– ما كان لك أن تخطو هذه الخطوة وقلبك مايزال معلقا بسلمى وأنت محب شديد الحب لها ، وحبال الوصل بينك وبينها فى أقوى حالاتها ، كما أن أسباب المودة والوصال لم يشبها ضعف ولا وهن .

– لقد سافرت عنها ورحلت فى الوقت الذى يبدو فيه

جمالهـــا ، وتتضــح أنوثـــتها وفتنتها ، ويصبح من شأنها أن تسحرك وتأسرك بجمالها الفاتن .

إنهـــا تسـحرك ، وتأسر عواطفك ، وتملك أمرك بما أعطيــت مـــن جمال فتان ، وبثغرها الصافى الجميل المتلألئ الذى يشبه ريقه الخمر الممزوجة بماء القصب ، وهى من ألذ المشروبات .

وفى هــذا الـبيت شـبهت المهاة (الثغر) بالبلور فى الصفاء.

وريـــق هذه المحبوبة فى عذوبته وجماله يضاهى ماء سحاب نقى دفعت به ريح الصبا ، وتدفق فى أوان مثقوبة كما تتصوب الخمر من الأدنان . فكيف يسهل له أن يقلاها ؟

– لكـــنه بعد كل هذه المشاعر وبعد كل تلك المآسى التى أبداهـــا على فراق المحبوبة ، نراه يعود إلى عقله وصوابه فيقول . إن رحيلى عنها ، وإحداثى الروع فى نفسها لهو أمر مجانب للحكمة ،

بعيد عن المنطق ، مجاف لمجالى التفكير السليم .

(الأبيات من ٧ : ١٤)

ثـــم ينتقل الشاعر إلى وصف الناقة ، لكنه لم يبلغ فيه ما بلغه طرفة بن العبد حين ظهر فى وصف الناقة بمظهر المحب المتيم .

– لقـــد خـــاطب نفســـه قـــائلا إنك يجب أن تتسلى عن المحـــبوبة ، علاجـــا لنفسك ، وتهدئة لمشاعرك وأحاسيسك ، يجـــب أن تكـــون هـــذه الناقة مسلية لهمومه ، يلتفت إليها ، وينشغل بها ، ولا غرو فهى السبيل الوحيد إلى النجاة .

– ويبدو عشق المسيب للناقة واضحا فى توالى الصفات الـــتى خلع عليها ، فهى ناقة قوية الجسم ، محكمة البنيان ، وحســـبها أنهـــا سمينة من الأمام ، ضامرة من الخلف ، هذا

فضلا عن سرعتها فى العدو، وخفتها في الحركة .

- إن هذه الناقة بصفاتها التى هى عليها من ضخامة ونعومة وملاسة ، أى بما منحها الله من جسامة ، لجدير بها أن تجعل الشاعر يقبل عليها ، ويتسلى بها عن تذكر سلمى واستعادة أيامها الخوالى .

- ويتأثر المسيب كثيرا بطريقة سير ناقته فيقول إنها تقطع الصحارى والفيافى فى اقل الأزمنة وأقصر الأوقات ، لقد بلغت سرعتها درجة جعلت أخفافها تتقاذف الحصى ، وتحدث صوتا هائلا مدويا فى القاع المنبسط من الأرض .

- ولا يترك المسيب أعضاء ناقته دون أن يمنحها شيئا من الوصف ، فمقدم جسم هذه الناقة يشبه ربوة عالية وعنقها يشبه الشراع المرفوع على صارى السفينة . وليس يخفى أن هاتين الصورتين من صور التشبيه الدقيق الجميل .

- ولهـذه الـناقة صـدر عظيم ، مكتنز اللحم ، واسع الأضـلاع ، وهـو مع هذا دائم التحرك والنبض ، مما يوحى بأنها ناقة جيدة تتحمل مالا يحتمل وما لا يطاق فى هذه الرحلة التى يقصد بها القعقاع .

- ويبرز المسيب فى أبياته التى نحن بصددها حال الناقة فى النشاط والسرعة فيقول إنها ناقة أطلقت لنفسها الزمام ، لقد سارت فى سرعة عجيبة جعلت الأرض أمامها كالكرة تدفعها الى الأمام ، وتتلقفها بيديها فى يسر وسهولة ، وهذه الصورة التشبيهية فى غاية الجمال والدقة .

- ويتحدث المسيب عن سرعة ناقته حديث المفتون المعجب فيرسم لها صورة من السرعة غير تلك التى مرت ، فيصورها فى سـرعتها بامرأة تستعجل حياكة ثوبها الخلق ، أو فك عقد خيوطهـا ثم طيها قبل حلول المساء ، وليس يخفى أن المعنى المشترك هو السرعة .

(الأبيات من ١٥ : ١٦)

وبعـــد ذلك كله يتحدث الشاعر عن قصيدته العصماء ، تلك التى جمعت المحاسن ، وضمت المفاتن :

- انها قصيدة ذاعت وانتشرت ، وسبب ذلك أنها راعت الأسماع ، وأطربت القاصى والدانى لدرجة ملكت على الناس أفكارهم وعقولهم .

- وهى قصـــيدة بليغة ، عذبة الأسلوب ، جمعت سمات القـــوة والجمـــال ، ولهذا انتشرت فى كل مكان ، وأقبل عليها الجميع يحاكونها ، لكنهم لا يستطيعون أن يقولوا مثلها .

- انها قصيدة عصماء ، تبدو لجمالها غريبة ، ولذلك يفخر بها الشاعر ويعتز ، ويتباهى بحمل الناس لها من كل فج.

(الأبيات من ١٧ : ٢٦)

ويــبرز في قصــيدة المسيب المدح ، ذلك الغرض الذي يلبس فيه الممدوح أغلى حلل المديح ، ويرسم له صورا كثيرة ناطقة بجوده وكرمه ، كما يرسم لأعدائه وشانئيه صورا كثيرة تجردهم من الفضائل والمثل العليا .

فممدوحــه وهــو القعقاع بارز ظاهر ، لا يتخفى عن الناس ، إنه الأول في حلبة السباق ، وهو الأول في ميدان كل فضــيلة كالكرم والجود ، حتى إنه ليفضل المشاهير من ملوك ورؤساء وزعماء وأعيان .

- ويفرط في المديح فيصور منزلة ممدوحه ومكانته بين الــناس ، فهو وحده الذي يفتح بيته على مصاريعه ليؤوي كل مــن توجــه إليه وعلى وجه الخصوص في أوقات الأزمات والشــدائد ، فكــل من يطلب عونه يعرف مكانا له في بيته ،

وهذا تعبير جيد عن كرم الممدوح وجوده ، وإحساسه بالناس ، وتعاطفه الشديد معهم .

- ان هذا الممدوح كريم غاية الكرم ، جواد غاية الجود ، وإنه - في كرمه - أكرم من الخليج الممتلئ بالماء ، المتراكم الأمواج ، الذي تشبه موجاته الخيل البلق ذات الألوان التي يختلط فيها السواد بالبياض ، وفي هذا التصوير مدح صائب ، ووصف للقعقاع بالجود والكرم .

هذه الصورة التشبيهية إنما جاءت على طريقة التشبيه المقلوب ، فالعادة تجري أن يشبه الممدوح بالخليج ، ولكن الشاعر ارتفع به درجات جعلته فوق الخليج في عطائه وهباته وبذله .

- ويستمر الشاعر في المدح ، وعلى طريقته في وصف القعقاع بالجود والمكرمات نراه يصفه بالشجاعة والجرأة والإقدام ، حتى إنه ليفوق في الشجاعة الأسد الشجاع .

- إن هــذا الممــدوح له هيبة شديدة وهو صاحب بأس قوى، وقد فطر على الشجاعة والقوة ، لدرجة تجعل خصومه المجهزين بالعتاد ، المتدرعين بالسلاح يفزعون من هيبته .

- ويطول بنا الحديث لو استقصينا الصفات التى أضفاها الشاعر على ممدوحه ، وكلها صفات كمال وجمال وجلال:

فهو رجل وفى . لا يخون العهد ، ولا يخفر الذمام . فى الوقــت الــذى صار فيه غيره من الناس بلا عهد وبلا ذمة ، وهو رجل كيس حذر ، لا يتمكن منه أعداؤه بشكل أو بآخر .

ومــن أجــل كــل تلك الصفات السامية ، والأخلاق والفضــائل العاليــة ، أقــرت قبيلة تميم بأنه قمة فى السماحة والجــود . وأنه دون سواه على الذروة من المقامات ، ليس له فى الوجود أدنى نظير ولا شبيه .

المكانة

والمنزلة الفنية

المسيب شاعر مقل ، لم يترك لكتب التراث الأدبى سوى شعر قليل ، وهو مع ذلك يعد من الشعراء المحكوم لشعرهم بالجودة والإتقان .

وقد اتفق النقاد على أن أشعر المقلين فى الجاهلية ثلاثة شعراء ، هم : " المتلمس ... جرير بن عبد المسيح ، والمسيب بن علس ، وحصين بن الحمام المرى " .

لقد كان المسيب أستاذا لبعض الشعراء ، لقد كان أستاذ الأعشى ومعلمه ، والموجه الذى وجهه للسبك والحبك ، كما كان أستاذا لميمون بن قيس فى حلاوة اللفظ ، وجمال التركيب، لقد نقل كل منهما عن المسيب غرره ودرره ، وحظى شعره عند كل منهما بالتقدير والإشادة .

وقصيدة المسيب من الروائع فى لغتها ، وتعد من البدائع فى بابها ، إنها لتعد من أقدم شعر المديح الذى استمنح به السؤال ، ولذلك يشار إليها على أنها تعد منارة على الطريق

مهدت لعظماء الشعراء كى يدخلوا هذا الميدان ، ويرتشفوا من رحيق الحباء والعطاء .

لقد حكى صاحب الأمالى أن المفضل الضبى – وكان أبو جعفر المنصور قد اختاره أستاذا لابنه المهدى – جلس يوما يستمع للمهدى وهو ينشدها أمامه حتى فرغ منها ، فإذا أبو جعفر كان واقفا متخفيا يسمع إنشاده دون أن يراه أحد ، فلما انتهى المهدى منها ذهب أبو جعفر إلى مجلسه ودعا المفضل والمهدى ، فلما حضر ذكر لهما ما حدث منه ، وأبلغ المفضل ثناءه عليه واستحسانه للقصيدة ، ثم قال له : لو عمدت إلى أشعار المقلين واخترت لفتاك .... لكل شاعر أجود ما قال ، لكان ذلك صوابا . ففعل المفضل ، واختار ديوان المفضليات .

وهذا إن دل فإنما يدل على أن هذه القصيدة من الروائع ، وأنها من القصائد التى يشار إليها فى كتب التراث الأدبى.

* * *

قصيدة النابغة

الذبياني

المعلقة [١]

التعريف بالشاعر :

عصر الشاعر

يحكى التاريخ أن دولة (كندة) كانت تسيطر على (غطفان) وعندما زالت تلك الدولة أصبحت قبيلة (ذبيان) الغطفانية موالية لملوك الحيرة ، ومن المعلوم أن قبيلة ذبيان حليفة لقبيلة أسد ، تلك التى ثارت على حجر جد امرئ القيس الشاعر ، والذى هو آخر حكام الدولة الكندية .

ويحكى التاريخ كذلك أن ملك الحيرة (المنذر بن ماء السماء) قد طارد الشاعر الجاهلى امرأ القيس زمنا ، ذلك

---

(١) بعض النقاد يعدون من المعلقات تلك القصيدة الدالية التى نحن بصدد شرحها والتى نظمها النابغة الذبيانى فى مدح النعمان بن المنذر والاعتذار إليه وعلى رأس هؤلاء : (الخطيب التبريزى) .

لأن امرأ القيس قد ثار مطالبا بملك كندة .

ومـــن المســـلم به أن تكون قبيلة ذبيان موالية لملوك الحيرة ، ذلك لأن هذه القبيلة كانت تؤازر قبيلة أسد ، وبنو أسد هؤلاء هم الذين ثاروا على حجر جد امرئ القيس .

أمـــا علاقة قبيلة ذبيان بالغساسنة فليس هناك من شك فى أنهـــا كـــانت علاقـــة عداء ، فقد أوقع الغساسنة ببنى ذبيان، وأسروا منهم عددا من الرجال ، ويمكن أن يضاف إلى ذلـــك أن الحـــرب التى نشبت بين عبس وذبيان والتى استمرت أربعين عاما قد أنهكت قبيلة ذبيان إنهاكا شديدا .

وإذا مـــا وضـــعنا فى الاعتبار تلك النزاعات الداخلية الـــتى كانت تشتعل من وقت لآخر داخل قبيلة ذبيان نفسها أمكنـــنا أن نقول إن العصر الذى عاش فيه الشاعر النابغة عصر اضطرابات وقلاقل ، وفتن ودسائس .

ومـــن يقرأ شعر النابغة نفسه يرى أن الشاعر كان له تأثيـــر سياســـى فى العصر الذى عاش فيه ، كما سنوضح عند الحديث عن أشعاره .

قبيلة الشاعر :

النابغة الذبيانى اسمه زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب بن يربوع بن غيظ بن مرة .

ومرة من قبائل ذبيان الغطفانية القيسية ، وذبيان قبيلة مصرية ، ومن أهم عشائرها وبطونها بنو فزارة . وبنو مرة ، وبنو سعد ، ومن فزارة بنو مازن ، وبنو بدر .

ومع أن قبيلة ذبيان كانت تمتاز بالسيادة فى الجاهلية، لكن الحروب الكثيرة التى اشتركت فيها (خارجيا وداخليا) قد سببت تصدعا فى صفوفها ، وتشتتا فى أفرادها .

يقول الدكتور شوقى ضيف [١]:

" وتظهر قبيلة ذبيان وعشائرها على مسرح التاريخ الجاهلى مع حرب داحس والغبراء التى نشبت بينها وبين

---

(١) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) ص ٢٦٧ .

أخـــتها عـــبس ، واستمرت فيما يقول الرواة نحو أربعين عامـــا امـــتدت فيما يظن من سنة ٥٦٨ إلـــــى سنة ٦٠٨ للميلاد .

ومر بنا أن السبب فى نشوبها سباق داحس والغبراء ، وكان داحس جوادا لقيس بن زهير سيد بنى عبس ، وكانت الغبراء فرسا لحمل بن بدر سيد بنى فزارة .

وسبق داحس . إلا أن الفزاريين أقاموا له كمينا فى نهايـــة الشـــوط نفره عن غايته فسبقته الغبراء ، واستشاط قيس غضبا ، وطلب الرهان ، وبعث حمل ابنه يطلب منه الرهان المضروب ، وقتله قيس ، فاستعرت نيران الحرب بين القبيلتين .

واشـــترك فيها أحلافهما ، فكان مع عبس بنو عامر ، وكان مع ذبيان بنو تميم وبنو أسد .

ودارت سلسلة معارك طاحنة ، من أهمها يوم المريقب ، وكان لعبس على ذبيان ، وفيه قتل عنترة ضمضما أبا حصين المرى ، والحارث بن بدر ، وممن قتل فيه أيضا عوف بن بدر ، ويوم ذى حسى ، وكان لذبيان على عبس ، ويوم جفر الهباءة وكان لعبس على ذبيان ، وفيه قتل حذيفة وحمل ابنا بدر ، ورثاهما قيس خصمهما رثاء حارا ، يقول فى بعضه :

شفيت النفس من حمل بن بدر

وسيفى من حذيفة قد شفانى

شفيت بقتلهم لغليل صدرى

ولكنى قطعت بهم بنانى

وثأرت ذبيان لنفسها فى معركة الجراجر أو ذات الجراجر ، ثم تجمعت ذبيان وأحلافها من تميم وأسد ، كما تجمعت عبس وعامر ، واشتبكت الفئتان فى يوم شعب

جبلة ، وفيه دارت الدوائر على ذبيان وأحلافها ، إذ أثخنت فيهم عبس وعامر القتل ، فقتل لقيط بن زرارة التميمى وأسر أخوه حاجب .

ولم تلبث ذبيان أن أوقعت بعبس وعامر فى يوم شعواء وقعة منكرة ، ورأت عبس أن تقف هذه الحروب التى أتت على الأبطال والرجال ، فأرسلت وفدا إلى ذبيان يطلب الصلح ، ولقى الوفد سيدى بنى مرة : الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، فحملا قومهما على الصلح ، وتحملا ديات القتلى ، ويقال إنها بلغت ثلاثة آلاف بعير . وبذلك وضعت الحرب أوزارها ، ويظن أنه لم يكتب للنابغة أن يرى انفضاضها ، فقد توفى قبل ذلك بقليل .

وبينما كانت ذبيان تدير رحى هذه الحروب كانت تدير رحى حروب أخرى مع الغساسنة ، وكان يؤازرها أحلافها من بنى أسد ، ولعل ذلك ما يدل على أن القبيلتين جميعا كانتا تدينان بالولاء للمناذرة خصوم الغساسنة ، فهم

يشرعون سيوفهم ويشهرونها فى وجوه خصومهم ، وكانوا اونة ينتصرون عليهم ، وآونة ينهزمون وتمتلئ أيدى الغساسنة بأسراهم ، مما اضطر النابغة على نحو ما سنرى بعد قليل أن ينزل بالغساسنة ويستعطفهم حتى يردوا إلى هؤلاء الاسرى حريتهم .

وتلك دلائل مختلفة على أن عشائر ذبيان لم تكن دائما فى وفاق ووئام ، فهى تتجمع لحرب عبس والغساسنة ، ثم تعود فتتناحر داخليا ، على نحو ما تصور ذلك أشعار بشامة بن الغدير والحصين بن الحمام المرى وزبان بن سيار الفزارى ، والنابغة ، إذ يشيرون إلى بعض المنازعات بين تلك العشائر ، وقد يشيرون إلى معارك وقعت بينها .... " .

وهذا الذى قاله الدكتور شوقى ضيف يؤكد أن قبيلة ذبيان لم تكن على صفاء دائما ، وإنما كانت كثيرة الحروب ، تتحارب مع أعدائها فى الخارج ، كما يتحارب أفرادها مع بعضهم البعض ويتقاتلون ، ويعتزل بعضهم

البعض ، بل كثيرا ما كانت هذه الحروب الداخلية تتسبب فى نزوح بعض العشائر عن منازلها إلى منازل الجيران .

أما عن عقيدة قبيلة الشاعر فيقول الدكتور شوقى ضيف (١) :

" وكانت ذبيان كغيرها من قبائل غطفان تعبد فى الجاهلية العزى وتتخذ لها كعبة تحج إليها ، وتقدم لها النذور والقرابين ، وقد هدمها خالد بن الوليد بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم . ومعنى ذلك أن ذبيان ظلت على وثنيتها حتى دخلت فى الإسلام الحنيف " .

* * *

(١) المصدر السابق ص ٢٦٨ .

نشأته وحياته :

النابغة الذبياني هو أبو أمامة ، واسمه زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب بن يربوع بن غيط بن مرة ، ومرة من قبائل ذبيان ، وذبيان قبيلة مضرية كما سبق القول .

وأمه عاتكة بنت أنيس من بني أشجع الذبياني ، فهو كما نرى ذبياني من جهة الأب ومن جهة الأم على السواء، وكان يكنى بأبي أمامة ، وأبي ثمامة ، وهما ابنتاه .

ولقبه النابغة ، وقد لقب بذلك لنبوغه في الشعر ، فلقد روى أنه لم ينظم الشعر إلا بعد أن جاوز الأربعين ، فنبغ فيه فجأة ، وطلع على الناس بأروع الشعر طفرة واحدة ، فنبوغه في الشعر كنبوغ (أي تفجر) الماء من ينبوعه .

وقيل سمي بالنابغة لقوله :

وحَلَّتْ فى بَنى القَيْن بن جَسْرٍ

فقد نَبَغَتْ لنا منهم شُؤُون (١)

يقول الدكتور شوقى ضيف فى ذلك :

" واختلف الرواة فى سبب تلقيبه به ، فقيل لقوله فى بعض شعره : (فقد نبغت لنا منهم شئون) .

وقيل لأنه قال الشعر بعد أن كبرت سنه ومات قبل أن يهتز ويذهب عقله .

ونظن ظنا أنه سمى بذلك لنبوغه فى شعره وتفوقه فيه، ومن أكبر الدلالة على ذلك أننا نجد مجموعة من الشعراء المخضرمين والإسلاميين تلقب بنفس اللقب مثل النابغة الجعدى والنابغة الشيبانى ، والنابغة التغلبى ، ويميز هو منهم باسم النابغة الذبيانى " .

( )الضمير فى قوله (وحلت) يعود على سعاد التى سبق ذكرها فى بيت سابق . وبنو القين بن جسر من قضاعة .

والبيت فى ديوان النابغة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٢١٨ .

والحقيقة أنه لا يعرف شيء واضح عن نشأة النابغة ، وكل ما يحرص الرواة على قوله هو أنه نشأ فى بلاد قومه، وكانت أسرته لها مكانة مرموقة فى قبيلة ذبيان ، وكان من سادة ذبيان ، وحكمائهم .

ولكنه على ما يبدو لم يشترك فى حرب داحس والغبراء التى قامت بين قبيلته وأبناء عمهم من عبس ، وذلك لأنه لم يكن راضيا عن تلك الحرب الطاحنة التى عصفت بالآلاف من أبناء القبيلتين لأسباب كلها تافهة .

وقد تسببت الحرب التى نشبت بين قبائل ذبيان أن تجعل قبيلة الشاعر بنى يربوع تعيش فى الطرف الغربى لبلاد ذبيان ، لدرجة أنها جاورت بنى عذرة وعاشت بجانبها ، وهذا هو السبب الذى جعل الشاعر لم يشر إلى تلك الحرب فى شعره كما فعل زهير بن أبى سلمى ، وهو السبب نفسه الذى جعله لم يشارك فيها .

وقد بقى النابغة على دين قومه الذى سبق أن ذكرناه، إذ كانت قبيلته وثنية ، ولذلك راح يعظم الكعبة ، ويعظم الأنصاب والحجارة التى تذبح الذبائح بجانبها .

لنستمع إليه يعظم الأنصاب فيقول :

فلا لَعَمر الذى مَسَّحْتُ كعبتَـــهُ

وما هُرِيق على الأنْصَاب من جَسَد

و النابغة من أشراف ذبيان وبيوتاتهم ، وهو شاعر فحل ، وقد عرف بذلك من خلال تقدير الناس له ولشعره ، وإعجابهم به وبشعره ، ومن أجل ذلك يعد من شعراء الطبقة الأولى فى الجاهلية ، وعلى وجه الخصوص فى باب الاعتذار ، لدرجة أن الشعراء قالوا : أشعر الشعراء : " امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا طرب ، والنابغة إذا رهب " .

ومما ساهم فى رفع مكانة النابغة أنه كان يجمع بين الشعر والنقد ، لقد كان حكما بين الشعراء فى سوق عكاظ، يأتى إليه الشعراء فى هذا السوق يعرضون عليه أشعارهم.

وإذا كان الدكتور شوقى ضيف يجهل نشأة النابغة

وشــبابه [١] . فإنــه راح يفــتش فى أشعاره ليعرف منها أخــباره ومــا تصوره هذه الأشعار من شطر حياته الثانى ذلــك الــذى اتصــل فيه بالنعمان بن المنذر ملك الحيرة ، وبالغساسنة أمراء الشام .

لقــد قصد النابغة بلاط النعمان بن المنذر ، ومدحه ، فأعجب النعمان به وبشاعريته الرائعة ، ومن ثم قربه حتى أصبح شاعره وجليسه وصديقه ، يمدحه ، ويتغنى بمناقبه، واحتل بهذا منزلة سياسية وأدبية ، حالت دون أن يكرم من سواه من الشعراء إكرامه .

وكــان الــنعمان كــريما غاية الكرم مع النابغة ، لقد أعطــاه العطايا الجزيلة التى تصل إلى المائة من النوق ، وهذا ما ذكره النابغة نفسه فى شعره .

يقول مصورا ذلك فى معلقته [٢] :

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) ص ٢٦٩ .
(٢) شرح المعلقات السبع . الزوزنى ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

الواهب المائة المعكاء زينها

سعدان توضح فى أوبارها اللبد (١)

والساحبات ذيول المرط فنقها

برد الهواجر كالغـــزلان بالجـــرد (٢)

والخيل تمرغ غربا فى أعنتهـــا

كالطير تنجومن الشؤبوب ذى البرد (٣)

والأدم قد خيست فتلا مرافقها

مشدودة برحال الحيرة الجدد (٤)

لقـــد أصـــبح النابغة شاعر النعمان الفذ فى حين كان

---

(١) ويروى : (المائة الجرجور) و(المائة المعكاء) : أى الغلاظ السمان والســـعدان : نـبت ينفرش على الأرض تسمن عليه الإبل وتغزر ألبانها ، ويطيب لحمها . وتوضح : اسم موضع ينبت فيه السعدان ، ويقع فى ملتقى بلاد الدواسر فى عالية نجد الجنوبية . واللبد : ما تلبد من الوبر .

(٢) الساحبات : الجوارى ، وفنقها : طيب عيشها . والجرد : الموضع الذى لا ينبت.

(٣) تمرغ : تمر سريعا. وغربا: أى حدة . والشؤبوب : السحاب العظيم المطر .

(٤) الأدم : النوق البيض . وخيست : ذللت . فتلا مرافقها : كناية عن قوة خلقها ومتانتها .

بـــلاط الـــنعمان يمـــوج بالشعراء أمثال : أوس بن حجر الـــتميمى ، والأعشى ، والمثقب العبدى ، ولبيد بن ربيعة العامرى ، وحسان بن ثابت رضى الله عنه[١] .

ولكن كل ذى نعمة محسود ، فبعد أن استطاع النابغة أن ينال المنزلة العالية عند النعمان ، وأن يتقدم على غيره من الشعراء ، آلم بعض الحساد والوشاة ما وصل إليه أمر الـــنابغة عـــند النعمان ، فسعوا بالوشاية بينه وبين الملك ، ونظمـــوا عـــلى لســـان النابغة شعرا فى هجاء النعمان ، واتهمـــوا الـــنابغة بأنـــه تغزل بزوجة النعمان المتجردة ، الأمر الذى أغضب النعمان على النابغة،وجعله يهدر دمه .

لقـــد تـــرك الـــنابغة بـــلاط النعمان ، وفر ذاهبا إلى الغساســـنة فى الشـــام ، وأخـــذ فى مدحهم مع علمه بأنهم خصـــوم الـــنعمان ، وبلغ عندهم منزلة رفيعة ، وأقام عند ملك جلق عمرو بن الحارث الأصغر .

---

(١) يذكـــر أن حسان بن ثابت رضى الله عنه التقى برجل وهو فى طريقه إلى قصر الملك النعمان بن المنذر ، فسأله عن أخبار الشعراء الذين يفدون على النعمان ، فقال له الرجل : إذا وجدت النابغة عند النعمان فإياك والبقاء فإن النعمان لا يعادل به غيره .

والسبب فى هذا التحول من ملوك الحيرة إلى ملوك جلق هو الأحداث التى حدثت بين عمرو بن الحارث الملك الغسانى وقبيلة ذبيان .

يقول الدكتور شوقى ضيف [١] :

" على أن حادثا حدث اضطره إلى مغادرة بلاط المناذرة والتوجه توا إلى بلاط الغساسنة ، إذ أوقعوا بذبيان وأحلافهم من بنى أسد وقعة منكرة على أثر تعديهم على وادى أقر الخصيب ، وكانوا قد حموه ومنعوا أن ترتاده القبائل ، وارتادته ذبيان وأسد ، فنكلوا بهما تنكيلا فظيعا ، وسبوا كثيرا منهما ومن نسائهما .... " .

ونحن نجد صدى تلك الموقعة فى شعر النابغة ، يقول [٢] :

(١) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) ص ٢٧٠ .

(٢) ديوان النابغة : ٧٥.

لقد نهيتُ بنى ذبيانَ عن أُقُرٍ

وعن تربُّعهم فى كل أصْفار (١)

وقلتُ يا قــومُ إن الليث مُنقبِض

على بَراثنه لوَثْبة الضارى (٢)

لا أعرفَنْ رَبْربا حُورا مَدَامعها

كأن أبكارها نِعــاجُ دَوَّار (٣)

---

(١) أقر : واد بقرب تيماء . تربعهم : إقامتهم وقت الربيع .
أصفار : شهور الربيع جمع صفر ، لأن صفرا كان في الربيع .

(٢) منقبض : مستهيئ للوثبة . البراثن : الأظافر والمخالب . الضارى : متعود الافتراس .

(٣) الربرب : القطيع من بقر الوحش ، تشبه النساء به ، ويقصد النساء . حورا: جمع حوراء ، وهى العين الجميلة واضحة البياض والسواد . النعاج: إناث البقر . ودوار : اسم صنم كن يطفن به فى الجاهلية ، أو واد بقرب الرياض .

يَنظرنَ شَزْراً إلى من جاء عن عُرُضٍ

بأوجُهٍ منكرات الرِّقِّ أحرارِ (٤)

خلفَ الغضاريط لا يُوقَيْنَ فاحشةً

مُستمسكاتٍ بأقْتَابٍ وأكوارِ (٥)

يُذْرِينَ دمعاً على الأشْفارِ مُنحدِراً

يأمُلْنَ رِحْلةَ حِصنٍ وابنِ سَيَّارِ (٦)

---

(٤) شزار : بمؤخرة أعينهن . عرض : جانب وناحية.

(٥) الغضاريط : الأجراء . لا يوقين فاحسشة : لا تمنع الفاحشة عنهن .

أقتاب : أعواد الرحل . أكوار : رحال .

(٦) الأشفار : جمع شفر وهو هدب العين . .

حصـــن : حصن بن حذيفة الفزارى الذبيانى . وابن سيار : زبان بن سيار من فزارة ، وهما من زعماء زبيان.

وهكذا لم يجد النابغة بدا من أن يسعى إلى الغساسنة ، وأن يمدحهم ، وظل عندهم يبالغون فى إكرامه ويبالغ فى مديحهم ، ومما قال فيهم (١) :

تُوُرِّثْنَ مــن أزمان يوم حليمــةٍ

إلى اليوم قد جُرِّبْنَ كلَّ التجارب

لكــن هــواه وحبه كانا مع صديقه القديم (النعمان) فــنظم قصيدة رائعة ، ودخل متخفيا على النعمان ، وألقاها بيــن يديــه ، فمــا كان من النعمان إلا أن أعجب بها أيما إعجــاب . فعفا عنه ، وأعاده إلى سابق مكانته ومنزلته ، وعاد عنده إلى سابق حظوته .

وقــد بــقى النابغة ملازما للنعمان حتى قتل عــــام ٦٠٢ م، وبعــد مقتل النعمان عاد النابغة إلى بلاد قومه ، وأقام عندهم سنتين حيث توفى عام ٦٠٤ م(١٨ ق .هــ).

(١) ديوان النابغة ص ٤٥ .

شعره :

لعل أول من اهتم بشعر النابغة الذبياني هو الأصمعي، فقد جمع شعره من الرواة ، واحتفظ به في ديوان تناقله النساخ حتى وصل إلينا [١] ، على أن أتم طبعة لديوان النابغة هي طبعة دار المعارف سنة ١٩٧٧ م تلك التي حققها الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم .

وكان النابغة على جانب كبير من الشاعرية . وقد شهد له بجودة شاعريته عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فعندما وفدت غطفان على عمر رضي الله عنه قال لهم: يا معشر غطفان ، أي شعرائكم الذي يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة

وليس وراء الله للمرء مذهب

فقالوا : النابغة يا أمير المؤمنين .

---

(١) انظر : العصر الجاهلي ، د/ شوقي ضيف ص ٢٧٥ ومابعدها .

قال : هذا أشعر شعرائكم !

وسأل رجل ابن عباس بقوله : أى الناس أشعر ؟

فقال ابن عباس لأبى الأسود الدؤلى – وكان إلى جانبه – : أخبره يا أبا أسود ، فقال أبو الأسود الذى يقول:

فإنك كالليل الذى هو مدركى

وإنْ خلت أن المنتأى عنك واسع

وكان النابغة على جانب كبير من الحكمة والأخلاق ، وقد أعجب الكثيرون بشعره لما فيه من إشارات دينية وأخلاقية ، ويكفيه أنه مؤسس فن من فنون الشعر ألا وهو فن الاعتذار .

وقد قرنه ابن سلام صاحب طبقات فحول الشعراء إلى الشعراء امرئ القيس ، وزهير ، والأعشى ، فهؤلاء الأربعة فى رأيه هم المقدمون على سائر شعراء الجاهلية[1] ، بل جعله بعد امرئ القيس مباشرة ، وتبعه

---

(١)انظر طبقات فحول الشعراء ص ٤٣ ومابعدها .

فى ذلـك الرواة والأدباء والنقاد ، فالأربعة عند الجميع هم السـابقون ، المجيدون ، المقتدرون على تصريف الشعر ، والنظم فى فنونه المختلفة .

ونحـن : إذا نظرنا فى شعر النابغة وجدناه شعرا قد أتقـن صـنعه ، شأنه شأن شعر كل من أوس بن حجر ، وزهير بن أبى سلمى .

يقول الدكتور شوقى ضيف [١] :

" وإذا استعرضـنا دواويـنهم جميعا [٢] وجدنا النابغة يقـرب فى ذوقـه من أوس بن حجر وزهير ، ومدرستهما التى اشتهرت عند القدماء بالتجويد والتنقيح ، فهو لا يقبل كـل ما يفد على خاطره ، بل لايزال يثقفه ، ويصقل فيه ، حـتى يسـتوى له اللفظ الموثق ، والديباجة الجزلة ، وقد أتيح له أن يعيش فى بيئتين متحضرتين هما الحيرة وبلاط الغساسنة ، فرق ذوقه ، وسهل منطقه ولفظه ، وإن كان لم

---

(١) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) ص ٢٨١ .

(٢) يقصد بجانب النابغة امرأ القيس ، وزهير ، والأعشى .

ينس البادية ولغتها ، وغرابة هذه اللغة " .

ومما ساهم فى جودة شعر النابغة أن صاحبه يجمع بين الشعر والنقد ، وأنه يتمتع بأخلاق رفيعة تتمثل فى وقاره ، وارتفاعه عن الدنايا ووفائه للأصدقاء ، وحفاظه الشديد على العهد . ولذلك جعلوه محكما بين الشعراء فى سوق عكاظ كما قدمنا . وكأنه فى رأيهم الشاعر الفذ الذى لا يشق له غبار . ولا يرد له حكم ، لأنه لا ينطق عن عصبية أو هوى . ومن ثم كان حكمه قاطعا لا يقبل عندهم طعنا ولا نقضا .

وكان النابغة يشهد سوق عكاظ ، وتضرب له فيه خيمة من الجلد ، ثم يأتى إليه الشعراء يعرضون عليه أشعارهم .

وفى موسم من المواسم عرض عليه الأعشى شعره ، ثم تبعه حسان بن ثابت رضى الله عنه ، ثم أنشدته الخنساء قولها :

وإن صخرا لتأتم الهداة به

كأنه علم فى رأسه نار

فكان أن قال النابغة للخنساء : والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفا لقلت إنك أشعر الجن والإنس ، وكان حسان رضي الله عنه يسمع ذلك فغضب وقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال النابغة :

يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذي هـو مدركي

وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فسكت حسان ولم يقل شيئا .

لقد قال النابغة في أغراض مختلفة منها :

المديح ، والاعتذار ، والغزل ، والرثاء ، والوصف ، والحكمة ، لكن الذي نود أن نشير إليه أن القدماء قد وقفوا طويلا عند إجادته لفني المديح والاعتذار ، لقد كان شاعرا بارعا في هذين الفنين ، يعرف كيف يتخير ألفاظه ، وكيف ينوع في معانيه ، وكيف يستقصي صوره ويستتمها؛ لقد استعان بموهبته في اختراع الصور والمعاني والتدقيق

فيهـــا، حـــتى أخرج لنا قصائد تعد فى بابها من أروع ما خلفه لنا العصر الجاهلى .

ولعل هذا هو الذى جعل عمر بن الخطاب رضى الله عـــنه يعجب بشعره لما فيه من إشارات دينيّة وأخلاقية ، وقـــد أعجـــب ببيـــتين قالهما النابغة من قصيدة اعتذر بها للنعمان .

وهذان البيتان هما :

أتيتُك عارياً خَلَقًا ثيابـــى

على خوفٍ تظنَّ بى الظنونُ

فألفيتُ الأمانةَ لـــم تخُنْها

كذلك كان نوحُ لا يخـــونُ

* * *

وهذه هى الأغراض التى نظم فيها النابغة

١ـ المديح :

يعتبر مدح النابغة من أجود وأروع شعر المدح فى العصر الجاهلى ، فعلى الرغم من أن شعره تتردد فيه المعانى المتداولة فى شعر المدح ، مثل شرف المحتد والنسب ، وعلو الشأن والمنزلة ، والكرم ، والشجاعة ، إلا أننا نراه ينتقى هذه المعانى انتقاء يرضى ممدوحيه ، فكأن هذه المعانى تطرق أسماعهم لأول مرة ، أو لكأنه سبق الشعراء بها .

يمدح الغساسنة بالنعيم فيقول :

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم
من الجود والأحلام غيرُ عوازبِ
رقاق النعال طيبٌ حُجُزاتُهمْ
يُحيَّون بالرَّيحان يومَ السباسِبِ (١)

---

(١) رقاق النعال : كناية عن النعمة والترف .و طيب حجزاتهم : معاقد أزرهم تفوح طيبا . يوم السباسب : عيد عند المسيحيين .

تحييهُمَ بيض الولائدِ بينهُمْ

وأكسِيَةُ الإضْرِيحِ فوق المشَاجِبِ (١)

يصونون أجسادا قديما نعيمُها

بخالصةِ الأردانِ خُضْرِ المناكِبِ

وهو لا يبالغ كثيرا في مدحه ، لأنه يستعمل التشبيه ، يقول مخاطبا النعمان بن المنذر :

ألم تر أن الله أعطاك سُورةً

ترى كل مَلْكٍ دونها يتذبذب (٢)

بأنك شمس والملوك كواكب

إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وكـــان للنعمان حاجب يدعى (عصام) ، وقد ترقى عصـــام هـــذا في خدمـــة المـــلك حتى صار بمثابة حاجبه

---

(١) الإضريج : الخز الأحمر .

(٢) السورة : المنزلة الرفيعة .

ووزيـــره ، ولعـــل إليه نسبت كلمة (عصامى) ذلك الذى يشق طريقه ،ويحتمل مالا يحتمل وما لا يطاق حتى يصير صاحب مركز ونفوذ .

يقول النابغة يمدحه :

نفس عصام سودت عصاما

وعلمته الكر والإقدامـــــا (١)

وصيرته بطــــلا هماما

حتى علا وجاوز الأقوامـــا

والجديـــر بالذكـــر أن تكسب النابغة بالشعر لم يغض منه، ولم يقلل من مرتبته بين الشعراء :

يقول الدكتور شوقى ضيف (٢) :

" .... أما أن تكسبه بالشعر ، وأخذه نوال المناذرة ،

---

(١) سودته : جعلته سيدا .

(٢) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلى) ص ٢٨١ .

وكذلــك الغساســنة قد غض منه ، وأنزل من مرتبة شرفه فغيــر صــحيح ،لأن وفــوده عــليهما لم يكن القصد منه التكســب، وإنمــا كان القصد رعاية مصالح قبيلته عندهما كما قدمنا، فقد كان سفيرها فى بلاطهما .

وحقا إنه يبالغ فى مديحه واعتذاره ، ولكنها مبالغة لا تنــتهى إلى ذلــة نفس ، بل هى المبالغة التى تأتى من أنه يــتحدث إلى أمــراء كــان لهــم سلطان كبير على القبائل العــربية ، ويريد أن يصلح ما فسد من قلوبهم عليه وعلى قبيلته ... " .

٢ـ الاعتذار :

ليس من شك فى أن النابغة يعتبر رائد فن الاعتذار من بين فــنون الشعر الجاهلى ، ويمكن القول إن منهجه فى هذا الفن هو بعينه المنهج الذى سار عليه شعراء الجاهلية والاسلام .

لقــد أجــاد فى هــذا الفن إجادة واسعة ، إذ يعمد إلى التحليل والتعليل ، كما يعد إلى تفتيق المعانى ، هذا فضلا عــن أنه يضم إلى جانب الاعتذار المديح ، ويأتى ببعض الأبيــات المشتملة على الحكم البديعة ، وهذه مجتمعة هى

الـــتى جعلت الشعراء الآخرين لم يستطيعوا أن يجيدوا في هذا الفن كما أجاد النابغة .

ومـــن يقـــرأ قصـــائده في الاعتذار يجد هذه الصفات متوافرة كل التوافر .

فقصيدته التى مطلعها :

أتانى أبيتَ اللّعْــنَ أنك لُمتنى

وتلك التى أهتمُّ منها وأنْصَبُ (١)

نـــراه يبدؤها بالهموم التى أحاطت به ، ثم ينتقل إلى الحلف بالله بأنه غير مذنب ، وذلك فى قوله :

حلفتُ فلم أترك لنفســـك ريبةً

وليس وراءَ الله للمرء مذهبُ (٢)

ثـــم ينـــتقل إلى مناقشة من يخاطبه فيما وصل عنه ، وذلك فى قوله :

---

(١) أنصب : أجهد جهدا شديدا.

(٢) يحلف له بأنه برئ مما اتهمه به الواشى .

لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عنى خيانةً

لمُبْلِغُكَ الواشى أغشُّ وأكْذَبُ

ولم يهمل طلب العفو ، بل راح يقول :

فلا تتركنِّى بالوعيد كأننــــى

إلى الناس مطلىٌّ به القارُأجرَبُ (١)

وفى آخر القصيدة نراه يشير إلى أن الإنسان لا يخلو من العيوب ، يقول :

ولستَ بمستبقٍ أخـــاً لا تَلُمُّهُ

على شَعَثٍ ، أىَّ الرجالِ المهذَّب (٢)

ومن بديع اعتذاراته قصيدته العينية التى يقول فيها :

فإنك كالليل الذى هو مدركى

وإن خِلتُ أن المُنْتأى عنك واسـع (٣)

(١) القار : القطران . وكانوا يداوون به الإبل الجربى .

(٢) شعث : فساد . تلمه : تجمعه وتضمه .

(٣) المنتأى : المكان النائى البعيد .

أتوعِد عبداً لم يَخُنْك أمانةً

وتتركَ عبداً ظالماً وهو ضالع (١)

وأنت ربيعٌ يُنعِشُ الناسَ سيبُهُ

وسيفٌ أُعيرتْه المنيةُ قاطعُ (٢)

أبى الله إلا عدله ووفاءه

فلا النكرُ معروفٌ ولا العرفُ ضائع (٣)

يقول الدكتور شوقى ضيف عن الاعتذار فى شعر النابغة (٤):

وإذا كان النابغة يتفوق فى المديح تفوقا ظاهرا فإنه كذلك يتفوق فى الاعتذار ، وكأن ذوقه الحضرى هو الذى أعده لهذا التفوق ، إذ نحس فيه رقة فى اللهجة ، وإلحاحا

(١) ضالع : مائل عن الحق ، ويروى ظالع وهو الجائر المذنب .
(٢) الربيع هنا : الغيث . والسيب : العطاء.
(٣) النكر : المنكر . والعرف : المعروف .
(٤) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) ص ٢٨٦.

فى التلطف ، محاولا أن يزيل من نفس النعمان بن المنذر ظنه السيئ فيه .

وقد استعان بموهبته فى اختراع الصور والمعانى والتدقيق فيها ، مدبجا فى ذلك قصائد طوالا تعد من أروع ما خلفه العصر الجاهلى . لا لطولها فحسب ، بل لما فيها من صدق اللهجة ، وسهولة اللفظ ، وحسن الديباجة ، وقد أسعفه فى ذلك ذوقه الحضرى الذى خلصه من خشونة البدو ، ومن الأنفة الجامحة ، فإذا ذنبه يكبر فى نفسه ، وإذا هو يحس كأنه أتى جريرة لا تغتفر ، فما ينى يقدم للنعمان المعاذير متخذا إليه كل ما يستطيع من البراهين ومن سبل التلطف والملاينة ، وقد يؤديه ذلك إلى غير قليل من التذلل والاسترحام ، حفاظا على صداقته القديمة له ، واستبقاء لوده . وهو حسن تأت لا صغار نفس ولا مهانة ... " .

ويقول أيضا (١) :

" ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة بينة على براعة

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٩٢ .

النابغة فى اعتذاره ومديحه جميعا ، فقد كان يعرف كيف ينوع معانيه ، وكيف يسلك إليها شعابا لم يسلكها أحد من قبله .... " .

٢- الرثاء

ومع أن النابغة لم يشتهر فى الرثاء كما اشتهر فى المديح والاعتذار ، فإن رثاءه لا يقل فى جودته عن الغرضين المتقدمين وإن كانت معانيه التى يوردها فى الرثاء هى جملة المعانى التى تداولها الشعراء ، من إبداء الأسف والحسرة لفقد الميت ، ومن استمطار الغيث على قبره ، وإظهار البكاء عليه .

ونحن نجد ذلك فى أبياته التى قالها فى رثاء النعمان ابن الحارث بن أبى شمر الغسانى .

فبعد أن يستهل القصيدة بالنسيب ، ويصف الناقة ينتقل إلى الرثاء فيصور حزنه لفقد النعمان ، ويشعل صدره بشعلة من الحزن لا تهدأ ولا تخبو .

يقول داعيا له ومترحما عليه (١) :

فإن تحيَ لا أمْلَلْ حياتى وإن تَمُتْ

فما فى حياة بعد موتك طائلُ

فآبَ مُصلّــوهُ بعيــنٍ جليلةٍ

وغودر بالجَوْلان حزمٌ ونائلُ (٢)

سقى الغيثُ قبرا بين بُصْرى وجاسمٍ

بغيثٍ من الوَسْميِّ قطرٌ ووابلُ(٣)

ولازال ريحـــانٌ ومسكٌ وعنبرٌ

على منتهاه ديمةٌ ثـم هاطـلُ(٤)

---

(١) الديوان ص ١٢٠ .

(٢) مصلوه : الذين نقلوا الخبر اليقين . والجولان : منطقة فى الشام .

(٣) بصرى : مدينة فى جنوبى الشام ، وجاسم : قرية قريبة من دمشق .
الوسمى : أول المطر . وابل : غزير .

(٤) منتهاه : قبره . الديمة : المطر ليس فيه برق ولا رعد. الهاطل : المطر المتتابع.

وَيُنْبِتُ حَوْذاناً وعَوفاً مُنَوَّراً

سأتبعه من خير ما قالَ قائلُ (١)

بكى حارثُ الجولان من فقد ربه

وحورانُ منه موحشٌ متضائلُ (٢)

قعودا له غسانُ يرجون أوبه

وتركٌ ورهطُ الأعجميين وكابُلُ (٣)

٤ — الغزل :ـ

والنابغة يأتي بالغزل في مقدمات القصائد مؤتسيا بمن حوله من الشعراء ،وكأنه — كما كانوا غالبا — يهدف إلى جذب الانتباه لما يقوله .

وللنابغة قصيدة كاملة فى الغزل ، وهى تلك التى قالوا إنه قالها فى المتجردة زوجة النعمان ملك الحيرة ،

---

(١) الحوذان والعوف : نوعان من النباتات الطيبة الرائحة .

(٢) حارث الجولان : جبل في الجولان . وحوران : منطقة فى جنوبى الشام .

(٣) يريد أن يقول إن العرب وغيرهم ينتظرون عودته ولكن أنى لهم ذلك ؟!

ومطلع تلك القصيدة :

أمِنْ آل ميَّةَ رائحٌ أو مُغْتدى

عجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مزوَّدِ

ومعظم غزل النابغة وسيلة للوصول إلى الغرض الذى أنشأ من أجله القصيدة ، وهذا الغزل وإن خلا من العاطفة القوية المتقدة ، لكن فيه ما فيه من براعة فى الوصف ، وجودة فى الحبك والسبك .

٥ـ الوصف :ـ

والنابغة بارع فى الوصف [١] ، لقد وصف الناقة على عادة الشعراء من حوله ، كما وصف الليل ، والطيور التى تتابع جيوش الغساسنة ، والكلاب التى ترسل للصيد فتشتبك مع الثور الوحشى وتتعارك معه .

ووصفه فيه براعة تظهر فى جلب انتباه القارئ ،

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) د / شوقى ضيف ص ٢٩٥ ومابعدها .

ومتابعته للصور التى يعرضها ، ولعل ذلك راجع إلى ما بثه فى صوره من حيوية ، هذا فضلا عن مهارته فى التصوير ، سواء كان ذلك فى تمثيل المنظر وتجسيمه ، أو من حيث التشبيهات وإدخالها فى نسيج الأبيات كما يقول الدكتور شوقى ضيف .

ومن أبياته فى وصف الليل . والتى فضلها بعض النقاد على وصف طول الليل عند الشاعر امرئ القيس :

كِلينى لهمٍّ يا أميمةَ ناصبِ

وليلٍ أقاسيه بطيئ الكواكبِ (١)

تطاولَ حتى قلتُ ليس بمنقضٍ

وليس الذى يرعى النجوم بآيبِ (٢)

---

(١) كلينى : دعينى . ناصب : متعب . بطئ الكواكب : كناية عن أنها لا تغور ولا تمضى .

(٢) ايب : راجع . وأراد بالذى يرعى النجوم : الصبح .

وصدر أراح الليلُ عازبَ همِّه

تضاعف فيه الحزنُ من كل جانب (١)

وإذا كان النابغة قد برع فى وصف الليل فإنه قد برع كذلــك فى تصوير الطيور التى تتابع الجيش ، وبرع كذلك فى رسم صورة الكلاب والثور الوحشى من خلال المعركة التى تنشب بينهما .

ومن وصفه للطيور وهى تتابع جيش الغساسنة قوله :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم

عصائبُ طير تهتدى بعصائبِ (٢)

يُصاحِبْنَهم حتى يُغِرْن مُغَارهمْ

من الضاريات بالدماء الدوارب (٣)

---

(١) أراح : رد . العازب : البعيد .

(٢) عصائب مجموعات.

(٣) الدوارب : المتعودات ، ومثلها الضاريات .

تراهن خلف القوم خُزْراً عيونُها

جُلوسَ الشيوخ فى ثيـابِ المَرَانب (١)

ومـن وصـفه للمعركة التى نشبت بين الثور وكلاب الصيد قوله(٢) :

فارتاع من صَوْتِ كلَّاب فبات له

طَوْعُ الشوامتِ من خوفٍ ومن صَرد(٣)

فبثّهن عليه واستمـر بـه

صُمْعَ الكعوب بريئاتٍ مـن الحَرَد(٤)

وكان ضُمرانُ منه حيث يُوزِعُهُ

طعنَ المُعارِكِ عند المُحْجر النَّجُـدِ(٥)

---

(١) خزر العيون : جمع أخزر وهو الذى ينظر بمؤخر عينه . والمرانب : ثياب سود .

(٢) الديوان ص ١٨ .

(٣) الشوامت : القوائم ، والمراد من طوعها إسراعها به . والصرد: البرد.

(٤) فبثهن : بث الصائد الكلاب على الثور الوحشى .

استـمر بـه : اشتد به وقوى . صمع الكعوب : تلصق كعوبها فى أماكنها بسرعة . بريات : بريئات . الحرد : استرخاء العصب

(٥) ضـمران : اسـم كـلب . يوزعه : يغريه ويحضه . المحجر : الملجأ وحمى القبيلة . النجد : الشجاع .

شكَّ الفريصةَ بالمِدْرى فأنفذهـا
طعنَ المُبيطر إذ يَشفى من العَضَد [1]
كأنه خارجاً من جنب صَفحته
سفُّود شَرْبٍ نَسُوه عند مُفْتأد [2]
فظل يعجُمُ أعلى الرَّوْق مُنْقبضـا
في حالك اللون صَدْقٍ غير ذي أوَد [3]
لما رأى واشقٌ إقعـاصَ صاحبه
ولا سبيل إلى عقْـلٍ ولا قَـوَد [4]
قالت له النفس إني لا أرى طَمَعا
وإن مولاك لم يسلم ولم يصِـد [5]

---

(١) الفريصة : لحم الكتف مما يلي الجنب . المدرى : القرن . المبيطر : معالج الحيوان . العضد : داء يلم بالعضد ويصيبه .

(٢) السفود : حديدة الشواء . نسوه : تركوه . المفتأد : الموضع الذي يشوى فيه .

(٣) يعجم : يعلك : الروق : القرن . صدق : صادق في الطعن . أود : اعوجاج .

(٤) واشق : اسم كلب . الإقعاص : القتل السريع . العقل : الدية . القود : القصاص .

(٥) المولى : الناصر والمعين . يسلم : يأسر .

٦ـ أغراض أخرى :ـ

وفى ديـوان الـنابغة موضـوعات شعرية أخرى ، كالحكمـة ، والـزهد ، والفخـر ، والهجاء ، غير أنه فى فخـره وهجائه " لا يتوفر على إحكامه وإظهار مهارته فيه شـأنه فى المديـح والاعتذار والرثاء ، وكأنه كان يمتعه وقارد أن يتمادى فيه ، وخاصة فى الهجاء [١] .

وليـس للـنابغة كذلك قصائد تختص بالحكمة ونستقل بهـا، لكننا نجد له أبياتا متتابعة يقولها فى الحكمة ، وهذه الأبيات مبثوثة هنا وهناك فى قصائده الكثيرة .

مثال ذلك قوله :

ولست بمستبق أخاً لا تلمـه

على شَعَث أىُّ الرجال المهذَّبُ

والحقيقـة أن شـاعرنا الـنابغة إذا لم يكن حكيما لما

---

(١) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) د/ شوقى ضيف ص ٢٩٦ .

استطاع أن يعود ثانية إلى النعمان بعد هذا التهديد ، وذلك الوعيد الذى وصل إلى درجة إهدار الدم ، ولما كان قد جلس فى سوق عكاظ يحكم بين الشعراء ، ويبين لهم جيد الشعر من رديئه دون أن يغضب عليه أحد .

ومما قاله فى الزهد :

مرء يأمــل أن يعيــ ــشَ وطول عيشٍ قد يضُرُّهْ
ـنى بشاشتُه ويبـ ـقى بعدَ حُلو العيشِ مُرُّهْ
تخونُه الأيام حتـى لا يرى شيئاً يسُرُّهْ

* * *

أبيات المعلقة

أولا: المقدمة الغزلية

وذكر الديار على عادة الشعراء الجاهليين

جو النص :

كـان الـنابغة شاعر النعمان بن المنذر ملك الحيرة وصـديقه المفضـل المقرب إليه ، لكن بعض الحاقدين قد أوقعـوا - كمـا سـبق لنا القول - بينهما ، وحدثت جفوة كـبيرة فر على أثرها النابغة إلى بلاد الشام ، حيث أكرمه الغساسنة ، الأمر الذى جعله يمدحهم بقصائد كثيرة .

والقصـيدة الدالية التى معنا يمدح فيها النابغة النعمان ابـن المـنذر ، ويعـتذر إليـه ، لكنه بدأها كعادة شعراء الجاهلية بالنسيب ، يقول :

يا دار مَيَّةَ بالعلياء فالسَّنَـد

أقوتْ وطالَ عليها سالفُ الأبدِ (١)

---

(١) العـلياء والسـند : موضـعان . أقوت : خلت من أهلها . والسالف : الماضى . والأبد : الدهر .

وقفتُ فيها أصيلاً كــى أسائلها

عيّتْ جواباً وما بالرَّبْعِ مــن أحدِ (٢)

إلا الأَوَارِيَّ لأْياً ما أُبَيِّنُها

والنُّؤْيُ كالحوض بالمظلومة الجلَدِ (٣)

رُدَّتْ عليه أقاصِيه ولَبَّـــدَهُ

ضَرْبُ الوليدة بالمِسْحاة فى الثَّأَدِ (٤)

---

(٢) أصيلا : عشيا . عيت:أى عيت وعجزت أن تجيب . ويروى (أصيلانا) تصغير (أصلان) جمع أصيل ، أو أنه بمنزلة قولهم : على الله الكثلان.

(٣) الأوارى : الأوتـــاد التى تحبس بها الخيل وتربط بها . ويروى : (إلا أوارى) والنصــب أجــود . واللأى : البطء . يقال : التأت عليه حاجته . والنـــؤى : حفــرة حـــول الخيام تمنع عنها السيول . والمظلومة : الأرض صعبة الحفر . والجلد : الصلبة .

(٤) أراد بقولـــه: (ردت عليه أقاصيه) : ردت عليه الأمة . وأقاصيه : ما شذ منه . ولبده : جمعه وسكنه حفر الوليدة (الأمة) . والثأد: الموضع الندى التراب .

خَلَّتْ سبيلَ أتِيٍّ كان يحبِسُهُ

ورفَّعته إلى السَّجْفَين فالنضَدِ (٥)

أضحتْ خلاءً وأضحى أهلُها احتملوا

أخْنَى عليها الذى أخنى على لُبَدِ (٦)

فعد عمَّا ترى إذ لا ارتجاعَ له

وانْمِ القُتُودَ على عَيْرانةٍ أُجُدِ (٧)

---

(٥) خلت : شقت . والأتى : النهر الصغير ، والسيل . ورفعته : المراد منها أعلته وقدمته وبلغت به ، كما تقول : ارتفع القوم إلى السلطان . والسجفان: ستران رقيقان يقومان بالستر فى الخيمة . ويكونان في مقدم البيت . والنضد : ما نضد من المتاع .

(٦) وأضحى أهلها احتملوا : يريد قد احتملوا . وأخنى عليها : فيه قولان : أحدهما أن المعنى أتى عليها ، والقول الآخر وهو المناسب ، أن المعنى : أفسد ، لأن الخنا : هو الفساد والنقصان . وأخنى عليها : أصابها بآفات الدهر . ولبد : نسر من نسور لقمان يقولون إنه عمر مائتى عام .

(٧) عد عما ترى : أى جزء وانصرف عنه ، إذ كان لا رجوع له ، يعنى ما ترى من خراب الدور . والقتود : خشب الرحل ، وهو جمع كثرة،وجمع القلة : أقتاد . والعيرانة : المشبهة بالعير ، لصلابة خفيها وشدته . والأجد : التى عظم فقارها ، وقالوا هى الموثقة الخلق .

مَقذوفَةٍ بدَخيسِ النَّحضِ بازِلُهـا

له صريفٌ صريفَ القَعْوِ بالمَسَدِ (٨)

كأنّ رحْلِى وقد زال النهارُ بِنـا

بِذى الجليلِ على مُسْتأنِسٍ وَحَدِ (٩)

---

(٨) مقذوفة : أى مرمية باللحم . والدخيس والدخاس : الذى قد دخل بعضه فى بعض من كثرته . والنحض : اللحم ، جمع نحضة . والبازل : الكبير . والصريف : الصياح . والصريف من الإناث : من شدة الإعياء ، ومن الذكور : من النشاط . والقعو : ما يضم البكرة إذا كان خشبا ، فإذا كان حديدا فهو خطاف .

(٩) زال النهار بنا : معناه انتصف علينا . والجليل : الثمام ،أى بموضع فيه ثمام . والمستأنس : الناظر بعينه ، ومنه قيل إنسان ، ويروى : على مستوجس ، وهو الذى قد أحس فى نفسه الفزع ، فهو ينظر .

ثانيا : وصف الناقة

مِن وَحْشِ وَجْرَةَ مَوْشِيٍّ أكارِعُهُ

طاوى المَصير كسيف الصَّيقَلِ الفَرِدِ (١٠)

تَسَرَتْ عليه من الجوزاءِ ساريةٌ

تُزْجِى الشَّمالَ عليه جامِدَ البَرَدِ (١١)

---

(١٠) وجرة : موضع بنجد ، وخصها لأنها فلاة ، يقال إن فيها ستين ميلا . والوحش يكثر بها ، ويقال إنها قليلة الشرب فيها . وموشى أكارعه : مزينة قوائمة بالنقط ، والموشى الذى فيه ألوان مختلفة .
وقوله : طاوى المصير : أى ضامر البطن ، والمصير : المعا ، وجمعه مصران ، وجمع مصران : مصارين . وقوله : كسيف الصيقل: أى هو يلمع ، والصيقل : الحداد . والفرد : الذى ليس له نظير .

(١١) ويروى : أسرت عليه من الجوزاء سارية ، أى جاءت ليلا . والجوزاء : برج فى السماء . وسارية : سحابة . وتزجى : تسوق وتدفع . والشمال : ريح الشمال . وجامد البرد : ما صلب منه .

فارتاعَ من صوت كَلَّابٍ فبات له

طوعَ الشَّوامتِ من خَوْفٍ ومن صَرَدِ (١٢)

فبثَّهنّ عليـــــه واستمرَّ بـــه

صُمْعُ الكُعُوبِ بريئاتٌ من الحَـــرَدِ (١٣)

---

(١٢) ارتاع : فزع . وقوله : (له) الهاء في له عائدة على الكلاب ، ويمكن أن تعـود علـى الصـوت . والشوامت : الواحدة شامتة ، أي فبات يطوع للشوامت ، أي ينقاد لها ، والشوامت : القوائم ، ويريد بطوعها إسراعها به والصرد : البرد.

(١٣) بثهن : فـرقهن . واسـتمر بـه : اشتد به وقوى . والصمع : الضوامر ، الواحدة صمعاء . واستمر به : أي استمرت به قوائمه . والكعـوب : جمـع كعب وهو المفصل من العظام ، وكل مفصل من العظام كعب عند العرب. والحرد : العرج ، وأصله استرخاء عصب في يـد البعير من شدة العقال ، وربما كان ذلك خلقة ، وإذا كان به نفض يديه ، وضرب بهما الأرض ضربا شديدا.

فهابَ ضُمْرانُ منه حيثُ يوزِعُهُ

طَعْنَ المعارِكِ عند المُحْجَرِ النَّجُدِ (١٤)

شَكَّ الفريصَةَ بالمِدْرى فأنفذها

شَكَّ المبيطِرِ إذ يَشْفى من العَضَدِ (١٥)

كأنه خارجاً من جنبِ صَفحتِه

سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوه عند مُفتَأَدِ (١٦)

فظلَّ يعجُمُ أعلى الروْقِ منقبضـــاً

فى حالكِ اللَّوْنِ صَدْقٍ غيرَ ذى أوَدِ (١٧)

---

(١٤) ضمران : اسم كلب للصائد وقوله : (منه) أى من الثور . ويوزعه : يغريه . والمحجر : حمى القبيلة . والنجد : الشجاع.

(١٥) الفريصة : المضغة التى ترعد من الدابة عند البيطار ، ولحم الكتف. والمدرى: قرن الثور ، أى شك فريصة الكلب بقرنه ، والمبيطر : معالج الحيوان . والعضد : داء يأخذ بالعضد ويلم بالكتف ، يقال : عضد عضداً.

(١٦) الهـــاء فى (كأنه) تعود على المدرى . وخارجا : حال ، والخبر : سفود شرب . والسفود : الحديدة التى يشوى عليها اللحم . ونسوه : تركوه ، والمفتأد : المشتوى ، أى موضع النار الذى يشوى فيه.

(١٧) يعجم : يعلك ويمضغ ، والروق : القرن . والحالك : الشديد السواد .

لما رأى واشِقٌ إقْعَــاصَ صاحبه

ولا سبيل إلى عقْلٍ ولا قَــوَدِ (١٨)

قالت له النفسُ إنى لا أرى طمعـا

وإن مولاكَ لم يسلم ولم يَصِـدِ (١٩)

فتلك تُبلغنى النعمــانَ إنّ له

فضلا على الناس فى الأدنى وفى البَعَدِ (٢٠)

والصدق : الصلب الصادق فى الطعن . وأود : عوج .

(١٨) واشق : اسم كلب آخر الصائد . والإقعاص : القتل السريع ، وأصله مــن القعاص، وهو داء يأخذ الغنم لا يلبثها حتى تموت . والعقل : الدابة . والقود : القصاص .

(١٩) المــولى : الناصر . وقولــه : (قالت له النفس) تمثيل ، أى حدثته نفسه بهذا . ويسلم هنا : يأسر.

(٢٠) فتــلك : يعــنى ناقته التى شبهها بهذا الثور . والبعد : قيل إنه مصدر يســتوى فيــه لفظ الواحد والإثنين والجمع ، و المذكر والمؤنث . وقيل إنه جمــع بــاعد ، كمــا يقال : خادم وخدم . ومعنى (فى الأدنى وفى البعد) كمعنى القريب والبعيد ، ومن روى (البعد) فهو جمع بعيد .

ثالثا : المدح والاعتذار

ولا أرى فاعلاً فى الناس يُشبهه

وما أُحاشى من الأقوام من أحَدٍ (٢١)

إلا سليمانَ إذ قــال الإلــهُ له

قم فى البرية فاحدُدْها عن الفَنَدِ(٢٢)

وخَيِّس الجنَّ إنى قد أذِنتُ لهم

يبنون تدمُرَ بالصُّفاح والعَمَـدِ (٢٣)

---

(٢١)وما أحاشى : وما أستثنى . كما تقول : حاشا فلانا ، وقوله : ولا أرى فاعلا فى الناس يشبهه : أى لا أرى فاعلا يفعل الخير يشبهه . ومن زائدة فى قوله : (من أحد) .

(٢٢) إلا سليمان : فى موضع نصب على البدل من موضع أحد ، ويمكن على الاستثناء . ويروى : (إذ قال المليك له) ، ويروى : (فازجرها عن الفند) . والحد : المنع . والفند : الخطأ .

(٢٣) وخيس : أى ذلل. والصفاح : جمع صفاحة ، وهى حجارة رقاق عراض .

فمن أطاعك فانفعه بطاعته

كما أطاعك وادلله على الرَّشَدِ (٢٤)

ومن عصاك فعاقبه معاقبةً

تَنْهى الظَّلومَ ولا تَقْعدْ على ضَمَدِ (٢٥)

إلا لمثلك أو مَــنْ أنتَ سابقُهُ

سَبْقَ الجواد إذا استولى على الأَمَدِ (٢٦)

واحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرتْ

إلى حَمامٍ سِراعٍ وارِدِ الثَّمَــدِ (٢٧)

---

(٢٥)الضمد : الحقد . يقال : ضمد يضمد ضمدا ، فهو ضمد .

(٢٦) قولــــه : (أو من أنت سابقه) : أى لمثلك فى حالك ، أو لمن فضلك عليه كفضل السابق على المصلى ، أى ليس بينك وبينه فى الفضل والشرف إلا يسير . استولى عليه : إذ غلب عليه . والأمد : الغاية .

(٢٧) أى كن حكيما كفتاة الحى إذ أصابت ، ووضعت الشىء فى موضعه ، وهى لم تحكم بشىء ، والمعنى : كن فى أمرى حكيما ، ولا تكن ممن سعى بى . والثمد : الماء القليل .

قالت ألا ليتما هذا الحمامَ لنا

إلى حمامتنا أو نصفه فقد (٢٨)

يحفه جانبا نيق وتتبعه

مثل الزجاجة لم تكحل من الرمد (٢٩)

فحسبوه فألفوه كما حسبت

تسعا وتسعين لم تنقص ولم تزد (٣٠)

---

(٢٨) يروى ((الحمام)) مرفوعا ومنصوبا، وكذلك ((نصفه)) فإذا رفعت ((الحمام)) تكون ما كافة ليت عن العمل، ويصير ما بعدها مبتدأ وخبرا، كما تقول: إنما زيد منطلق، وإذا نصبتها تكون ما زائدة، وقد: بمعنى حسب.

(٢٩) يحفه: يكون في جانبيه، والنيق: أعلى الجبل. يقول الأصمعي: إذا كان الحمام بين جانبي نيق كان أشد لعده، لأنه يتكاثف، ويكون بعضه فوق بعض، وإذا كان في موضع واسع كان أسهل لعده، ووصف [illegible] السرعة. قال أبو عبيدة: وهي حذام اليمامة، وزرقاء اليمامة. وقوله: ((مثل الزجاجة)): يعني عينيها، وقوله: ((لم تكحل من الرمد)): أي لم ترمد فتكحل.

(٣٠) ألفوه: وجدوه. وكما حسبت: يروى: ((كما زعمت))، وكان الحمام الذي رأته ستة وستين، ولها حمامة في بيتها.

فكملتْ مائةً فيها حمامتها

وأسرعتْ حِسبةً فـى ذلك العَدَدِ (٣١)

أعطى لفارِهةٍ حُلْوٍ توابعُهَا

من المواهب لا تُعطَى على نَكَـدِ (٣٢)

الواهبُ المائةَ الأبكارَ زيَّنَها

سَعْدانُ تُوضِحَ فى أوبارها اللِّبَـدِ (٣٣)

---

(٣١) حسبة : قال : الأصمعى : الجهة التى يحسب منها : . والحسبة : المرة الواحدة .

(٣٢) أعطى لفارهة : أى لا أرى فاعلا فى الناس يشبهه أعطى لفارهة ويروى : (حلو توابعها) على الابتداء والخبر . والمبتدأ والخبر فى موضع جر .

(٣٣) ويروى : (المائة الجرجور) والجرجور : الضخام . والسعدان : نبت تسمن عليه الإبل ، وتغزر به ألبانها ، ويطيب لحمها . وتوضح : اسم موضع . واللبد : ما تلبد من الوبر ، الواحدة لبدة .

والساحباتِ ذيولَ المِرْطِ فَنَّقَهَا

بَرْدُ الهواجرِ كالغِزْلانِ بالجَـــرَدِ (٣٤)

والخيلَ تمرغُ غرباً فى أعِنَّتِها

كالطير تنجو من الشُّؤبوبِ ذى البَرَدِ (٣٥)

والأُدْمَ قد خُيِّسَتْ فُتْلاً مرافقُها

مشدودةً برِحَالِ الحيرةِ الجُـــدُدِ (٣٦)

فلا لعمر الذى قد زُرْتُهُ حِجَجاً

وما هُرِيقَ على الأنصابِ من جَسَدِ (٣٧)

---

(٣٤) الساحبات : الجوارى . وفنقها : طيب عيشها ، ويروى : (أنقها) أى أعطاها ما يعجبها . والجرد : الموضع الذى لا ينبت .

(٣٥) تمرغ : تمر سريعا ، ويروى : (تنزع) . والشؤبوب : السحاب العظيم القطر ، القليل العرض ، الواحدة شؤبوبة ، قيل : ولا يقال لها شؤبوبة حتى يكون فيها برد .

(٣٦) الأدم : النوق . وخيست : ذللت .

(٣٧) هريق وأريق : واحد . والأنصاب : حجارة كانت الجاهلية تنصبها ، وتذبح عندها . والجسد : القربان ، والدم .

والمؤمنِ العائذاتِ الطيرَ يمسحُها

رُكبانُ مكةَ بين الغَيْلِ والسَّنَدِ (٣٨)

ما إن أتيتُ بشيءٍ أنت تكرهُهُ

إذن فلا رَفَعَتْ سوطى إلىَّ يَدِى (٣٩)

إذن فعاقبنى ربِّى معاقبةً

قَرَّتْ بها عينُ من يأتيك بالحسَدِ (٤٠)

هذا لأبرأَ من قول قُذِفْتُ به

طارَتْ نوافذُه حراً على كبدى (٤١)

---

(٣٨)العائذات : ما عاذ بالبيت من الطير . وبين الغيل والسند : موضعان بين مكة ومنى ، وقيل الغيل بكسر الغين : الغيضة ، وبفتحها الماء .

(٣٩) إن فى البيت للتوكيد ، وتكف ما عن العمل ، كما أن ما تكف إن عن العمل . والمراد بقوله : (فلا رفعت سوطى إلى يدى) أى شلت هذه اليد .

(٤٠) ويروى : (قرت بها عين من يأتيك بالفند) ، والفند : هو الكذب .

(٤١) النوافذ : السهام ، وهو تمثيل من قولهم : جرح نافذ ، أى قالوا قولا صار حره على كبدى ، ونفذت بهم .

مهلاً فداءٌ لكَ الأقوامُ كلهمُ

وما أُثَمِّرُ من مالٍ ومن ولدِ (٤٢)

لا تقذفنّي بركن لا كِفَاءَ له

ولو تأثّفكَ الأعداءَ بالرِّفَدِ (٤٣)

فما الفراتُ إذا جاشت غواربُهُ

تَرْمى أواذِيُّه العِبْرَيْنِ بالزَّبَدِ (٤٤)

---

(٤٢) وقوله : (فداك لك) يروى : (فداء) على المصدر ، والمعنى الأقوام كلهم يفدونك فداء . ويكون بمعنى ليفدك ، على نحو دراك وتراك ، بمعنى أدرك واترك . واثمر : أجمع .

(٤٣) الكفاء : المثل . وتأثفك الاعداء : احتوشوك ، أي كأنهم صاروا مثلك موضع الأثافي من القدر . والمقصود من قوله : بالرفد : أنهم يتعاونون على ، ويسعون بي عندك أيها الممدوح .

(٤٤) جاشت : فارت . والغوارب : ما علا منه ، الواحد : غارب.والأواذي: الأمواج . والعبران : الشطان .

يمُدُّه كـلُّ وادٍ مُزْبِـدٍ لجِـبِ
فيه حُطامٌ من اليَنْبوب والخَضَـدِ (٤٥)
يظلُّ من خوفه الملاحُ مُعتصماً
بالخَيْزُرانة بعـد الأيْن والنَّجَـد (٤٦)
يوما بأجودَ منه سيبَ نافلةٍ
ولا يَحولُ عطاءُ اليـوم دونَ غَـدِ (٤٧)
أُنبِئْتُ أن أبا قابوسَ أوْعدني
ولا قرارَ على زأرٍ مـن الأسَـدِ (٤٨)

---

(٤٥) يروى في قولـه : (كل واد مزبد) (كل واد مرتاع) ، ويروى في قولـه (فيه حطام) (فيه ركام) . واللجب : ذو الصوت . والينبوت : ضرب من النبت . والخضد : ما ثني وكسر من النبت .

(٤٦) الخيزرانة : كل ما ثنى . والأين : الإعياء . والنجد : العرق من الكرب .

(٤٧) السيب : العطاء . والنافلة : الزيادة ، والمراد من قوله : (ولا يحول عطاء اليوم دون غد) أن هذا الممدوح إن أعطى اليوم لا يمنعه ذلك من أن يعطى في الغد .

(٤٨) أبو قابوس : النعمان بن المنذر .

هذا الثناءُ فإن تسمع لقائِلِهِ
فما عَرَضْتُ أبيْتَ اللعنَ بالصَّفَدِ (٤٩)

ها إنَّ تا عِذْرَةٌ إلاَّ تكن نَفَعَتْ
فإنَّ صاحبها قد تاه فى البلد (٥٠)

* * *

(٤٩) هذا الثناء فإن تسمع نقائله ، ويروى : فإن تسمع به حسنا . وأبيت اللعن : أى أبيت أن تأتى شيئا تلعن عليه . والصفد : العطاء ، ويكون بمنزلة المكافأة ، والاسم الصفد .

(٥٠) تا : بمعنى هذه . ويروى : (ها إن ذى عذرة) ، وعذرة ومعذرة واحد . ويروى فإن صاحبها مشارك النكد .

دراسة وتعليق لمعلقة النابغة

تعتبر معلقة النابغة من أجود شعر المعلقات فى العصر الجاهلى ، فعلى الرغم من أنه يضمن القصيدة كثيرا من المعانى المتداولة عند شعراء العصر ، لكن الذى يذكر له أنه سبق هؤلاء الشعراء فى كثير من الأمور الفنية ، وهذا هو التفصيل :

الخصائص الموضوعية والفنية :-

المعلقة من أروع المعلقات غزارة فى المعنى ، وبراعة فى الوصف ، وليست أبياتها كلها وقفا على الغرض الرئيسى الذى قيلت من أجله ، لأن الشاعر تناول فيها عدة موضوعات ، وهى :

١- ذكر الديار .   ٢- وصف الناقة .

٣- المدح والاعتذار .

وهو إذ يفعل ذلك إنما يأتسى بمن حوله من شعراء

الجاهلية أمثال : زهير ، وطرفة ، وامرئ القيس ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، وغيرهم من الشعراء الذين كانوا يأتون فى أشعارهم بأغراض متنوعة أبرزها الوصف .

والذى يعنينا من هذه الموضوعات التى طرقها النابغة هو موضوع الوصف ، ذلك لأن وصف النابغة دقيق رائع، وكان من عادتـه أن يأتى به استطرادا أثناء حديثه فى الغزل ، أو المديح ، أو الاعتذار .

أما المقدمة الغزلية : فقد قدم بها لمديحه واعتذاره فى المعلقة بقوله :

يا دار مية بالعليـــاء فالسند

أقوت وطال عليها سالف الأمد

والـذى يذكـر لمطالع النابغة أن لها براعة خاصة ، لدرجة جعلتها تشتهر أكثر من غيرها ، هذا فضلا عن أن الأدباء والنقاد يكادون يجمعون على أن قصائده من أجمل

القصـــائد مطلعا ، وإن لم تكن هذه المقدمات الغزلية على درجة عالية من العاطفة القوية .

يقول الدكتور شوقي ضيف " [١] .

" وواضـــح أن هـــذا النســـيب فيـــه قدرة بارعة على الوصف ، ولكن ليس فيه عاطفة قوية " .

وأما وصفه لناقته : فقـــد بلغ فيه الغاية فى إحاطة الوصـــف وشموله ، ودقته ، وإن لم يصل فيه إلى الدرجة التى وصل إليها طرفة بن العبد .

ويـــبدو ولــــه النابغة بالناقة وعشقه لها فى استخدامه التشـــبيهات فى رســـم صـــورها ، لدرجة تجعلك تحس أن التشبيهات تتلاحق فى الأبيات وتتتابع .

لقد شبه الناقة فى سرعتها بثور وحشى :

(من وحش وجرة ...) .

ويمضى بعدئذ فيصف الثور الوحشى ، و كيف أصابه

---

(١) تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى) ص ٢٩٤ .

مطـــر، وعاصفة برد ، ثم لقيه صياد ومعه كلاب ، وكيف دارت معــركة بيـــنه وبيـــن كلب من الكلاب انتهت بمقتل الكلب:

(فارتاع من صوت كلاب فبات له ....)

(وكان ضمران منه حيث يوزعه ...) .

(كأنه خارجا من جنب صفحته ...) .

إلى آخر الأبيات .

ولعل هذه البراعة فى الوصف هى التى دعت الدكتور شوقى ضيف إلى أن يقول [١] :

" وهــذا الوصف أكثر حيوية من النسيب السابق ، لما بث النابغة فى الحيوان من حياة الإنسان ، وعواطفه وقلقه، وطمعـــه ويأســـه ، فالثور خائف يرتقب ، والكلاب طامعة تـــتربص ، وتنشب المعركة وكأنها معركة دامية ، فالثور يطعن طعن الرجل المدافع عن عرينه وحمـــاه ، ويقتـــل (ضـــمران) ، وينظر أخوه (واشق) فيرى أن القصاص

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٦ .

غير ممكن ، وتحدثه نفسه بأنه يطمع فى غير طائل ، وما يلـبث أن ينصرف عن المعركة ، وقد قذفت به فى مهاوى اليأس والقنوط .

ولا ينســى الـنابغة مهارته فى التصوير ، سواء من حيـث تمـثيل المنظر وتجسميه ، أو من حيث التشبيهات وإدخالها فى نسيج الأبيات " .

ويـبرز فى المعلقة بعد وصف الناقة والحيوان مديح النابغة للنعمان واعتذاره له .

وموضـوع المديح والاعتذار : هو الملاحظة الجديرة بالتسـجيل فى المعلقة ، ذلك لأن النابغة يعد رائد هذا الفن مـن فـنون الشـعر الجاهلى ، ومن يقرأ أبياته فِى المديح والاعـتذار يجـد أن مـا أتى به من براعة فى الاعتذار يصـعب على غيره من الشعراء أن يجيدوا القول فيه كما أجاد النابغة .

يقول الدكتور شوقى ضيف (١) :

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٦.

" وإذا كـــان النابغة يتفوق فى المديح تفوقا ظاهرا فإنه كذلك يـــتفوق فى الاعـــتذار ، وكأن ذوقه الحضرى هو الذى أعده لهذا التفوق إذ نحس فيه رقة فى اللهجة ، وإلحاحا فى التلطف .... " .

أثر البيئة فى النص :

والحقيقة أننا لا نلم بمعلقة النابغة حتى نؤمن حقا بأنه كان ابن بيئته ، يعرف كيف ينقل عنها ، وكيف يترجم عن أحوالها ، وفى تضاعيف ذلك كله نرى عنده صورا من البيئة الجاهلية ، مما يدل على صدقه لهذه البيئة ووفائه لها.

وهذه بعض الإشارات التى تلفت النظر إلى ذلك :

١- الـبدء بالغـــزل ، وذكـــر ديـــار الأحبة ، تهيئة للـنفوس ، " مؤتسـيا بمـن حوله من شعراء الجاهلية ، إذ كـــانوا يضـــعونه غالـــبا فى مقدمـــات قصائدهم ، وكأنهم يريدون أن يستوحوا المرأة شعرهم وقصيدهم ... " (١) .

٢- تأثــر الخيـــال بالبيئة فى تصوير الناقة ، والثور

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٩٣.

الوحشـــى ، ومـــا إلى ذلـــك مـــن الآثار والديار ، وبعض الأمكنة والمواضع التى فى الجاهلية .

٣- ومـــن ذلـــك أيضا الألفاظ والمعانى ، والصور ، وتراوح هذه كلها بين حضرية وبدوية .

٤- المنافســة التى عكستها الأبيات والتى كانت بين المـــناذرة فى العـــراق ، والغساسنة فى الشام ، وكيف قام النابغة بالتعبير عن ذلك كله وتسجيله .

٥- وجوانــب أخرى كثيرة فى شعر النابغة الذى بين أيديـــنا ، وكلها تفصح عن انتسابه للعصر الجاهلى ، سواء مـــن حيـــث ألفاظـــه ، أو من حيث صوره ومعانيه ، وما أروعـــه حيـــن الـــتزم الألفاظ البدوية فى وصفه للديار ، والصحراء ، والحيوان الوحشى ، والناقة .

. أمـــا حين يتوجه بأبياته إلى المديح والاعتذار ، فإننا نـــراه يؤثر الألفاظ المأنوسة الجزلة الرقيقة اللطيفة ، وهذه - البراعة - كما يقول الدكتور شوقى ضيف - جعلت نقاد العصـــر العباســـى يقولـــون : إنه " كان أحسن الجاهليين

ديباجة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتا "[١].

٦- هذا فضلا عن تمثله لشعراء العصر الجاهلي في حسن التخلص ، والانتقال من موضوع لآخر .

وقد عبر عن ذلك الدكتور شوقي ضيف فقال [٢]:

" وإذا كان النابغة يعني بألفاظه عناية راعت السابقين فإنه يعني كذلك بمعانيه .

وهي عناية أتاحت له كثرة الخواطر في اعتذارياته ، على الرغم من ضيق هذا الموضوع .

وأيضا فإنها أتاحت له ضربا من ترتيب أفكاره . ويتضح ذلك في تنسيقه لموضوعات بعض قصائده ، إذ نراه يحسن التخلص من موضوع إلى موضوع ، وارجع إلى معلقته فإنك تراه يخرج من النسيب إلى وصف ناقته خروجا تمهده المناسبة .... "

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٧. عن طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام .
(٢) المصدر السابق ص ٢٩٨.

أمـــا الخصـــائص الفـــنية التى للنابغة ، فنحن نراها تتلخص فيما يلى :

١- يعـــد الـــنابغة من شعراء الطبع الذين يمارسون أعمالهم الفنية دون أدنى تكلف أو تصنع وفى غير عناء أو جهد .

وقـــد أجمع الأدباء والنقاد على أن النابغة كشاعر من شـــعراء الطبع قد عبر عن نفسه تعبيرا مباشرا ، ينقل فيه إحساســـه . ويصـــور فيه مشاعره ، ويرسل عباراته كما يخطر على ذهنه ، دون أن يبذل جهدا .

٢- الـــنابغة مـــن الشعراء الذين يعتنون اعتناء شديدا بانتقاء الألفاظ والعبارات .

وأنـــت لا تكـــاد ترى فى ألفاظ النابغة لفظة وحشية ، وهـــو ينـــتقى الألفاظ البدوية فى وصف الأطلال والناقة ، ولكنه حين يمدح أو يعتذر يتخير ألفاظا رقيقة حضرية .

ومعـــنى ذلـــك أن الـــنابغة فى اعتـذاراته ينسلخ من

طبيعــته الــبدوية ، دون أن يحس القارئ لشعره فى ذلك بغضاضـــة ، بل على العكس من ذلك نرى أن ذلك السبيل الذى نهجه أعانه بشكل أو بآخر على تحقيق ما إليه يصبو .

ومـــن ثم يتضح الفرق بين النابغة وزهير ، مع اتفاق البيئة الخاصة بهما ، فالنابغة يدرك أنه ما حقق ذلك الذى هـــو فيه إلا باستمداده من غيره ، فالنعمان مصدر نعمته ، وهو لذلك مشدود إليه ، لا يستطيع الفكاك منه .

أما زهير فقد ارتبط ببيئته القبلية ، ولم يخرج عليها ، عـــلى الرغم مما أتيح له من أسباب الترف والنعيم ، فاتجه إلى مـــن يتسبب فى توفير الخير لأهله وعشيرته فلم يمدح شخصـــا بقـــدر ما مدح أفعالا ، ومن ثم افترق زهير فى مدائحه عن النابغة .

لذلك اتسمت مدائح النابغة بأنها تعتمد على الفن الذى لا يقـــوم عـــلى تجاوب نفسى ، ولا اتساق عاطفى ، وذلك فيما نرى أثر من آثار البيئة التى ضمت النابغة .

أما مدائح زهير فقد اتسمت بالصدق العاطفى الواقعى والفنى ، وكانت نابعة من شعور متسق مع الموقف .

٣- ومن الخصائص الفنية التي تميز شعر النابغة هو اختياره للمعانى المبتكرة الطريفة ، وهى معان تدل على سعة أفقه .

ومن ينظر القصيدة يلمس أثر معانى النابغة فى القارئ . كما يلمس أنه أمام شاعر يدرك أثر الكلمة فى سامعيه . فهو لذلك حريص كل الحرص على اختيار كلماته وانتقاء عباراته وألفاظه .

والنابغة شاعر لا يقول كل ما يريد أو يفد على خاطره ، بل هو الشاعر المتحفظ الذى يتروى فى إبراز أفكاره ومعانيه، وهو من جهته لا يزال وراءها بالصقل ، ومعاودة النظر ، حتى تستقيم له العبارة ، ويصح المعنى ، ويتسق مع متطلبات بيئته .

٤- الصور الخيالية الرائعة ، ومن الواضح أن صور

النابغة مثل معانيه تتردد وتتراوح بين بدوية وحضرية .

ومن هنا نلاحظ وجها آخر للخلاف بين النابغة وامرئ القيس ، فالناظر في شعر الشاعرين نظرة موازنة يلاحظ أن امرأ القيس يحرص على الصور التفسيرية المدعمة بالتشبيه وغيره من ألوان البيان ، بينما يحرص النابغة في تصويره على الصور البيانية القائمة على استقصاء الصورة ، والوقوع منها على الجوانب المصورة، كما رأينا في تصويره الغساسنة وما حققته من انتصارات ، وما للغساسنة أنفسهم من سجايا وقيم وخلال.

وليس يعني ذلك أن النابغة لا يستعين بالصور التفسيرية ، كل ما في الأمر أنه لم يحتفل بها احتفال امرئ القيس ، ولم يكن يعتمد عليها اعتماد امرئ القيس .

ولعل هذا هو السبب الذي جعلنا نرى النابغة يركز جهده في الوقوع من ممدوحه على المعاني التي يتمدح بها ، ويعرضها في ترتيب متناسق أخاذ .

٥- النزعة الأخلاقية ، ولا شك أن هذه النزعة هي التي أمدت النابغة بأفكاره الإنسانية الرائعة ، وهي التي جعلت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعجب بشعره لما فيه من إشارات دينية وأخلاقية .

وهذه النزعة هي التي جعلت الشاعر يعزف عن الهجاء ، بل ويتحفظ فيه إذا اضطر له اضطرارا .

وهو في ذلك يشبه تمام التشابه الشاعر الجاهلي زهير ابن أبي سلمى ، ولقد كانا في ذلك متأثرين بخلق البادية العربية المترفة أو المتحضرة ، الممزوج بالوقار الذي أضفاه على كل منهما مركزه بين عشيرته .

ولعل هذا الاتجاه المتحفظ في الهجاء كان أحد الأسباب التي مكنت للشاعر النابغة الذبياني في نفوس معاصريه من مختلف القبائل والعشائر ، فحكموه بين الشعراء في أسواقهم الأدبية .

٦- والأمر الذي ينبغي أن نؤكد عليه هو أن الفن

الذى ابتدعه النابغة ووضع أساسه ، وبرع فيه هو الاعتذار ، وهو أعظم شاعر فى هذا الفن غير مدافع .

يقول الدكتور شوقى ضيف فى ذلك (١) :

" ... فقد كان يعرف كيف ينوع معانيه ، وكيف يسلك إليها شعابا لم يسلكها أحد من قبله .

والذى لا ريب فيه أن باب الاعتذار والاستعطاف ضيق ، ولكنه عرف بمقدرته الخيالية كيف ينفذ منه إلى صور طريفة ومعان دقيقة ، يقوده فى ذلك ذوقه الحضرى الذى نصب أمام عينه اتصاله بالغساسنة ذنبا كبيرا وجرما لا يغتفر فى حق النعمان بن المنذر " .

٧- لقد جمع النابغة بين الشعر والنقد ، وقد استطاع النابغة أن ينال بسبب من هذا المنزلة العالية فى نظر كل

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٢.

من الأدباء والنقاد على السواء .

وقد قرنه ابن سلام إلى امرئ القيس وزهير والأعشى، فهؤلاء الأربعة في نظره هم المقدمون على سائر شعراء العصر الجاهلي .

ولم يتوقف هذا الحكم عند ابن سلام ، بل تبعه في ذلك الرواة والأدباء والنقاد ، فرأوا جميعا أن هؤلاء الأربعة هم السابقون في اقتدارهم على النظم ، وتصريف فنون الشعر المختلفة .

لهذا اشتهرت قصائد النابغة ، ونالت شهرة واسعة ، ومن أشهر هذه القصائد بائيته التي قالها في مدح الغساسنة، ولعل ما نالته من شهرة إنما هو راجع إلى مالها من شهرة فنية .

وقد قال هذه القصيدة في مدح الملك عمرو بن الحارث الغساني ، وآبائه ، وعشيرته ، وأشاد فيها بانتصاراتهم التي كان لها دوي رائع .

ومنها يقول :

كِليني لهـــمٍّ يا أُميمةُ ناصبِ

وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكبِ (١)

تطاولَ حتى قلت ليس بمنقضٍ

وليس الذي يَرْعَى النجومَ بآيبِ (٢)

وصَدْرٍ أراح الليلُ عازبَ هَمِّهِ

تضاعفَ فيه الحزنُ من كل جانب(٣)

علي لعمرو نعمة بعـد نعمة

لوالده ليست بذات عقارب(٤)

---

(١) كليني : دعيني . وناصب : متعب . وبطيء الكواكب : كناية عن أنها لا تغور ولا تمضي .

(٢) راعي النجوم : الصباح . وآيب : راجع .

(٣) أراح : أعاد من المرعى . العازب : البعيد .

(٤) عقارب : أمور مكدرة .

إذا ما غَزوا بالجيش حَلَّق فوقهم

عصائبُ طيرٍ تهتدى بعصائبِ (٥)

يُصاحِبْنَهم حتى يُغِرْن مُغارَهم

من الضَّاريات بالدمـــاء الدوارب (٦)

تراهن خَلْفَ القوم خُزْراً عيونُها

جلوسَ الشيوخ فى ثياب المَرانبِ (٧)

جوانحَ قد أيقـــنَّ أنَّ قبيله

إذا ما التقى الجمعان أولُ غالبِ (٨)

---

(٥) عصائب : جماعات .

(٦) الضاريات : المتعودات . والدوارب : المدربة .

(٧) خـــزر العيون : جمع أخزر وهو الذى ينظر بمؤخر عينه . والمرانب : ثياب سوداء .

(٨) جوانح : مائلات للوقوع بأجنحتها .

لهنَّ عليهم عادةٌ قد عرفْنها

إذا عُرِّضَ الخَطّيُّ فوقَ الكواثبِ (٩)

على عارفاتٍ للطعان عوابسٍ

بهنَّ كلومٌ بين دامٍ وجالبِ (١٠)

إذا استُنْزِلوا عنهن للطَّعن أَرْقَلُوا

إلى الموت إرقالَ الجمال المَصَاعبِ (١١)

فهم يتساقون المنية بينهم

بأَيديهمُ بيضٌ رِقاقُ المضاربِ (١٢)

---

(٩) الخطى : الرماح . والكواثب : القربوس .

(١٠) عارفات : صابرات . وكلوم : جروح . ودام وجالب : مدم ومتجمد عليه الدم .

(١١) أرقلوا : أسرعوا . والمصاعب : النافرة .

(١٢) بيض : سيوف .

يطير فُضَاضاً بينها كلُّ قَوْنَسٍ
ويتبعها منهم فَراشُ الحواجـبِ (١٣)

ولا عَيْبَ فيهم غير أنَّ سيوفهم
بهن فلولٌ من قِراع الكتائبِ (١٤)

تُورِّثْنَ من أيامِ يومِ حليمـةٍ
إلى اليوم قد جُرِّبن كلَّ التجارب(١٥)

تَقُدُّ السَّلوقيَّ المضاعَفَ نَسْجُـهُ
وتوقد بالصُّفَّاح نارَ الحُباحب(١٦)

---

(١٣) فضاضا : متفرقا . القونس : أعلى الرأس . وفراش الحواجب: عظامها .

(١٤) فلول : ثلوم . وقراع : مضاربة .

(١٥) يوم حليمة : معركة مشهورة انتصر فيها الغساسنة بقيادة الحارث بن جبلة الغسانى على المناذرة بقيادة المنذر بن ماء السماء .

(١٦) السلوقى : الدرع المنسوبة إلى سلوق من أرض اليمن . وتقد : تشق . والصفاح : الحجارة ، ويريد خوذ الجنود . والحباحب : ذباب له شعاع بالليل .

بضرب يُزيل الهام عن سَكناته

وطَعْنٍ كإيزاغ المخاضِ الضوارب [١٧]

لهم شيَمةٌ لم يُعْطها اللهُ غيرهم

من الجود والأحلامُ غيرُ عَوَازِبِ [١٨]

مَحَلَّتُهم ذاتُ الإله ودينُهم

قويمٌ فما يرجون غيرَ العواقب [١٩]

رقاقُ النِّعال طيبٌ حُجُزاتُهم

يُحَيَّوْنَ بالرَّيْحان يوم السَّباسبِ [٢٠]

---

(١٧) الهام : جمع هامة وهى الرأس . الإيزاغ : دفع الناقة بولها ، والمخاض : الحوامل .

(١٩) ذات الإله : بيوت الله . والعواقب : الآخرة والثواب .

(٢٠) طيب حجزاتهم : معاقد أزرهم تفوح طيبا . يوم السباسب : عيد عند المسيحيين .

تحيّيهمُ بيضُ الولائـــدِ بينهم

وأكْسيَةُ الإضْريجِ فوق المشَاجب[٢١]

يصونون أجساداً قديماً نعيمُها

بخالصة الأرْدَانِ خُضْرِ المناكب[٢٢]

ولا يحسبون الخير لا شرَّ بعده

ولا يحسبون الشَّر ضربةَ لازب[٢٣]

حَبَوْتُ بها غَسَّانَ إذ كنتُ لاحقاً

بقومي وإذ أَعْيَتْ عليَّ مذاهبي[٢٤]

---

(٢١) الإضريج : الحرير الأخضر .

(٢٢) خالصة الأردان : ثياب نقية الأكمام .

(٢٣) ضربة لازب : ضربة قاضية .

(٢٤) أعيت على مذاهبي : سدت على الطرق .

وبهـذا انـتهت رحلتنا مع النابغة ، الشاعر الجاهلى الـذى اسـتجمع مجموعة كبيرة من الظواهر الفنية جعلته فيمـا يـبدو فى نظرنا محورا لدراسات مختلفة الاتجاهات مختـلفة النـتائج ، كمـا جعلت شعره مادة صالحة للنظر والاجـتهاد ، بـل والخصومة بين كثير من الأدباء والنقاد القدامى والمحدثين على السواء .

وبعـد هـذه المعالم البارزة فى شعر النابغة ، والتى عزمـنا على جمعها فى هذه الدراسة لا نستطيع أن نزعم أننا قد أحطنا بجميعها علما ، وأننا – بهذه الدراسة لقصيدة مشهورة من قصائده – سددنا منها كل ثغرة .

عـلى أن شـهرة الـنابغة وتربعه على عرش الأدب والنقد فى العصر الجاهلى إنما هى وليدة مؤثرات وأسباب حقيقيـة ، منها ما يتصل بطبيعة النابغة وحياته وعصره ، ومـنها ما يتصل بالظروف والملابسات التى دفعته للنظم من جهة والنقد من جهة أخرى .

والحقيقــة أن هذه الظروف ، وتلك الأسباب قد دفعت بالشــاعر ، بل فرضت عليه أن يتفاعل مع أشعاره ، وأن يقف على كل ما عرف لعصره ويحاول أكثر من غيره أن يجارى العصر وبيناته فى الأفكار والأساليب .

وفى رأيــنا أن الذى جعل فنى (المديح والاعتذار) أكثر الفنون الشعرية شهرة عند النابغة هو أن كل ما أنشده فى هذين الفنين انما كان تصويرا كاملا لحقيقة حاله وواقع أمره ، وهذا فى الحقيقة مذهب اختاره لنفسه وتفرد به .

إن الــنابغة على عادته فى تمكنه وعظمته ، وتحكمه فى مقــاليد الشــعر أخــرج لــنا البديع الرائع ، والخيال الخصب، والصور الممتعة ، وهذا إن دل على شيء فإنما يــدل عــلى أن شــاعرنا كان مدركا لفنه الشعرى ، وكان مقدرا له كل التقدير .

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين ، وبعد :

فهذا هو كتابنا في النصوص الجاهلية ، وقد تناول مجموعة من القصائد تتعاون جميعها في بسط مادة الأدب الجاهلي ، بحيث تنقل للدارس صورة عن حياة العرب (الاجتماعية ، والسياسية ، والعقلية ، والدينية) ، وبجانب ذلك تقدم صورة تحليلية لبعض القصائد الجاهلية ، ودراسة لعدد من الشعراء .

والحق أننا قد نفذنا في هذا الكتاب منهجا جديدا في تناول النصوص الأدبية ، ولكي تتم الفائدة تحرينا أن نجعله ثقافة أدبية مشوقة تحقق كما سبق القول المتعة

والفائدة معا .

وأملنا أن ينتهز أبناؤنا الدارسون والطلاب من محاضرات النصوص الأدبية الفرصة لقراءة النصوص الواردة فى هذا الكتاب ، وأن يسجلوا على كل نص أسئلة متنوعة يستنبطون منها غرض النص ، ومناسبته، وخصائصه ، و أن يقوموا كذلك بتفهم المعانى والأفكار والصور، تمهيدا للحكم على منزلة صاحب النص الفنية وإبراز مكانته بين أقرانه من شعراء العصر.

والله نسأل أن ينفع بجهدنا الطلاب والدارسين

المؤلفان

فهـــرس الموضوعات